أمِّي كولجِهان

حكايات الظّل والحَرور

أمّي كولجِهان.. حكايات الظّل والحَرور (رواية)

غنية الشبيبي (كاتبة عُمانية)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022

الآن ناشرون وموزعون

الأردن، عمّان

alaan. publish@gmail. com

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

سلطنة عمان، مسقط

omani- writers@hotmail. com

هاتف: 96824346753+ / 96824346754+

المدير العام: د. باسم الزعبي

لوحة الغلاف: الفنان أنور سونيا (سلطنة عمان)

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنفه ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع في سلطنة عمان: (2021/4097)

ISBN: 978- 99969- 863- 9- 0

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: (2021/12/6752)

غنية الشبيبي

أمِّي كولجِهان

حكايات الظّل والحَرور

رواية

الإهداء

إليكِ أنتِ. . . أيتها المارقةُ من بين أذرعِ التوابيت بسلام، لا تحزني، ولتعلمي أنّنا نولد مرّة واحدةً، ونموت ألفَ مرّة، كوني قويةً، كما عرفتك، فموعدُ تابوتك الأخير لا يزال بعيداً .

غنية

ملاحظة:

- **الأحداث والشخصيات المذكورة في الرواية لا تنتمي إلى أرض الواقع، وهي من نسج خيال الكاتبة.**
- **الأناشيد وأغاني الطفولة المذكورة في الرواية من الموروث الشّعبي العماني.**

عتبة خروج

انطوت السنون راكضة، غير مكترثة برغاء الأمنيات المؤجّلة، والأحلام المنتظرة، لكنّها رغم ذلك، كانت كفيلة برتق الجروح التي بعثرها الفقد والحرمان على أرواحنا، نعم لم يقتلنا الفقد، ولم يقضِ الحرمان على بسمتنا، وإن أجّلها ليوم الجبر، لكن ماما كولجهان -رحمها الله- كانت تقول غير ذلك، كانت تقول: «الفقد وتواري الأحبّاء خلف جدران الموت المرعبة قد يقتل من أحبوهم، وإن بعد حين». أحقا ذلك؟ أنا لا أعلم ما الذي دفع بسيّدة قويّة مثلها أن تبوح بهكذا حديث! وماجد أيضا لم يكن يعلم شيئا سوى دفء مبسمها، وخوفها عليه، ثم اختفاء جسدها داخل غرفتها المشبعة برائحة الموت والغموض، وأشياء أخرى نجهلها.

الساعة الآن الرابعة والنصف مساءً، أفترش حصيري تحت ظلّ «غافة الرايح» كما أسمتها ماما كولجهان وجاراتها، إنّها غافة «الحويرة» العجوز، التي عرّتها الحياة من وريقاتها مرارا، بيد أنّها تستبدل بها في كلّ مرّة وريقات أخر، يبدو صمودها أشبه بالسّحر، وظلالها كأنّها تعويذة ترقي بها أولئك النّسوة، اللاتي جئنَ إليها؛ يبغين الغوث من الموت، ذلك الشبح الذي يراودهنّ عن قوتهنّ في اليوم ألف مرّة!

أسند ظهري على جذعها، أسمع أصوات الذكرى، لتلك النّسوة اللائي لفظن تحت ظلّها حرور الحياة، ثم غادرنها حين غادرت ماما كولجهان الدنيا، ورحلت مع تابوتها الأخير، فالخالة زعيمةٌ هاجرت «الحويرة» إلى

السّيب، حيث ابنتها، بعد أن أصابها وهن الشيخوخة، وخالتي خديجة وبناتها انتقلن إلى بيت كبير، بَنَتهُ مريم لهنّ في المخطط السَّكني الجديد في طرف «الحويرة»، بعد انتشال أشجار الأراك التي تعمر المكان منذ أمد طويل، وبعد أن تركها زوجها الذي حلق لحيته الطويلة وأطال ثوبه، هذه المرّة، لم يتركها لممارسة «الدعوة إلى الإسلام» كما كان يدّعي، وإنّما إلى مكان لا يعرفه أحد في إحدى ضواحي مسقط، قيل إنّه شوهد غير مرّة برفقة امرأة من جنسية عربية، ولا يمكن لأحد أن يجزم بالحقّ، فالرجل لم يعد إلى زوجته وبناتها مذ غادرهنَّ، أما الخالة أم عبيد فرغم ما اعتراها من جبروت العجز والكبر، فإنّها ما تزال تداوم على زيارة قبر عبيد، وتمارس الطقوس نفسها التي اعتادت عليها منذ ما يزيد على أربعين عامًا، تتقرفص عند قبره، وترشّ عليه ماءً باردًا، قرأت عليه بعض السور القصار، وأدعية للموتى، لا أفهم كيف تتعرّف على قبره المندثر من بين مئات القبور هناك! أمّا عن الخالة ليلى فقد استأجرت محلّا في الخوض، وأصبحت تورّد بضائع من دبي والفجيرة، والكويت، وتركيا، ونادرا ما تزور «الحويرة»؛ بسبب اشتغالها في تخليص أمور تجارتها، التي يعينها فيها ابنها.

أضع جهازي المحمول قبالتي، تصطفّ إلى جانبه بضعة كتب، قريبا سأناقش نتائج دراسة الدكتوراه في النقد الأدبي القديم، تقترب منّي سارة بنت ماجد بن حمد. لسارة نصيب وافر من اسمها. حين وُلدت اقترحتُ تسميتها «كولجهان»، لكنّ أبي رفض ذلك، وقال: «لا نريد للزّمن أن يعيد نفسه، ولا للجرح أن يدقّ ثانية» ثمّ صمت، فصمتنا جميعا، وقلوبنا شتّى، مبعثرة بين حكايات الراحلين، وشطط أمنيات القادمين، تساءلنا مرارا وما

زلنا: هل يرث المرء الأقدار كما يرث الأسماء؟ أم «إنْ هي إلّا أسماء سُمّيتموها»؟!

تحاول سارة مناكفة خيوط الضوء، المستلّلة من بين الأغصان المتشابكة للغافة، وحين تتململ تهرع إلى حضني، أكملتْ منذ أيام عامها الرابع، تقتعد حجري، وتمدّ كفّها الصغيرة إلى جهازي، محاولة العبث بلوحة المفاتيح، فأغلق الجهاز، وأسمح لها بممارسة لعبتها المفضّلة والنّقر المتخبط على أزرار الجهاز. سارة هي سلواي بعد أن انتزع منّي قدري أعزّ ما تفاخر به الأنثى وأجمل ما تحلم به وهي على عتبات الأنوثة المنتظرة، بعد أن خذلني من ادّعى «الحبّ»، ورحل مع أبيه إلى الكويت بعد وفاة ماما كولجهان، لا يهمّ، أنا لا ألومه، لكنّي وددت ألا تتلطخ قدسية الحبّ بلوثة الادّعاءات الزائفة، أوَليس الحبّ أن تشاطر مَن تحب مكائد الحياة وتقاسمه خذلانها الدائم؟ لكنّي أكرّر: لا يهمّني بعد أن منحني الله سارة، التي تعلقت بي ولا تناديني إلا «ماما حياة»، كم أعشق صوتها النّاعم وهي تقول: «ماما حياة، ماما حياة»!

حياة بنت حمد

الحويرة – المصنعة

2021م

الفصل الأول

وقفت عند باب خيمتي، أمدّ بصري لباحة بيتنا الرحبة والمتربة، بيتنا العتيق الذي شيّده جدي -رحمه الله- من جريد النخيل، هو كسائر بيوت «الحويرة»*، غارق وسط أرضها الرحراحة، يشتمّ عبق الصحراء الممتدة، المطعمة بشجيرات الهرم والأشخرة، وأشجار الأراك التي تتشابك أوراقها، وتلتفّ أغصانها على بعضها، فتبدو كأمٍّ ترضع صغيرها، وقد أسدلت على صدرها وطفلها غطاء رأسها الفضفاض، كما تتباهى الحويرة بأشجار الغاف العملاقة، المتمسمرة كحارس ضخم الجثّة، يحمي القرية الصغيرة من عدو مجهول، لا يعلم عنه أحد، فـ«الحويرة» لم تعرف عدوّا قطّ، كانت منذ أمد مضى، كما سمعت من أبي وعمّتي شمسة، وما تزال وادعة إلا من مشاكسات الحياة اليومية، التي يمارسها البسطاء على أرضها؛ طلبا لرمق يومهم، في نهاراتهم المتشابهة، التي ما إن تسدل العتمة ستائرها عليها حتى تطمس أجسادهم في نوم عميق، لتتأهّب ليوم آخر؛ علّه يكون مغايرا لأيامهم السالفة، وعلّ الرزق الذي يحلمون به منسابا وافرا، يغدق عليهم بغتة.

* قيل في تسميتها «الحويرة» إنه بسبب صغر مساحتها إذا ما قورنت بسائر قرى ولاية المصنعة، و«الحويرة» تصغير لكلمة «حارة»، وسمعت أنه كان يطلق عليها قديما اسم آخر، لا أعرفه، لكن الناس الذين زاروها من قرى أخرى، استكثروا عليها ذلك الاسم، واستصغروا مساحتها، وقالوا: «ما هذه إلا حويرة»، فلصق بها الاسم، وصارت تسمى «الحويرة».

خيمتي هي خيمة «قصايب»، نتشارك فيها أنا وسالم وجميلة، ننام فيها شتاء، ونهجرها صيفا؛ لننام في «المنامة»*، وإن كنت أخالف هذا الطقس أحيانا، وأنسلّ بجسدي إلى خيمتي المغلقة، فيتبعني إخوتي، يسمّي أهل «الحويرة» الخيمة المغلقة المبوبة «القصايب»، والمفتوحة «خيمة الدكي»، هذه التسميات التي لم أدرك مخزونها الدلالي إلا بعد أن شرحتها لي عمّتي شمسة غير مرّة، وأنا بدوري شرحتها لسالم وجميلة، في باحة البيت الترابية، وعلى زاوية قصية، ثمّة عريش مفتوح، ترقد تحت ظلّه أدوات المطبخ، والأواني النحاسية، وأباريق القهوة. هناك كان أبي يقعد متناولا فطوره، تناوله عمّتي شمسة القهوة، دنوت منهما، أرسلت إليه نظرات حبلى بالإعجاب والحبّ والترقّب، وأشياء أخرى كثيرة، يبدو أنّه فهم بعض مقصدي، بادرني القول:

- إن شاء الله يا كولجهان، اليوم سأحدّث القاضي بشأنك، سأخبره أنّ معي ابنة لها شغف الاطلاع، نريد بعضا من كتبك، وسنعيدها إليك فور إنهائها.
- شكرا أبي، سأقرؤها بسرعة، لن أتأخّر، أعدك.

داهمني صوتها الحادّ وهي تصرخ، هذه العجوز لا تجيد الحديث بصوت هادئ، تتحدث وكأنّها ترشقك بأطنان الغضب، لسانها الطويل يطقطق على الدوام، وبمهارة فائقة:

- اسمعيني يا «بنت رضيوة»، البنات للمطبخ وأعمال البيت، انتبهي لإخوانك وشغل البيت والمزرعة إلى أن يأتي نصيبك وياخذك، ما معنا بنات يفتّشن في القراطيس والكتب، خلّي العلم لأهله.

* إنها وسلية ابتكرها أهل «الحويرة» وغيرها من القرى الساحلية، يفتّشون فيها عن النسمات الباردة في عزّ الصّيف، وهي مكان مرتفع قليلا عن الأرض، يدعم بجذوع النخيل، ومفروش بجريدة.

- جدتي، أنا تعلمت عند المعلم سلمان، وكنتُ أقرأ عنده قراءة حسنة، هو أشاد بي غير مرّة أمام جميع الطلاب، وقال كولجهان فهيمة ونبيهة، حتى إنه أخبر أبي بذلك؛ لذا عزمت على المضي في التعلّم، وطلبت كتابي «تلقين الصبيان» و«تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان» من القاضي.

زمّت شفتيها النحيفتين، وأشاحت بوجهها عني وهي تردّد كلماتها التي تردّدها دائما:

- خِلْفة «رضيوة» ما فيها خير... خِلْفة «رضيوة» شينة، كلجان (هكذا تنطق اسمي، الذي نادرا ما تلفظه) تسأل الرجال عن الكتب والقراطيس، وجميلوة الشيطانة تدور مثل الدوامة، من بقعة إلى بقعة، بين غافات «الحويرة» حتى مع الصبيان تلعب.

ولا تذكر سالم، هو عندها مستثنى، وليس في عداد «الخِلفة الشينة»، كانت توقع عقلها في فخّ التناقض، متباهية بذلك، ولا يحقّ لأحدنا أن يردّ عليها أو يناقشها، وإلا تبعته الـ «خلفة شينة» كما تتفوّه دائما.

وعلى كثرة الترداد تعتاد النفس فتتجاهل، وتغضّ الطرف، في البدء كان أبي يردّ ردًّا رقيقا خشية أن يعلو صوته صوتها، كان يقول:

- الله يرحم رضية، ويبارك في ذريتنا، يا أمي رضية كانت نعم الزوجة، وما شفت منها إلا الخير، والرحمة واجبة على الموتى و...

ولا يكاد يتمّم حديثه، حتى تزعق في وجهه:

- ساحرتنك الـ... ، هي حية وهي ميتة، لو فيها خير كان عاشت، وربّت عيالها، لكن الله أراد ياخذها.

ويصمت أبي، ويغوص في سكونه، كأنما يستحضر ذكرى قادمة من بعيد، حتى صار الصمت خليله كلما علا هدير صراخها، وتذمّرها المكرور، من أشياء

قد لا تستحق الطرق، ولا يعوزها زعيق ولا نفير، لكنها هكذا مذ عرفناها، لا يروق لها شيء قطّ، سواء أكان في شؤون البيت أم المزرعة، نراها تحوم بجسدها الطويل المنحول من مرْبَع لآخر، تفتِّش هذا، وتنبش ذاك، وتتأكد من ترتيب الخيم، ونظافة الطنافس، وكمية الحطب المتوفرة في البيت، حتى إذا لحظت نقصا ما صرخت، وأقامت ثورة عارمة، نتحمّل لظاها أنا وعمّتي شمسة، فجميلة عندها «شيطانة وهبلة ما منها فايدة».

قبّلت يدي أبي وجبينه، مسح على رأسي برأفة، ثم ربط محزمه، وعدّل من وضع عمامته، وغادر البيت، متوجّها إلى حصن المصنعة، حيث يدير الوالي شؤون الولاية، ويحكم القاضي الورع الفطن سيف بن منصور في الكثير من الخصومات، التي تتقاذف عليه بشكل يومي، أما أبي فثمّة عمل شاق ينتظره، و«بروات» مكدّسة، يجب عليه إيصالها لأصحابها في الموعد. القاضي سيف بن منصور ليس من أبناء الولاية، تعود أصوله إلى إحدى قرى جبال الحجر، يسرد علينا أبي كثيرا من حكاياته ومواقفه المنصفة في خصومات أبناء الولاية.

عمل أبي مرهق جدا، تحت شمس الصيف الحارقة، حيث يجوب القرى على ظهر حماره، يوصل «البروات» المرسولة من الوالي إلى الأهالي، ومع أنّ عمّتي شمسة توسّلت إليه غير مرّة أن يريح نفسه من هذا العمل المجهد، وينتبه لمزرعته التي ورثها من والده –رحمه الله–، فإنه يتعمد تجاهل توسلاتها في كل مرّة، ويعقّب قائلا:

– هناك سعيد وخصيف، ثم إني أعمل فيها وقت العصر، وهذا كافٍ.

تحمل عمّتي همّ المزرعة إلى جانب أشغال البيت ومسؤولياته، تبرق من عينيها الواسعتين قوّة عجيبة، كنجمة ساطعة في سماء بعيدة، تتكفل ببث وهجها إلى الطرق المعتمة، دون كلل أو نصب، نعم تمتلك عمّتي إرادة من حديد، تجابه

بها إهانات العجوز الشمطاء، التي لم يسلم من سبابها أحد، أتعجّب من قدرتها على مواصلة الحياة مع أبي، رغم قذاعة لسان أمه، وأهمس لنفسي: ربّما يكون الحبّ وراء ذلك الجبروت الروحي. تمرّ أطياف سعيد أمامي كنسمة باردة، وأغرق في خيالاتي، أتفيأ تحت ظلال لقاءاتنا العابرة، هو لا يتحدّث إليّ مباشرة، عيناه فقط تتحدثان، أشعر بهما، إنّهما تغوصان إلى أغوار روحي، ثم تغرسان شيئا ما هناك قبل أن ترحلا، لا أدرك ما هو، لكنّه شهيّ مبهج، شيء كزهر الليمون، ينعش القلب فينتفض نفضة لذيذة، وددت ألا تزول، ويظلّ وجه سعيد وبسمته، ورجولته الطاغية، تفوح قبالتي دهرا، لكن كلّما حلمت بذلك، وغرقت في تفاصيله الشهيّة، أرى شبحها يرمقني بنظرة بشعة، ماذا لو درت تلك العجوز بما تموج به خيالاتي؟ حتمًا سأكون لقمة سائغة للسانها النزق، أو ربّما أمرت بقتلي، لم لا؟ فخِلفة «رضيوة» شينة، وعديمة الجدوى، كما تدّعي مرارا.

صوت عمّتي شمسة يقطع شرودي:

- كولجهان، هيّا بنا، حان وقت التحطيب.
- لكن كمية الحطب تحت العريش كافية لأسبوعين قادمين.

نظرت عمّتي إلى جدتي، التي بسطت ساقيها الهزيلتين على الأرض، تتراقص أصابعها؛ لتحوك ثوبا كحليا، بينما تغرق عيناها، محاولة دسّ خيط رفيع في ثقب الإبرة، ثم غمزت لي بعينيها، فأدركتُ الأمر، وعقّبتُ ساخرة:

- حسنا عمّتي، لقد فهمت، يجب أن ترضى عجوز الدّار عن كمية الحطب المتوفرة؛ لأنّ أشجار الأراك قد تنقرض بغتة.

ضحكت عمّتي ضحكة خفيفة، فانفرجت شفتاها عن أسنان صغيرة بيضاء، ثم أردفت:

- هيّا اتبعيني.

لم يكن جلب الحطب أمرًا هيّنًا، فكثيرًا ما كانت الجروح الصغيرة ترسم خارطة حمراء على أيدينا، كما أنّ أشجار الأراك التي نحطب منها بعيدة بعض الشيء عن بيتنا، وعادة ما تتخفّى تحتها بعض العقارب السّامة؛ احتماء من قسوة الحرارة، وقد نلمح أحيانا رؤوس ثعابين، تطلّ بخبث من بين تغضنات الجذوع السّفلية، لكنّ عمّتي شمسة دائما ما تكون حاضرة الفكر، وحسنة التصرف، تأخذني من يدي؛ لنغادر بحثا عن أراكة أخرى أكثر أمنا، وقد تكفّل الزمن بجعل ظهورنا تعتاد هذا الحمل الغليظ، شبه اليومي، في بعض المرّات يلمحنا خصيف، ونحن نحمل الحطب بتثاقل، فيهرول ناحيتنا ليمد يد العون، ويحمله عنّا إلى البيت، لخصيف بدن قويّ، لا يهاب الأثقال، ولا سلطان الشمس، التي ترسل حرارتها بسخاء في هذا الوقت من العام، إنّه يحترم عمّتي، ولا يناديها إلا «الحِبّة» وحين كنت في عمر جميلة، كنت أعجب من سرّ هذه المناداة، وأتساءل: أيحب «خصيف» عمّتي شمسة كثيرا حتى التصق بلسانه لقب «الحبة»؟ لكنّي حين كبرت قليلا أدركت سرّ ذلك.

***

تزوج أبي من عمّتي شمسة بعد وفاة والدتي بأشهر قليلة، تقول عمّتي بأنّ أمّي هاجرت إلى الله مع من هاجر من الأجساد، التي أضناها جبروت المرض، فحلّت عليها رحمة الله، وأخذتها إلى السماء، عن ذلك حكت لنا عمّتي، كنّا متحلّقين حولها: أنا وسالم وجميلة، نرقب عينيها المثختتين بالحنين وهي تسرد حكايات كثيرة، سكنت قلبها، ولم ترحل حتى مع رحيل أبطالها:

«كان ذلك في نهاية عام 1950، حين حلّ مرض «الجدري» بالحويرة والقرى المجاورة، كان شيئا مرعبا، ووحشا غادرا خطف أرواحا كثيرة، والقلّة القليلة من قُدّر لها النجاة، يمدّ أذرعه المتوحشة إلى الوجوه الجميلة، والأجساد الطرية،

فيحيلها مسخًا متآكلًا، ينهش سكينتها، ويقلبها كتلة من اللهب، قيل إنّه وصل الحويرة والمناطق التي تجاورها عن طريق المسافرين إلى جوادر ومكران، وبعض العوائل التي تجاورنا في الحويرة، وسائر قرى المصنعة ممّن لهم أهل وأقارب هناك يزورونهم بين السّنين، فالمرض مُعدٍ، وسريع الانتشار، وما إن وصل حتى أخذ يستلّ العافية من الأجساد، ويلقي بها جثثا موبوءة. أتذكر معاناة والدتكم -رحمها الله-، ما زالت نظرات الألم التي تنفلت من عينيها تراود ذاكرتي، تهطل عليها بلهيب مؤلم، هزلت عيناها، وتحوّل جسدها النحيل إلى كرة مشتعلة، كانت تجاهد لابتلاع الألم، وحين ينتصر عليها تطلق صرخة مدوية، تنتزع الجأش من قلب والدك، فيسقط باكيا. حاول مرارا أن يأخذها إلى مطرح، حين سمع برجل أمريكي يدعى «الدختر طومس»، كان يقدم العون الصحي لمرضى الجدري هناك، ومعه كما عرفت من والدكم نساء ورجال يعينونه، ويعتنون بالمرضى، حتى قيل إنّ بعض مرضى الجدري قد شفاهم الله بفضل هذا الرجل، لكنّ المصنعة بعيدة عن مطرح، ولخوفه عليكم وافق أخيرا على أخذها إلى ضاحية في الطرف الجنوبي للحويرة، يُعزل فيها المصابون بالجدري عزلًا شبه تامّ، فأهالي المرضى يراودونهم بين السويعات، يجلبون لهم طعاما يسدّ رمقهم، ومن يُصب فله الله على بلائه، ومن يحفظه من شرّ العدوى فقد رحمه، فالمرضى هناك تحت «خيمة الدكي» يئنّون، تقضم الحمّى أجسادهم قضمًا مريعًا. كنت أرقبهم بهلع حين كنت أزور والدتكم في «خيمة المجدر»، بعضهم كان يتقلّب، وقد وضع كفّيه على بطنه، ربّما من فرط الحمى وألم البطن، والبعض كان يعمر الزوايا يتقيّأ، وقد طمس أطرافه في الرمال؛ علّ دفء الأرض يسعفه، بينما شرعت حبوب كبيرة مستديرة تطفح على وجهه وأطرافه، وبين كلّ هؤلاء كنت ألحظها، وقد بسطت ساقيها على الرمل، وأخذت تمسح عليهما

بيديها برفق؛ عسى أن يبرد احتقان الوخز فيهما، تراني فتدمع عيناها، وكأنّهما تقولان: سأغادر يا شمسة، سأرحل كما رحلت رفيقتنا كولجهان. وما هي إلا بضعة أيّام حتى ربض الموت بأسماله المرعبة علينا، واستلّ روحها الشفيفة، غادرتنا والدتكم، غادرتنا في شتاء 1950م، كان عمر كولجهان آنذاك لا يتجاوز سبعة أعوام، وسالم خمس سنين، أما جميلة فلم تكمل عاما واحدا يوم الفجيعة، رقد الكمد على قلب والدكم، وتسكّع الحزن على ردهات أيّامه، حتّى جدّتكم، التي كثيرا ما أساءت إليها وما تزال، أصابها ما أصابنا من لوعة، وحده الفقد يا أبنائي من يهزم الروح، ويغرز فيها سكاكين الحرقة، فمن يأخذه الموت لا يعُدْ، لا يعُدْ أبدا. تزوّجني أبوكم بعد أشهر من رحيل والدتكم، كان لا يزال يغالب ذكراها، أنا أيضا لم أنسها؛ فهي رفيقة صباي، وابنة قريتي، وقد عاهدت قلبي أن أمنحكم حياة خضراء، تطفئ مرارة فقدكم، فلا أمرَّ من فقد الأم!».

ولم يلوِ الزمن كلماتك أيتها السيّدة القوية، فقد توشّحت أيّامنا معك بزهر الأمان، كنت الأمّ التي لم تلدنا، ومن قال إنّ الأمّ هي من تلد فقط؟ كل من ربّى وسهر وتعب يستحقّ كلمة أمّ، يستحقّ ردّ الجميل، ولو بكلمة «أمي».

تزوّجت عمّتي شمسة مرتين قبل أبي، ولم ترزق بأبناء، ثم تزوجّها أبي –كما عرفت منها– دون موافقة جدّتي، التي رفضت ذلك رفضا قاطعا، حتى إنها كانت تسميها: «العاقر»، وكانت تردّد على مسامعه كثيرا:

– تزوجتها لتقطع نسلك مع تلك العاقر! تزوجَت مرّتين قبلك، ولم تنجب، أرضها بور، لا تصلح.

ومع إصرار أبي عليها تمّ الزواج، ورضخت الجدة للأمر مكرهة، لكنّها مع مرور الوقت صمتت، ربّما لأنّها أدركت أنّ هذا الزواج خير لها، ولأبي، ولنا كذلك.

عمّتي شمسة امرأة باسلة، تنبعث من روحها طاقة عجيبة للعمل والإنجاز والبذل، تصافح الحياة قبل أذان الفجر، تنهض على صوت ديك جدّتي، تلفّ حول «دشداشتها» ثوبا فضفاضا، تزيّنه ثقوب صغيرة جدا، و«شقّ» عند الصدر، حيك من خيوط فضيّة، تشتمّ رائحة السحر، وتغزل من نجومه اللامعة وِردا يمنح الروح ألقا، تمشي بنفس واثقة، تعرف ماذا تريد، ومن أين تنطلق، تمدّ خطاها في أرجاء «حوي» بيتنا الواسع، ومع عريش المطبخ تصنع موقدها من الحجارة، وحطب الأراك، وبعض حطب الغاف، ثم تشرع في صنع رقائق الخبز الساخنة، وكثيرا ما يوقظني صوتها ببحته المتفرّدة وهي تنشد، فأسمعها وأنا أبتسم:

عندي حبيب حلو
عندي حبيب مرّ
واحد سَبَحْ بي بحر
وواحد سَبَحْ بي برّ
مَحْلاك يو ظَهْرتي
مَحْلاك يوعيني
مَحْلاك من ضَرْبة الحسّاد والعينِ
غربي المصنعة وقالوا طالعة بَنَيّة
من زود حسنها وجمالها تَنْصرط نية

رائحة الخبز الزكيّة تتسلّل بشره إلى خيمتنا، وتداعب أنف جميلة، فتحثّ الخطى نحو العريش، وتأخذ في التهام الخبز، وما إن تعانق نسمات الفجر سكينة الأذان حتى ننهض للصلاة، لنأخذ في صنع يومنا، دون تكاسل.

كانت عمّتي لا تتناول رقائق الخبز دون أن تلفّ بعضا منه في قطعة قماش، وتأخذه إلى بيت جارتنا الخالة جوخة، تلك المرأة التي ترعى أربعة أيتام، كلهم

ذكور، قيل إنها جاءت مع زوجها وأطفالها من الرستاق ليستقرّوا هنا؛ هربا من ظلم إخوة زوجها وجبروتهم، فنأى بنفسه وعائلته عنهم، وآثر البعد والعزلة، دون الاكتراث بصراعهم الدائب على إرث والدهم. عاشت الخالة جوخة مع زوجها الذي عمل في مزارع الحويرة مقابل قروش زهيدة، وبضع جرابات من التمر، حتى بلغها خبر موته، كان ذلك بدء الضنك، وشظف الحياة التي التهمتها بعدها. زوجها خميس الذي وجد مسجىً بدمائه، تحت إحدى أشجار النخيل السامقة، وقد فارق الحياة، ظلّ حديث أهالي الحويرة زمنا طويلا، وأخذت قصة وفاته مسارات كثيرة، جلّها ملتوية، فبعضهم قال بأنّه سقط من العُوّانة، بعد أن انقطع الحابول المستخدم للطلوع بسبب قِدَمِه، وكثرة استعماله، وتهتّك بعض جدائله، بينما نفى آخرون ذلك، فالحابول لم يكن منقصا حين سقط الرجل، وادّعى آخرون أنّهم شاهدوا «مطيطوة» تحوم حول هامته، وتصدر طنينا متواصلا، أرسلها بعض السحرة، بإيعاز من إخوته في الرستاق. وتتوالى الحكايات والشائعات، ولا يستطيع أحد أن يجزم بحقيقة ما حصل، لكنّ الأكيد هو أن الموت لم يمهله وقتا أطول لإلقام تلك الأفواه الجائعة، لقد غادرهم إلى العالم الآخر، نافضا يديه من عنت المسؤولية التي حطّت بثقلها كلّه على تلك «الجوخة» المسكينة التي كوتها نيران الفقد، والتهمتها دهشة الموت المباغت. تقول عمّتي أنّها ظلّت بعد وفاته تحوم في الحويرة كغزالة مذعورة، تفتّش عن مأوى، أو ركن تلوذ به من شرّ الوحوش، لكنّ نفسها هدأت مع الأيام التي تكفّلت برتق ما شرخه الفناء في قلبها، وأخذت تلملم شعورها، وتلتفت إلى أبنائها الأربعة الذين لا يتجاوز عمر أكبرهم تسع سنوات، فعملت في المزارع، وجمع علف الحيوانات، وسحل المساويك من الأراك، وبيعها للتجّار الذين يعرضونها في سوق المصنعة. كما كانت تحتطب لبعض الأسر الميسورة مقابل

قروش قليلة، أو جرابات التمر، أو سدس شوال من الأرز. كانت تكدح بكل ما أوتيت من طاقة، لا ترى أمام عينيها سوى أبنائها الذين يساعدونها أحيانا، لا سيّما أكبرهم، وكثيرا ما كانت تزورنا في البيت، تعين عمّتي شمسة في بعض الأعمال، فتعطيها الأخيرة مما يسّره الله من فاكهة المزرعة، أذكر كم كانت تحب جميلة، التي كانت ابنة السنتين أو الثلاث، تراقصها وتغني لها أغنيات قديمة، لم أكن أفهمها، لكنّ ألحانها المتّسقة، وصوت الخالة جوخة منحتها دفئا وحلاوة:

بو طالعين الجبل
جيبولي بذر خوخة
اْنزرعه في الغتل
أَنوَكْلَه جميلة
بو طالعين الجبل
جيبولي بذر تفاح
اْنزرعه في الغتل
أَنوَكْلَه جميلة
والغيز يتجلل
وشاحن غبابه رمان وسفرجل

فتطلق جميلة قهقات متتابعة في الهواء، لتردّ عليها الخالة جوخة بأغنية أخرى وهي تبتسم:

وخاطف القت القت
وخاطف القت القت
خاطف وليدي
يمشي ويقرأ الخطِ

يمشي ويقرأ الخطِ

لطيفة هي الخالة جوخة، أحبتها عمّتي شمسة، وقرّبتها منّا، لولا لمز جدتي وغمزاتها، التي تتحرّج منها الخالة جوخة، فتغادر أحيانا منزعجة، فتتبعها عمّتي وتراضيها، وتدسّ تحت ثوبها كيسا صغيرا، فيه بعض الأرز، وحين تعلم جدّتي بذلك تصرخ بأعلى صوتها، مخاطبة عمّتي شمسة:

- أخبرتك يا شمسوه، إذا رغبتِ في إعطائها شيئا، فأعطيها التمر، وبعضا من محاصيل المزرعة، ولا تقتربي من الأرز، ألا تعلمين يا غبية أنّ الأرز قليل، وأننا نكاد لا نجد ما يكفينا منه؟ ما تذكرين أيام الجوع والفقر، حين شحّ الأرز وصاروا يعطوننا إيّاه بقياس؟
- ذلك كان بسبب الحرب* كما أخبرنا مسعود، والحرب انتهت ولن تعود.
- وهل تعلمين الغيب يا زوجة مسعود؟ أنا أحذّرك، خفِّفي من كرمك الفائض هذا، وأعطي المتوفر فقط.
- لكني كنتُ أريد لأولئك اليتامى أن يذوقوا منه ولو القليل.
- نحن لسنا مسؤولين عن أحد.

صمتت عمّتي كعادتها، ودخلت خيمتها.

---

* عرفنا من أبي مرّة حين كان يسامرنا ذات ليلة، أنا وأخوتي، أنّ الحرب التي اشتعلت في العالم عام 1939 كان لها تأثير علينا، فشحّت المؤونة، لا سيّما المستوردة، ومنها الأرز الذي يأتي من الهند، عبر التجارة البحرية التي قيدتها الحرب وقلصت نشاطها، فأصاب الناس آنذاك ما أصابهم من الجوع والضنك، وكان الأرز يباع في سوق المصنعة بقدر معلوم، يعتمد على عدد أفراد الأسرة، بعد أن يعرض المشتري أو رب الأسرة ورقة مخطوطة من شيخ القبيلة تثبت عدد أفراد الأسرة.

ولم تمرّ سنتان حتى رحلت الخالة جوخة من الحويرة، قيل إنّها عادت إلى الرستاق، ولا يعلم أحد سبب ذلك، ربّما عمّتي شمسة تعلم، فقبل أن ترحل الخالة جوخة إلى قريتها، همست لعمّتي بسرّ لا يعلمه أحد سواها، وقد أبت عمّتي الإفصاح بأيّ كلمة، رغم إلحاح الجارات المكرور.

بعد الاحتطاب نقضي أنا وعمّتي وأخي سالم وجميلة بعض ساعات النهارالطويل في المزرعة، مزرعتنا التي ورثها أبي عن جدي، معظم أهالي الحويرة لديهم مزارع، يسترزقون من محاصيلها، ورثوها أبا عن جدّ، والحال يؤسف على من لم يرث، فالمزراع هنا تعدّ منبع الرزق الأول؛ إذ لا يعمل رجال الحويرة في البحر، هم ليسوا أهل بحر، ولا معرفة لهم به إلا شذرات، اكتسبوها من صحبتهم لأهالي المناطق المجاورة للبحر مجاروة مباشرة، أولئك الذين خبروا البحر، وتمرّغوا بين جنباته، واحتسوا منه أرازقهم المقدّرة، بالنسبة لي قليلة هي المرّات التي أمدّ خطواتي فيها صوب الساحل، إلا حين كنت أذهب عند المعلم «سلمان» كل سبت؛ لتعلم القرآن الكريم، ومبادئ القراءة، وذاك زمن وانقضى، المرّة الأخيرة التي التصقت فيها قدمي برطوبة رمال البحر اللزجة كانت قبل أشهر، حين غطّى جيش عرمرم من «أم عوينة» شواطئ المصنعة، حينها ارتحل جمع غفير من أهالي الحويرة إلى الساحل، يحملون معهم القفران الملوّنة، يجمعون فيها ما جاد به البحر من رزق وفضل، إنه موسم «أم عوينة»، الرزق القادم من أعماق البحر، تنبشه الريح، فيضع حمله على الشاطئ؛ ليتهافت إليه الناس، ويتسابقون في تحصيله، كلٌّ يمدّ يده إلى رزق الله، ويعود محمّلا بالخير لأطفاله، الذين يتراقصون طربا بالمائدة الجديدة، ثم يعاود الكَرَّة في اليوم التالي، راجلا صوب البحر، يحمل قفرانه؛ أملا في عبّ مزيد من الخير، المكدّس على ظهر الشاطئ.

أمدّ بصري على المساحات الخضراء، التي قد تصل إلى أربعة فدانات، أحتسي هواء منعشا، أرقب تلاعب الرياح ببعض أغصان أشجار الليمون، وتراقص وريقاتها في الفضاء، الليمون من أكثر محاصيل الحويرة، لا تخلو منه مزارعها، يسرح برائحته اللاذعة بين أراضيها، تجاوره أشجار الجوافة والمانجو والبيذام، والشجر أيّا كانت فصيلته يطرد السأم، ويلفظ النقاء، لتتسلمه أفئدتنا بشغف، فتكمل به رحلة الحياة، لله درّ الشجرة، هي أمّ الحياة لا ريب!

تحت أشجار النخيل ثمّة جسدان يتحركان بخفّة، إنّهما سعيد بن محمد، وخصيف بن هجرس، لا أدري كيف ستؤول المزرعة دونهما، يعملان بجهد مضاعف، وكأنّهما صاحبا المزرعة، ربّما شعور الألفة والانتماء للمزرعة هو ما جعلهما يعملان بهذه الهمّة، أو ربّما لأنّها منبع رزقهما.

سعيد هو ابن أخ عمّتي شمسة، تقترب ملامحهما بعض الشيء، كان مربوع القامة، هزيلا قليلا، لكنّه مع ذلك يبدي قوّة كبيرة في العمل، قد لا تتماشى مع هزاله، قليل الكلام، تلفّ ملامحه ابتسامة باردة، حين أكون في المزرعة يحاول متصنّعا أن يشيح بوجهه عنّي كلّما التقت نظراتنا، مرّة واحدة فقط، وحين كنت مشتغلة بجمع «النفيعة» لمحته، كان يديم النظر إليّ، وعندما لحظ انتباهي له، عدّل جلسته، وتظاهر بالانهماك في عمله، أتراه سمع وجيب قلبي فارتعد وهرب؟ أم إنّه يحمل الشعور نفسه؟ نعم الشعور نفسه، ذلك الذي يغمرني حين أراه، تلك الهزة الغريبة التي تجتاحني، وأعجز عن تفسيرها، حقا يبدو الأمر مضلّلا، أيعقل أن يكون حـ...؟ لا لا، لا أقوى على هذا الظنّ، أتذكر لسان جدتي، وجبروت أفعالها، وقسوة قلبها، وأنطفئ، نعم، فمجرد التفكير في الحبِّ هو عيب كبير، وفضيحة مدوِّية، تهين عراقة النسب –على حد تفكيرها– وتطعن في الشرف، هكذا ترى، وربّما أبي كذلك، وغيرهم كثير.

أذكر أنّي لم أنم تلك الليلة، كان عقلي يجول ويصول، يصنع خيالات جامحة محلّقة، تتراقص بحرية، بعيدا عن ظلالهم المرعبة، في الخيال فقط لنا أن نتغلغل في مغارات رغباتنا المتخفّية عن أعين حرّاس الشرف والفضيلة، نفتح لها أبواب الانعتاق مشرعة، تصنع قصور الأحلام كما تشاء، لا كما يشاؤون، قصور بلون الزهر، تزورها الفراشات الملوّنة بألوان قوس المطر، تلثم ملمسها الشهيّ، وتهبها حلاوة لا تزول.

لماذا كان سعيد يحدّق بي هكذا؟ هل أحسّ بما يموج في قلبي من شعور تجاهه، ذلك الشعور الذي جاهدت كثيرا للتفلّت من أغلاله، لكنّه ما فتِئ يلاحقني كلعنة تتقاذفها الأيام، كخطيئة وددت دفنها في وحل النسيان، وكنت أخفق ببراعة، وددت لو أتعثر على تعويذة، تخلّصني من نزقه، تساءلت مرارا: ماذا لو أحاط أبي وجدّتي بما أشعر؟ حتما سيقذفان بي في مهاوي الضرب المبرح، لا لا، لا يمكن تخيّل ذلك مطلقا.

الوقت يمضي بسرعة، وما تزال أكوام الليمون الأخضر المتكدّسة يعوزها جهد جهيد، يحمل سعيد وخصيف قُفّة مملوءة بالليمون، ونحمل أنا وعمّتي شمسة قُفّة أخرى، وننثره على «الدعن»، وبعد مدّة يتعرّض الليمون المسطّح على «الدّعون» لليباس، فنقوم بتعبئته في أكياس من الخيش؛ استعدادا لبيعه في سوق المصنعة، حيث يحمله خصيف وسعيد على حماريهما، وأحيانا يقاول به أبي تجّار مدينة صور، الذين يأتون إلى الباطنة في مطلع كل صيف؛ للتّبضّع من محاصيلها، وتوريدها إلى أماكن أخرى بعيدة، يمكثون موسم القيظ، هم وأسرهم، يستطني بعضهم النخيل، من مزارع أهالي الحويرة، بينما يمتلك بعضهم مزرعته الخاصة، لا سيّما التجار الكبار والنواخذة، وحين يأخذ القيظ في الأفول، يعودون إلى صور، على نيّة العودة في الصيف اللاحق.

جدّتي التي تحبّ الظهور دائما بمظهر القائد المخطّط والمدبّر، لا يفوتها موسم القيظ، وما ينوء به من أعمال مكدّسة، تمدّ الجميع بالتوجيهات والإرشادات والنصائح، التي تجانب الصواب في أحايين كثيرة، وقليل من يلتفت إليها، وإذا فعلوا فمجاملة لمكانتها وعمرها، الجميع هنا معتاد على العمل، ولا حاجة لتلك الأوامر المكرورة والمبتذلة، خصيف بن هجرس كان أكثرهم انحناء لأوامرها، ينفّذ ما تطلبه على وجه السرعة، دون تذمّر أو استياء.

سمعت من عمّتي شمسة أنّ جدي -رحمه الله- اشترى والدة «خصيف» من تجّار الرقيق، الذي يقدمون إلى الباطنة، محمّلين بأعداد لا بأس بها من البشر، كان عمرها آنذاك لا يتجاوز عشر سنوات، تعلّمت العربية بيسر وفطنة، كانت تساعد جدتي في أعمال البيت والمزرعة، زوجها جدّي من هجرس، لكنّها ظلّت تحت إمرته، وضمن ممتلكاته، هي ونسلها؛ لذا كان خصيف أحد عبيد جدّي، أعتقه والدي بعد وفاة جدّي، وقال: كلّنا عبيد لله، وجعله يعمل كأيّ «بيدار» في مزرعتنا، يتقاضى أجرا مقابل العمل، لكنّ جدّتي ما تزال تقتات على ما تبقّى من ذكر، تسكنها عزّة زائفة، فهي لا تسميه إلا خصيف العبد، كنت أستثقل هذا الفكر، وأجاهد نفسي للنأي عنه، في الواقع هو لم يكن فكر جدتي فقط، بل جلّ أهالي بلدتنا والبلدان المجاورة، يربض بسماجة مفرطة في تجاويف عقولهم، لكن تقادم السنوات كفيل بنسفه عن بكرة أبيه، وإحالته فتاتًا يرقد في العدم.

***

مرّرت أصابعي على صفحات الكتاب، ألتقط حبيبات النّور، التي تنثال بين جنباته، إنه لعظيم أن يسطّر تاريخ بلدي بهذه الانسيابية الماتعة، وبذلك

العمق الجليل. وبين هذا وذاك تلتمع النوادر والأشعار، وصلت إلى: «باب بعض أخبار مالك بن فهم بعد ملكه عُمان»، ونالتني الدهشة من المكانة المهيبة، التي تقلّدها هذا الملك العظيم مالك بن فهم، الأزدي العماني طوال السبعين عاما التي حكم فيها، وكان امتداد ملكه واسعا، وكانت قبائل اليمن على مكانتها وعددها وقتها، تخشى بأسه وسلطته، لكنّي أسفت على نهايته، فقد غدرت به حسن نيته، ورسم القدر نهايته على يد أحبّ الناس إلى قلبه، ابنه سُلَيْمة، راودتني غصّة من ذلك، فنحن نتألم من حرج بسيط يوقعنا فيه أهلنا والأقربون، أو كلمة قاسية يرشقنا بها عزيز، فكيف إذا سلّمنا إلى الفناء، وقطع حبل وصالنا بالحياة، وبقلبه كذلك!

أغلقت الكتاب، كانت العتمة قد طمست تفاصيل الحويرة، أسندت ظهري على سحارة ثيابي، ومددت ساقيّ على ضوء سراج «أبو سحة»، ذي الصفرة الباهتة، كانت جميلة إلى جواري، منبطحة على ظهرها، وقد مدت ذراعيها، هكذا تنام جميلة، تشعرك وضعيتها تلك أنّها تحرّرت من شيء كان يكبّلها، شيء تجهله هي نفسها، يسكنها نهارا ويغادرها ليلا، أختي جميلة أو «جميلوة الشيطانة» كما تنعتها جدتي، قد تجاوزت السابعة من عمرها إلا قليلا، لكنّها ما تزال تمارس طفولتها بنهم شديد، تقضي نهاراتها غارقة في اللعب والجري في مساحات الحويرة البيضاء، وبين غافاتها التي يتشبث بعض أغصانها بأراجيح صنعت من حبال شبه مهترئة، تراودها جميلة وبعض صويحباتها، ينفثن فيها شبق الطفولة، ويسرحن في عوالم المتعة والسعد، لكن جميلة لا تكتفي بذلك، تمارس كل أنواع اللعب المتاحة، وتشارك الصبية ألعابهم. أذكر حين عادت ذات نهار إلى البيت باكية، وقد انتفخ الجزء العلوي

من جبهتها، لقد ضربها أحدهم على رأسها بعصا «الولّم»*، حينها أسرعت عمّتي شمسة لفرك النتوء المنتفخ براحتها، أما جدتي فقد وجدتها فرصة موائمة لرشق جميلة بمزيد من السّباب، ولا يفوتها أن تلعن «خلفة رضيوة» كلما سنحت بذلك سانحة، تزعق بصوت عال: «جميلوة عديمة النفع، ألم يكن من الأجدى لو ساعدتني في حياكة «دشاديكن» أو شاركت في أعمال المزرعة؟ ماذا ستخلف رضيوة غير هذه البذرة الفاسدة! وماذا نترقب من نسل صاحبة كولجان».

يومها أفلتت عمّتي عقال الصمت، الذي أبرمت معه صفقة منذ زمن ولّى على ما يبدو، وها هي الآن وقد احتشدت على قسماتها علامات الحنق:

- رضية ذهبت عند الله، اصطفاها لينتشلها من جحيم الحياة بين يديك، لحقت بروح كولجهان التي غادرتنا مكلومة، أما نسلها فمن ألطف ما تركت بعد رحيلها.

ثم طوّقت جميلة بذراعيها، وطبطبت على كتفها، ومسحت على شعرها، وقالت لها مداعبة:

- شعرك الأشعث هذا يعوزه ضفيرتان جميلتان، يزدان بهما وجهك الملائكي، وتبرق بهما عيناك الشهلاوان، تتراقصان حين يتراقص جسدك الصغير على أراجيح الحويرة، هيّا اتبعيني، وانسحبت من المكان، ودسّت جسدها في خيمتها، بعد أن ألقت ما فيها وتخلّت، كأنما قذفت بأكوام الوخز، التي تلهب قلبها زمنا، قذفتها وعاودت الصمت ثانية،

* من أشهر الألعاب التي يمارسها صبية «الحويرة»، تتكون من عصا طويلة وأخرى قصيرة جدا، توضع فوق حفرة صغيرة، وتلقى من طرف الرامي الذي يصرخ للمتلقي بكلمة: ياااك (بمعنى: جاءك)، فيجيبه المتلقي بكلمة: هاااات، فيدخل عصاه الطويلة أسفل العصا الصغيرة ويرميها ليتلقاها الطرف الثاني.

كطريق مكتظة بجثث قذرة، لا يقدر أحد على المشي فيها، حتى إذا نظف وطهر، عاود الناس المسير خلاله، فالصّمت المتوالي منهك للجسد والروح، والتطهّر منه بين زمن وآخر يبعث العافية.

جميلة النائمة بجواري تغرق في سبات غائر، أتراها تحلم؟ بماذا يحلم أشباه جميلة؟ ربّما بالزهر والفراشات والغيم، والأراجيح الملوّنة، وتغاريد الطيور الآيبة من بعيد، وجهها المغموس في رقاد عميق بدا كقطعة من الجنة، أمطّ رقبتي إلى باطن قدميها المنقوشتين بآثار شويكات الغاف، أعرف جيدا أنها لا تترك فرصة دون التمرّغ فوقها، دون أن تعبّ من فيء الغاف، وتقضم ثمره، وأحيانا تحاول بجنون تسلّق جذعها العاتي الركين، فتتمزق أجزاء من ثوبها، وتقع بعدها فريسة سائغة لتوعدات جدتي، التي تَنْدَلِثُ، كسرب جراد لا يرحم.

كان باب خيمتنا مواربا حين تناهى إليّ حوارهما، أتعمّد إبقاءه كذلك؛ حتى تنفذ إلينا نسمات باردة، فالجو حارّ، كانوا يجلسون على «المنامة»: أبي، وجدتي، وعمّتي شمسة، تناهت إلى مسمعي كلماتهم، وليتها لم تفعل، ليتني لم أسمع شيئا، ليت الباب كان موصدا، شعرت أنّ الأرض تحتي استحالت زوبعة عنيفة، تلطم جسدي بقوة، وددت لو تبتلعه، فيغرب إلى الفناء:

- أحد تجار صور خطب كولجهان لابنه، لقد كبرت كولجهان، وغدت عروسا، يتقدم الرجال لخطبتها.
- من؟
- النوخذة هلال بن مبارك، النوخذة والتاجر الصّوري المعروف، اشترى من عندنا الليمون والتمر القيظ الماضي، صاحب خشبة «الخير»، كثيرا ما سمعت رجال الحويرة ينوّهون به وبأخلاقه، رجل مقتدر، وصاحب خير ورزق وفير.

التمعت عينا جدتي طربا، وانفرجت شفتاها عن أسنان صغيرة متآكلة، لا أدري أهي المرّة الأولى التي تقع فيها عيناي على ابتسامتها، أم إنني رأيتها من قبل؟! كل ما أعرفه أنه نادرا ما تعرف الابتسامة طريقا إليها! وقد ابتسمت هنا، سرَّها خبر خطوبتي من رجل غنيّ، قالت وسيماء الفرح تبرق من صوتها:

- توكّل على الله يا مسعود، النوخذة هلال رجل لا يردّ له طلب، ولن نجد أفضل منه ومن ولده لنعطيه ابنتنا.
- لكني أفكر في بعد المكان يا أمي، صور بعيدة عن المصنعة، وكولجهان..
- ما بها؟ هي ليست أول من تتزوج في مكان بعيد، كم بنت من الحويرة والقرى المجاورة تزوجت في صور والرستاق وغيرها! الرجل معه خير كثير، ولن تكسد مزروعاتنا إذا ناسبناه، كما أنّ كولجهان سترتاح، ستعيش في بيت عزّ وجاه ومال.

حلّ الصمت ثقيلا بعد حديث العجوز، من أخبرها أنّ الراحة ترتبط بالمال فقط، وكيف ظنّت أن تجربة فلانة وفلانة اللواتي عدّدتهنّ ستنطبق على تجربتي، ليس ذلك بالضرورة، النفوس ليست سواء، وما اجتازه غيري قد لا أجتازه أنا! أنا التي نبتت روحي بين كائنات الحويرة، بيوتها وشجرها ونخلها ومائها وبشرها، كيف لي أن أغادرها بين ليلة وضحاها؟! كيف لي أن أنهض في صباح ليس فيه وجه عمّتي والمزرعة وسعي... وسعيد؟!

قطعت عمّتي صمتهما، قائلة بصوت أقرب إلى التهدّج:

- صور بلاد بعيدة كما أسمع وأعرف، يفصلنا عنها بحر ممتد مهيع، وأنا لا أحتمل بعد كولجهان عني، ثم إنّها لم تبلغ بعد.
- ستبلغ عند زوجها، كلنا تزوجنا قبل البلوغ، وبلغنا عندهم وفي ديارهم، ماذا ضرّنا، كبرنا وأنجبنا، الحمد لله.

صمتت عمّتي لبرهة، ثم دنت من أبي، وقالت:

- سعيد ابن أخي محمد يريدها، وقد لمّح لي بذلك غير مرّة، وأنا وعدته خيرا، سعيد شاب خلوق، ورجل كادح يعتمد عليه، ولن نجد رجلا صالحا يحتويها أفضل من سعيد.
- والنعم بسعيد، لكن...

جلجلت العجوز بصوت بشع جدا يشوبه التهكّم:

- سعيد! تريدينا أن نترك ابن النواخذة والتجار، ونزوج سعيد! سعيد بيدار في مزرعتنا، كلّ ما يهمك هو مصلحة ابن أخيك، لا تفكرين بمصلحة ابنتنا أبدًا، وماذا ينتظر من زوجة أب، أن تخاف على مصلحة أبناء زوجها؟

انسحبت عمّتي شمسة من المكان، مجرجرة جسدها نحو خيمتها.

الكلمات القاسية تقضم هشاشة الأرواح، تصيّرها فتاتا يتهاوى شيئا فشيئا حتى وإن لاذ بالكظم، أو زعم الاعتياد، سيثور يوما، نعم ستفيض أمواجه، وقد تدمّر كل شيء. دسّت جسدها في خيمتها، وتركتهما يتمتمان بكلام معتم، لا أكاد أتبيّنه، بدا كوحشين يدبران مكيدة ما للانقضاض على أحدهم، أو ربّما أشبه بأولئك السحرة في حكايات عجائز الحويرة الذين يلتهمون أرواح ضحاياهم، ليعيشوا من بقايا أعمارهم عمرا أطول، يعقدون صفقات ومصالح متبادلة مع المردة وشيوخ الجان، حتى يحققوا مبتغاهم السافل!

وددت لو أقترب منهما، أن أزعق بصوت مدوٍّ، يصافح آذان الحويرة، فتهبّ لنجدتي، وتحملني بيديها إلى قدر آخر غير هذا، وددت لو يسمعني سعيد، وينتشلني من هنا، ونعيش معا في بقعة بعيدة، لا تصل إليها قدما العجوز.

أغمض عيني، وأستنجد بخيالاتي، وحدها من تعرف جيدا كيف ترضي نهمي المستعرّ للانتقام، أراها أمامي منتصبة مرتجفة، وأنا أصرخ بوجهها: «لن أتزوج إلا سعيد، سمعتِ؟ لن أتزوج في مكان بعيد عن عمّتي وإخوتي»، أنا وإخوتي لسنا «خلفة شينة» وأمي ليست «رضيوة»، هي رضية بنت خميس، المرأة الطاهرة، التي اختارها الله؛ لتكون إلى جواره».

***

مرّت ثلاث ليال لم أذق فيها طعم الراحة، أستحضر حوارهما اللعين، وأغرق في خيبتي، حتى كتاب «تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان»، الذي شرعت في قراءته، وكان مبعث الفرح بالنسبة إليّ، حتّى هذا الكتاب لم يعد قادرا على انتشال الهمّ الذي افترش قلبي، وجال في ردهاته دون رفق، ألتهي بالعمل في النهار، فأظن الهمّ غادرني، لكنّه يأتيني بمكرٍ، ممتطيا كتف المساء، أهيم بذاكرتي البائسة، أودّ اقتلاعها من جذورها؛ حتى لا تنبت ثمر البؤس في قلبي ثانية، لكنّها أعتى من ذلك، أعتى بكثير، أدركت حينها لماذا الله خلق النسيان!

أخي سالم يقتعد طرف «المنامة»، يدلي ساقيه المغبرتين حتى تكادا تلمسان الأرض، ويتناول رطب «الخنيزي». أهتف به من الخيمة ألا يلتهم الكثير من «الخنيزي» قبل النوم، ويحثّ الخطى إلى الفراش، فقد سبقته جميلة.

يقضي سالم يوما حافلا بالعمل في المزرعة، و«لقاط» حبات ثمار النخيل الفاسدة، المتكدسة تحتها، ثم اللهو في أزقة البلدة، ومشاكسات أترابه، والتراشق بمياه السواقي في المزرعة، أتمعّن في تفاصيل السّعد في حياة سالم، ليتني مثله، سيدة حياتي ونفسي، لا تمتدّ ريشتهم المخضّبة بالأنانية لخلق عوالمي، وتشكيل تقاطيعها!

صوت جلبة في الخارج يسترعي نهوضي، إنها عمّتي شمسة، تلوح بيديها بقوة، محاولة طرد «المطيطوة»، التي تلحّ على إسدال طنينها الثقيل على باحة البيت، لطالما كان هذا الطائر نذير شؤم في الحويرة، وغُزلت حوله حكايات كثيرة تحكيها النساء وبعض الرجال، يقولون إن «المطيطوة» كانت في الأصل امرأة، كفرت بنعمة الله عزّ وجل، إذ قامت بمسح فضلات طفلها برغيف من الخبز، فغضب منها غضبا شديدا، ومسخها طيرا، بينما لا يراها البعض سوى روح المسحورة، تهيم في الفضاء، وبين الحواري، تفتِّش عن فرحتها المغصوبة، ودفئها المسلوب بين العرشان والخيم، وتتعدد الرؤى والأقاويل، كلٌّ يدلي بدلوه، ولا أحد يجزم بشيء، لكنّ الجميع يتطيّر منها، ويتفقون أن طنينها في بيت من البيوت هو نذير، ينبئ عن حدوث مكروه لأهل البيت، روت لنا عمّتي شمسة مرّة عن جارنا خلف حين مات ابنه، كنا صغارا آنذاك، وكان ذلك الصبي ابن الثانية عشر يرعى أغنامهم في مكان رحراح، بعيد عن السكنى، تتفرق فيه أشجار السمر والأراك، وبعض الحشائش النابتة عقب هطول الأمطار، اعتاد الصبي الأوبة وقت الظهيرة حينا، وعند أفول الشمس حينا آخر، لكنه ذات نهار لم يعد، وحين تسربل الكون بالعتمة، تبعه أهله فوجدوه مسجىً على الأرض، فاقدا الحياة، يقول أهله إنه وقبل وقوع الحادثة بيوم، زارتهم «المطيطوة»، وأخذت تحلّق حول دراهم، هل كانت تنذرهم، أم إنّ أحد السحرة يفتّش عن وليمة جديدة؟! لا أحد يعلم.

والآن ها هي عمّتي تحاول إبعاد طائر الشؤم، الذي حلّ بغتة، تمسك بـ«العسو»، وتهشّ به عليه، لكنه يأبى أن يغادر، يصمت قليلا، ثم يعاود الطنين حول البيت ثانية، تجزع عمّتي، وتتمتم بوجل:

- اللهم اجعله خيرا، اللهم اجعله خيرا... بك نستعين يا الله، كفّي بلاك عنّا، كفّي بلاك عنّا، واغربي.

انتابتني رهبة مباغتة، حمدت الله أنّ سالم وجميلة قد ناما، تقدمت بضع خطوات مرتبكة، أشارت إليّ عمّتي بملازمة مكاني، وعدم الاقتراب. ما الذي يحدث؟ هل اشتمّ هذا الطائر الخرافي «المطيطوة» رائحة بؤس ما في الدار؟ هل تنذرنا بأمر ما؟ هل أدركت شيئا نجهله أم أحاطت بخبر قادم؟ ليتني أتقن لغة الطير فأحاورها، وأنتزع منها الخبر اليقين، لكنّها هبة نبي الله سليمان وحده، ولا أحد من قبله ولا من بعده! كنت هناك بينهم، أبي وعمّتي وجدتي، نقتعد «المنامة» معا، أجال أبي بصره بيننا لبرهة، ثم أردف:

- أبلغت النوخذة هلال بالموافقة، واتفقت معه على التفاصيل، لكن...
- لكن ماذا؟

ردّت العجوز كمن خشي أن يضيع شيء ما من بين يديه، أو أن يخسر كنزا.

- يريدون أن يبدلوا الاسم، لا يريدون اسم كولجهان، قالوا إنهم سيسمون عروستهم «موزة».

«موزة»!! هكذا ردّت عمّتي باستغراب، ثم تابعت:

- «كولجهان» هو الاسم الذي اختارته رضية -رحمها الله-، ابتغته ذكرى تربطها بصاحبتها... هي الآن ترقد في قبرها، أنغضبها وهي بعيدة؟! كفاها ما عانته وهي حية، كفاها صفعة المرض المميت، الذي أذوى جسدها قبل أن ترحل، ربّما يكون هذا أقلّ حق نحفظه لها.

جدتي التي لم تكن راضية عن تسميتي، وجدته نصرا مبينا لها، وفرصة مواتية لبثّ سخريتها، قالت وقد انزلقت على شفتيها ابتسامة ماكرة:

- الاسم ليس من أسمائنا، ولم يكن أحد منّا راضيا عنه من الأساس، لامنا الناس عليه، لكنّا رضينا من أجلها، وأخيرا جاء من سيزيح عنّا همّ هذا الاسم الأعجمي.

استأذنتهم لمغادرة المكان، أحسست كأنّ كفًّا غليظة تكبس على صدري، تراوغ نفَسي، حتى غدا فاترا ثقيلا، أزلت غطاء رأسي عن رقبتي، حاولت أن أجترّ نفسا عميقا، مددت ساقي، واسترسلت في عبٍّ مزيد من الهواء، كانت الغرفة مشبعة برائحة الرطوبة، ولم أشأ أن أخرج، لا أريدهم أن يروني في هذه الحال، أخذت أجترّ أنفاسا متتابعة، وأقرأ ما أحفظه من سور كريمة، حتى شعرت ببعض التحسّن، حينها ألقيت جسدي على فراشي، وأخذت أبكي بحرقة، لقد سلبوني كلَّ شيء، لم يبقَ منّي سوى جسد ينفِّذ الأوامر وحسب، حتى اسمي، يا الله ارحمني، حتى هويّتي اغتيلت، هذا الاسم يعني لي الكثير، إنه أمّي باختصار، أمّي التي لا أحمل من ذكراها سوى حكايات ضبابية باهتة، لا أكاد أتبينها، انتزعتها يد القدر قبل أن تتناسل بيننا الحيوات، قبل أن نسقي حقول أعوامنا من عذب بسمتها، نزحت إلى العالم العلوي قبل أن تشبع أرواحنا منها، رحلت وبقي اسم «كولجهان»، يرسم ذكرى متفرِّدة عن وفائها، ولطف قلبها.

إنه اسم غريب على الحويرة، لم يحدث أن سمّى أحدهم بناته به، «كولجهان»، هي صديقة أمي وعمّتي شمسة، من قرية ساحلية قريبة من الحويرة، ذات حيرة سألت عمّتي عن معنى اسمي، ولماذا لا يشبه أسماء بنات الحويرة، يومها حكت لي كل شيء، ما يزال سردها لفتات حكايات قديمة يطنّ في أذني، يهدر بمزيج من دهشة وحنين وربّما فخر، تقول عمّتي:

«لم تكن أعمارنا حين تعرّفنا على كولجهان بنت مراد تتجاوز الثامنة، كانت تكبرنا بثلاثة أعوام أو أكثر بقليل، حباها الله بجمال فتّان، وبسمة ملائكية، كانت

تأتي إلى الحويرة مع أخواتها ورفيقاتها، بسراويلهن الفضفاضة، المزركشة من الأسفل، ودشاديشهن المغمورة بمنمنمات وزركشات، بألوان زاهية فرحة، كنّ يأتين لجلب اللبن من الخالة «نصرة»، وجلب الماء من بئر الحويرة، ثم يعرجن على الغافة العجوز المحاذية لبيوتنا، كنّا نحتشد تحت ظلالها، نتناوش في ما بيننا، من يحظى أولا بالتمرجح على الحبال المعلقة على الغصن الرّكين، من منّا ستهزّه الغافة بذراعها الحنون أولا، وحين تبدأ الاشتباكات كانت كولجهان بنت مراد البلوشية هي اليد الحكيمة، التي تفكّها وتصلح وتزن الأمور بإنصاف، توطّدت علاقتنا بها، كنّا نجتمع نحن الثلاث كثيرا، نلعب ونجري، نلتهم المساحات بضحكات زهرية، وكم من المرات شاكسنا أوامر أمهاتنا -رحمهنّ الله-! ويمّمنا صوب حارة كولجهان؛ لنستأنف شغف اللعب هناك، وبمرور الوقت صارت كولهجان رفيقة شبه دائمة لنا، نقضي أوقاتا جميلة معا، أخبرتنا عن عائلتها، وجدّها الذي يزورهم بين فترة وأخرى من مكران، يحضر معه الحلوى اللذيذة، والأثواب المزخرفة، كولجهان تحدثنا بلغة عربية مكسّرة، وتحدث إخوتها وأمّها بلغة أخرى غريبة، لا نفهمها أنا ورضية، قالت أنها ستعلمنا بعض مفرداتها، واتفقنا أن نتعلم في كل لقاء كلمة. في اللقاء الأول بدأنا بكلمة: «جنوخي» يعني مجنون، كانت رضيّة تحملق في كولجهان والكلمة تندلق من فيها، تتعجب من مخارج الحروف، ثم تطلق قهقهة تعانق الأفق، المشبع بألوان الشمس المتوهجة، وفي اللقاء الثاني كانت الكلمة: «كهيير»، وتعني: «غافة»، وفي اللقاء الثالث جلسنا عند الـ «كهيير» ترافقنا اللهفة لمفردات جديدة، لكن كولجهان لم تأتِ، كانت عيوننا تحدّق في الطريق المؤدية إلى حارتهم، وأنفاسنا تتناسل، لكنها لم تأتِ، لم تأت كولجهان ذلك اليوم ولا الأيام اللاحقة، وبقينا على أمل عودتها حتى أيقنّا أنّها لن تعود أبدًا، فكولجهان قد رحلت بعيدا وراء

البحر الفسيح، لقد زوجّها أهلها –كما عرفنا من قريباتها وجاراتها اللاتي يزرن الحويرة– من قريب لها في مكران، لقد رحلت وغادرت لقاءات الغافة، وعراك الأراجيح، ولبن الخالة نصرة، وأصبح اللقاء بها شبه مستحيل، ومرّت الأيام ثقيلة تلعق بقايا الصبر المغروس في ذواتنا، التي شلّها الحنين، من المؤذي للروح أن تعتاد على شخص وتحبه، ثم يغادرها بغتة، دون أن تجد متسعا من الزمن لتخبره أنّها أحبّته، وتود صحبته مدى العمر. وبمرور الوقت ألهتنا الحياة الشاقة، لكن بعد ما يقرب من ثلاثة أعوام، آبت كولجهان إلى المصنعة، لكنّها أوبة سوداء، ملفّعة بالغموض. حين عادت كانت تحمل طفلا، لا يتجاوز السنتين، وبطنها متكوّرة، التبست علينا ملامحها حين وقع بصرنا عليها لأول وهلة، كانت مختلفة تماما، يرقد التعب على قسماتها، وقد تلاشى بريق عينيها، وذوت تلك البسمة الشفيفة. بعد أسابيع سمعنا من قريباتها اللاتي يقصدن الحويرة لجلب اللبن والماء أنّها رزقت بمولود، وكان مخاضها صعبا كاد أن يودي بروحها، كنّا نودّ زيارتها للاطمئنان عليها، لكنّ أوامر أمهاتنا كانت أقوى منّا، فمن العيب للفتاة غير المتزوجة أن تزور امرأة نفساء، لكنّنا بعد شهرين اتّفقنا أن ننسلّ خفية دون علم أمهاتنا، ونذهب إلى حارة كولجهان، كان ذلك عصرا، حين دنونا من بيتهم باغتنا صراخ عنيف، وأصوات متشابكة لنساء ورجال يرتدون ملابس غريبة، كانت النّسوة يطوّقن كولجهان التي تصرخ؛ مجاهدة للتفلّت من بين أيديهنّ، والركض وراء رجلين بسراويل منتفخة، وقمصان بيضاء منشقّة من الجانبين، كان أحدهما يحمل طفلين، عانقت كلماتها رائحة المغيب:

- بترين بترين منى شوكوه... بترين بترين منى شوكوه... بترين بترين منى شوكوه... (أعيدوا لي أولادي... أعيدوا لي أولادي... أعيدوا لي أولادي)

وقفنا مسطولتين، ارتعدت أطرافنا وجلا من سوء ما رأينا، وقفلنا عائدتين، كان المشهد مروعا لفتاتين في عمرنا، لم نرَ كولجهان هكذا من قبل: شعر منفوش، وعينان متورّمتان من فرط النحيب، وأنين متعاقب طويل من عظم الحرقة، كانت تسقط على الأرض حينا، وقد استسلم جسدها الآخذ في النحال للإغماء، لكنّها تنهض على حين غرّة، متحولة إلى كائن شرِس، يزعق بشدة، يعارك من حوله، يدفعهم بيديه، ثم يركض حاملًا جسده بين يديه، حتى إذا خذله الوهن سقط مغشيا عليه.

بعد ما يقرب من أسبوع، أسبوع واحد فقط، ماتت كولجهان، قتلها الفقد، ماتت حسرة على ضناها. أذكر حين كان يغلبنا البكاء على روحها نرتمي في أحضان أمهاتنا، ونسألهنّ السؤال نفسه في كل مرّة: هل يمحق الفقد الأرواح؟ ويكون الجواب نفسه: نعم، وجع الضنى شديد، ومطلِّق كولجهان أراد أخذهم إلى مكران، أراد حرمانها منهم، لا شيء يفتك بالأنثى كبعد فلذات أكبادها عنها، تتآكل من جوانبها حتى تهلك، لكن الله لن ينساها، سيجمعها بهم في الدار الآخرة، دون ريب. هكذا تجيب أمهاتنا وينصرفن، ونبقى نحن مع خيالاتنا ننسج ألف حكاية.

نسير معا، أنا وعمّتي شمسة، يتقدمنا خصيف، وتتبعنا العجوز جدتي بخطوات هرمة، نحن في صيف 1957م، الشمس ترسل وهجها المتّقد صوب أجسادنا، وتهوي بقبضتها الحارقة على رؤوسنا، قلت في نفسي: لولا تلك النسمات التي يجود بها البحر لسحقتنا الحرارة العالية. أمدّ بصري على هذا الضجيج الحيّ، المتاخم لشاطئ المصنعة، يمتصّ من البحر صموده وديمومته، نقترب منه شيئا فشيئا، أذكر أنّي زرته قبل ما يقرب من خمس سنوات، أخذنا أبي معه أنا وسالم، لم تمسّه تبدلات كثيرة، ما زالت دكاكاين العريش تقتعد الرمال،

وتقبع خلف حصن المصنعة، وتصطفّ اصطفافا متراصّا بمحاذاة الفرضة، تشرع أبوابها على بضاعة متنوعة، يقف خلفها تجار عمانيون، وآخرون غير عمانيين، يسمونهم: «البانيان»، هكذا قالت عمّتي شمسة وهي تشير إلى دكان أحدهم:

سنأخذ الأقمشة للعروس الجميلة من دكان «جيماه»* البانياني.

يقع دكان «جيماه» البانياني في آخر السوق، نواصل مسيرنا، تغمغم جدتي مستاءة، وقد اتّسعت دائرة تذمّرها، يبدو أنّها اكتوت من لظى الصيف، لكنها لم تكن مضطرّة للمجيء، فعمّتي كانت معي، وهي من أقنعها، وأقنع أبي بالسماح لي لاختيار ما أريد بنفسي، ففي أعراف الحويرة من العيب أن تخرج الفتاة قبل عرسها بشهر أو شهرين، لكنّ عمّتي أرادت أن نمضي معا وقتا أطول، نتشارك اللحظات الجميلة قبل أن يأخذني البحر إلى المدينة البعيدة، ويتصاعد رغاء الشوق من القلوب الطرية.

تتباين أصناف الناس في سوق المصنعة، كما تتباين أنماط البضائع المعروضة، هناك الأبيض والأسمر، والبدوي والحضري، وأهل البحر، كلٌّ طمسته الدنيا في غيبوبتها، يركض بين التواءاتها المراوغة، يفتّش عن رزقه ورزق عائلته منذ ومضات الفجر البكر حتى اللحظات الأخيرة من مراسم المغيب.

البانيان بإزاره المخطّط، ورأسه الذي التمعت شعيراته المخضبة بالحناء، والمدهونة بالزيت على أفواج خيوط الشمس الساقطة بتعاظم، يقف بتعالٍ أمام كومة مكدّسة من أقمشة الشيت والقطن والبرسيم، أومأ برأسه إيجابا حين سألته عمّتي عن قماش «شمروخ النبات» و«قرش السعودي»، ألوانه جميلة، وهادئ

* ربّما يكون اسمه الحقيقي أطول من ذلك، لكن الناس هنا يلتقطون الحروف الأخيرة من الأسماء الأعجمية الغريبة على منطقهم؛ ليسهل عليهم تداولها.

وصيفي، هكذا علّق بلغة عربية مكسّرة. دنت جدتي من الأقمشة، وأخذت تتفحصها بعناية، تجرّب ملمسها، ثم قالت بنبرة يشوبها الثقة، وادّعاء الخبرة:

- تبدو مناسبة، وألوانها زاهية.

هي تحبّ دائما أن تظهر بمظهر القائد الأول في كل شيء، ولم يكن ذلك يفوتْ على عمّتي شمسة، التي انزلقت على شفتيها ابتسامة خفيفة، ثم عقّبت:

- تستاهل كولجهان، عسى الله أن يكتب لها سعادة أبدية.

أخذتُ كفايتي من الأقمشة، والمصوغات الفضية، وروائح الزعفران والعنبر والصندل، ثم قفلنا عائدين، تهتزّ أجسادنا فوق الحمير، المصوغات تحدث صريرا لذيذا كلما عجل الحمار مسيره، كانت عيناي مندلقتين صوب البحر، هذا الكائن الرحب الممتدّ، يبدو ككائن خرافي يدسّ في جوفه حكايات عجيبة لمخلوقات تقطن مغاراته، أو حكايات بشر عابرين، نجا بعضهم من غضبه، بينما سلم بعضهم لقمة سائغة للموت. أتراه يسمعني الآن، ينصت لهدهدات الخوف في قلبي؟

الفصل الثاني

أتحسّس خصيلات شعري، التي تفوح منها رائحة الياس الممزوجة بعبق «الصمغة المرّة»، أمرّر أصابعي النحيلة بينها، أخذتني عمّتي شمسة عند جارتنا روزهاتون، تلك المرأة التي تنحدر أصولها من «جوادر»، تجيد صنع الخلطات العطرية الفواحة، أتبيّن وجهها الناحل، وحاجبيها المنمّصين بدقة وبراعة، وبشرتها البيضاء المدهونة بقناع الصندل، ومقلتيها القهويتين، جميلة هي القسمات الجوادرية، تلك المرأة المتخصصة بشؤون الجمال والزينة في الحويرة، وضعت خلطاتها العبقة فوق شعري، ثم همست لعمّتي شمسة بلغة عربية مكسرة: «كولجهيان لها من اسمها نصيب، جمالها جمال بلوش»، أحسست بسعادة غامرّة، وأحببت اسمي أكثر.

ورغم حلاوة أريج شعري، الذي تفننت فيه الجارة روزهاتون، وسحر المصوغات الفضية الفاتنة التي تحلم كل بنات الحويرة أن تقتني نصفها، كما تقول جدتي، «البنجري المشوك»، الذي يزين معصمي، و«الحواجيل» التي تطوّق رسغ قدمي، وتعزف موسيقاها الشهيّة كلّما تحركت*، والقلائد المنقوشة بأوراق الشجر والزهر فوق ثوبي «الصوري»، وأقراط «الشغاب» التي تلتمع في أذني، كل ذلك لم يسعف دموعي التي أخذت تنساب خفية، ماذا لو رآني أبكي؟

* حين ابتعناها من سوق المصنعة قالت جدتي يومها: «الحواجيل» من أهم المصوغات الفضية، التي يجب أن تبتاعها كل امرأة؛ حتى يعلم زوجها تحركاتها دون أن يراها. وحين امتعضت من حديثها، ضحكت عمّتي شمسة حتى بانت نواجذها، وعقّبت: هذا من أحاديث الأوّلين يا كولجهان.

كنت أتحاشى النظر إليه، أخذت أشغل نفسي في ترتيب ثيابه، لقد زُفَّ إليَّ بالأمس، فوج من النساء البيضاوات والسمراوات يحملن صندوقا خشبيا، ويغنين أغاني كثيرة، لا أتذكر منها شيئا من فرط رجفتي، كان هو بينهنّ، بدشداشته البيضاء، وخنجره، ومحزمه، وبشته، وعمامته الصورية، وأنا أقتعد فراشي، مغطاة بـ«الشادر» الأخضر في انتظاره.

قبل ليلتين من ذلك همستْ لي عمّتي شمسة بكلام غريب ومخجل و«عيب»، ومع أنّي لم أفهمه كلّه، أو ربّما تجاهلت محاولة فهمه، إلا أنّي كنت أومِئ برأسي لا شعوريا، شعرت بكومةٍ من الخوف تشلّ جسدي، كانت نبضات قلبي تلوك الرعب مع كل همسة من همساتها، وما إن انتهت وانصرفت، حتى مددت جسدي المنتفض على «المنامة» ودثرته بفراش غليظ، حتى خيالاتي لم تزرني يومها، ربّما كانت مرعوبة مثلي.

تناولنا الغداء في بيتنا، فقد ذبح أبي، وأعدّ وليمة فاخرة لأنسبائه الذين سيغادرون إلى بلادهم اليوم، ويحملونني معهم، عروس الباطنة المزفوفة إلى البلاد البعيدة (صور)، كنت أجهل تفاصيل هذه المدينة، وكلّ ما كنت أعرفه شذرات متفرقة من عمّتي أحيانا، ومن أبي أحيانا أخرى، وربّما في بعض الأحيان مما كنت أسمعه من النساء الصوريات اللائي يأتين مع أزواجهنّ إلى ساحل الباطنة في فصل الصيف، يعيشون معنا لحظات موسم القيظ، وجمع ثمار الرطب، التي تستمر ثلاثة شهور، ثم يعودون إلى بلادهم، محملين بالبضائع، كاللومي اليابس، و«الدعون»، والتمور التي يصدّرونها عبر رحلاتهم البحرية المستمرّة إلى سقطرى، والبصرة، وشرق إفريقيا، والهند، وغيرها، كما يغدقون أسواقنا بالبضائع المتنوعة، لا سيّما الأقمشة ذات النقوشات البديعة التي تسلب

ألباب النساء، فيَهِمْنَ في تفاصيلها، النساء هكذا في شتّى بقاع الكون، تتكوّم قلوبهنّ على ضفاف الزينة والجمال، فلا يبرحنَه حتّى ترتوي نفوسهنّ. أسدل مبارك على وجهي قماشا أسود، خفيفا مثقوبا، وقال بحزم:

– النّساء معنا يغطين وجوههنّ، هل سمعتني يا موزة؟

تلفتُّ يمينا ويسارا، أفتِّش عن موزة المعنيّة بالحديث، من موزة؟ وقفت صامتة فترة حتى تذكّرت أنّ اسمي الجديد هو موزة! تساءلت كيف لي أن أعيش بهوية مختلفة عن تلك التي عشتها طيلة أربعة عشر عاما، كيف لـ «كولجهان» ذات الجمال الجوادري كما تصفها جارتنا روزهاتون، أن تتلاشى وتصير عدما؟!

أجبته بهدوء:

– سمعتك، حاضر يا مبارك.

قلتها وقلبي يقطر ضيقا ورعبا من قدري الجديد، وأيامي القادمات.

في الحقّيقة لم يكن الأمر يسيرًا بالنسبة إليّ، فنحن في المصنعة لا نضع خمارا، ولم أرَ عمّتي شمسة قد حجبت وجهها به قطّ، ولا أي من نساء الحويرة، شعرت في البدء بشيء من الضيق والاختناق، لكن لا بدّ من طاعة مبارك، فطاعة الزوج واجبة كما همست لي عمّتي في ما همست لي من أحاديث.

كانت سفينة كبيرة تقف بشموخ على بعد أمتار من الشاطئ، ركبت في «ماشوة» مع عمّتي «سليمة» أم مبارك، وبعض النساء، حتى وصلنا إلى السفينة، أجلت بصري على ضخامتها، وحسن صنعها، كانت مذهلة لفتاة لم تعتد على دقائق العالم الأزرق، أدهشني زهو التّفاصيل، بدت مؤخرة السفينة مربعة الشكل، ذات هيئة عريضة وعالية، تتوسطها فتحات مستطيلة، بدت كملك مهيب

يتوسط حاشيته، اقشعرّ بدني حين وضعت قدميّ على سطحها، راودتني غواية الدهشة الأولى، تبًّا للدهشة الأولى، هي مزيج من رعشة وتوجّس، وشغف وترقّب، كومة مكدّسة من أحاسيس متضاربة، تحط أثقالها على النفس دفعة واحدة.

حين رفع البحارة الشراع، وانتزعوا المرساة من قاع البحر؛ ليسمحوا للسفينة بالرحيل، كانوا يغنون، يغنون بحبّ، إنّهم يحبون ما يفعلون، أو ربّما كان ذلك الحداء المعتاد ذريعة يسكتون بها أرواحهم التي أعياها الرحيل، وهدير البحر، وخشونة مطباته، وقسوة مباغتاته، من يعلم؟! أصواتهم الجهورية تلامس أذني:

عينك حمراء يا الجاموس
لما كلتي مل كولان
حمدان الشاوي مو شي
امبيّت وسط الغنم ذيب
ما حصل م الغنم شي
ما نلومه الي يشاورها
هيلي الي يشاورها
لك عقبان يا طير الجو
لك عقبان يا طير الجو
أديته عني وعن ياري
هيلي يا زايد فوق المرتفعة
زايد فوق المرتفعة

اقترب مني مبارك، وهمس في أذني:

- هذه غنجة «أم الخير».
- من تقصد؟
- السفينة.
- هكذا تسمونها؟
- نعم، هي سفينة من نوع «الغنجة»، سمّاها والدي «أم الخير» لما جلبته لنا من خيرات ورزق وفير، على مدى سنوات طويلة.

نزلنا بعدها إلى الغرف السفلية أو «العنبر»، عبر سلّم خشبي دقيق الصنع، هناك تمكث النسوة طيلة الرحلة، جلست بجانب عمّتي سليمة، ونساء أخريات، مددن بساط الحكايات المختلطة برائحة البحر، شعرت ببعض الأنس رغم التزاحم الخانق داخله، وضجيج الأطفال المستمرّ، وصراخ الرضع منهم، وأخذت أصغي إليهنّ بصمت. في بعض الأحايين لا بدّ أن أركّز جيدا حتى أستوعب دلالات المفردات، تنسلّ الحروف من أفواههنّ بطريقة مغايرة عما اعتاده سمعي، وكما يقال: «كل طير ولغوه»، لكنّنا لسنا كالطيور. تعانق الفضاء الشاسع بحرية لا تحدّها رغبات البعض وأطماعهم، وددت لو كنت طيرا، أقذف بجناحيّ على امتداد الفضاء المهيع، ثم أيمّم صوب الحويرة، حيث الدفء والغرام.

وصلنا صور قبل يوم من الموعد المحدد، استغرقنا في السفر يومين كاملين، لا سيّما أنّها سفينة شراعية، وكلّما جذبتني الذاكرة إلى تلك اللحظات يلفّني الغثيان، فأنا لست ابنة البحر، ولم أعتد ركوبه؛ لذا تجشّمت التعب أثناء الرحلة، فساورني الدوار والغثيان، وكثيرا ما كنت أستفرغ. استحييت كثيرا من مبارك حين

يقترب منّي، فأنا عروس، ويجب أن أبقى جميلة منتعشة، لا يشتمّ منّي غير عبق المسك والزعفران، حقا لم أدرِ ماذا جرى لي، كانت معدتي هائجة كهيجان البحر حين تشتدّ به ريح عاصف، جسلت إلى جواري العمّة «سليمة» أم مبارك، وخادمتها «غريبة»، التي صنعت لي عصير الليمون لتهدئة غثياني، كانت «غريبة» تنظر إليّ بشزر، وتهمس في أذن سيّدتها:

- أخشى أن تكون عروستنا بها مرض أخفوه عنّا.

أزاحت العمّة سليمة بيديها تلك المرأة السمراء برفق، وتمتمت بدفء:

- عروستنا بخير وعافية، مبارك يقول إنّ كثيرا ممن لم يعتادوا ركوب البحر يحدث لهم ذلك.

يا رباااه تلك المرأة التي تدعى «غريبة» ترجمني بنظرات مرعبة، تتّسع عيناها الجاحظتان حتى تكاد مقلتاها شديدتا السواد أن تنفلتا من عينيها، وتطيرا في الهواء أو تسقطا في عرض البحر، هكذا خيّل إليّ وأنا أغوص في وحل الخوف، ولولا حكايا النسوة المسافرات لظللت أستشعر الربكة طوال الرحلة، تلك الربكة الممزوجة بشوق غاشم لبيتنا، وعمّتي شمسة، وأبي، وسالم، وجميلة، والمزرعة، أحسّست بثقل في قلبي، كأنّ جبلا أصمّ يجثم عليه!

في الخفاء خرجت من تلك الغرفة، ساقني الفضول لأرى العالم الخارجي، ذهلت مما رأيت، مشهد عجائبي يلوح في الأفق، أحجب أشعة الشمس بيدي محاولة تبيّن روعة ما أرى، من المؤكد أنّها مدينة صور، تبدو حالمة تبسم للقادمين، تمدّ يديها بحبّ؛ لتلتقط أوجاع الغرباء، والعائدين إلى دفئها بعد شتات الرحيل، وبعثرة الاغتراب، بدت كزوجة عراها الحنين، كأمٍّ يسيل من حضنها

عواء الشوق، كطفلة منحت عينيها أذن التحليق في فضاء الوله، لأمان أب بدّدته ثورة الطموح في أرجاء الأرض؛ ليصنع خارطة الحياة من فتات الصبر.

أيتها المدينة الزرقاء، أتراكِ ستمنحينني يد الأمان؟ وتزيحين عن كتفي ثقل البعد عن الصحاب؟!

لقد تعانقت ألوان الطبيعة تعانقا فتانا، البحر يفرد زرقته الباردة، يحوم حولها بياض النوارس السعيدة التي تغازل شعاع الشمس، وتمتح منه زنبقة الفرح، إنه أشبه بانعكاس زرقة السماء، وبياض الغيمات المتفرقة على امتدادها، وبين هذا وذاك تنبلج المدينة بمينائها المكتظّ بالسفن، ذات الأحجام والأشكال المتباينة، تتناثر حوله أطياف بشرية، ويطلّ من خلفه مبنى عالٍ، عرفت من مبارك فيما بعد أنه «منارة العيجة».

على «السيفة» تعزف الأمواج المتكسّرة أغنية الوجود، وديمومة النور، وتصطفّ أفواج الحبّ، تستقبل العائدين، نساء يتلفعن السواد، وأطفال يحدّقون في المركب القادم وهم يراجعون قائمة الأمنيات؛ علَّ « الصوغات» المنتظرة تسعفها، وسفينة «الغنجة» تهتزّ طربا؛ لتطوّق خور «البطح»، وتفرغ على ضفافه حصاد الطواف.

أنفض عن رأسي كل ما يزعجه من ذكرى الرحلة، محاولة الإبقاء على الأشياء الجميلة فقط، أنقّل بصري بحذر في تفاصيل غرفتي، ذات الجدران الطينية الباردة، تستقبل عرض البحر، عبر نافذتين خشبيتين، تتخللهما أعمدة حديدية، تعلوهما «روزنتان»، إنها تجاويف مربّعة الشكل في الجدران، تستعمل كرفوف، كانت متقنة الصنع، تصطفّ عليها زجاجات حلّ (زيت) «الحلو» و«المعذب» وتحف فنية جميلة، يقول مبارك إنه جلبها في آخر رحلة لهم إلى

بومباي، في أيامي الأولى أزعجني صرير السرير الحديدي، ذي الدعامات المرتفعة، فأنا لم أعتد النوم على أسرّة، وبين هذا كلّه تتفرق رائحة البخور الصوري العبق في أنحاء البيت الكبير، وتتسلّل إلى غرفتي، فتهب روحي خِدرا وسكونا، يظلُّ البيت الكبير الأبيض، المدهون بالنورة، بيت النوخذة هلال بن مبارك على البحر، ويتكون من دورين، في الدور الأول هناك غرف المعيشة، و«الليوان»، والمخازن، وفي الدور الثاني ثمّة غرف للنوم، ذات الأبواب الخشبية المنقوشة ببراعة.

تقتحم خلوتي مع كتابي الذي دسسته بين ثيابي حين غادرتُ بيت عائلتي، تتطفّل على سلوتي المحببة دون إذن، لا بأس في ذلك، لكن أن ترهقني بكمٍّ لا يحتمل من لسع كلامها، فهذا كثير، وما يثير الشفقة حقا أن تتقصّد ذلك في كل مرّة تخرج فيها عمّتي سليمة مع الجارات مساءً، ويكون مبارك مع رفاقه، ترنو إليّ بعينين تلتمعان حقدا:

- اذهبي إلى المطبخ مع الخادمات، قد يأتي ضيوف مع أبي اليوم، هناك أعمال كثيرة.
- ولماذا أذهب، هناك «غريبة»، وهي مسؤولة عن أمور الطبخ، ومتابعة الخادمات.
- هل تظنين أنكِ سيّدة من سيّدات هذا البيت، لا يا موزة، أنت مثلهنّ.
- الله يهديك يا عايشة، أنا زوجة أخيك، ومثل أختك، لمَ هذا المعاملة، التي لا يرضاها عمي هلال، ولا عمّتي سليمة، ولا حتى مبارك؟

تزمّ شفتيها، وتلتهمني بنظرات ساخرة قبل أن تغادرني، كنت أعجب من تصرفاتها، لمَ تعاملني هكذا؟ لا أذكر أني آذيتها بكلمة، أو أسأت إليها بأفعال

مشينة، أنا لم أتربَّ على إيذاء أحد، كنت أغضّ الطرف عن هكذا وقاحة في كل مرّة، والآن وقد مضى على مكوثي في هذا البيت ما يقرب من ثلاثة شهور قرّرت أن أخبر مبارك بإيذاء أخته، انتظرته، لكن انتظاري له هذه المرّة ليس كمّا عوّدته في كل مرّة، بشعري الطويل العطر، المسندل باشتهاء على كتفي، وعينيّ المبتسمتين بحياء، يطوّقهما سواد الكحل العماني الأصيل، وعبق الزعفران يرتخي بغوايته على عنقي، هذه المرّة بلغ بي القهر مبلغه، فلم ألفِ في نفسي توقا لذلك، جعلت أنتظره، وحين جاء كلّمته بحدّة لم يعتدها منّي:

- مبارك.
- نعم موزة.
- هل ترضى لي الإيذاء ولو بالكلام؟
- لا، لكن هل ضايقكِ أحدهم؟
- أختك عائشة.
- عواش؟
- نعم.
- موزة، أنا لا ألومك، أعرف عواش جيدا، لسانها طويل، وقلبها وسخ، لكن حاولي التغاضي.
- مبارك، ثلاثة أشهر وأنا أتجرّع الصبر، وأتجنب إعلامك بالأمر؛ خشية أن أتسبّب في خلق مشكلات، لكن الصبر رفع راية النهاية، وأعلن إفلاسه!
- اهدئي يا موزة، ألم تسمعي فريد الأطرش ماذا يقول: الدنيا حلوة بس الّي يفهمها؟ يبدو أن عواش تغار منك يا جميلة الجميلات، وسيدة الصبايا.

قال ذلك ببرود سافر، ثم أحاطني بذراعيه، وهمس في أذني: هل طهرتِ؟

مبارك هو الابن الوحيد بين ثلاث بنات لعمي هلال بن مبارك، وعائشة هي الأخت الصغرى، تقاطيع وجهه باردة، تغشاها مسحة من الوداعة، عيناه الواسعتان تنطقان بطيبة عجيبة، حدّ السذاجة أحيانا، سحنته السمراء أكسبته وسامة مثيرة، لا أنكر أنّي بدأت أحبّه، لكنّ شيئا ما كان يزعجني في شخصه، وأخشى أنّه مع تقادم الزمن يذيب ما نبت في قلبي من براعم الحبّ!

هو ليس سيئا معي أبدا، كان يجلب لي كل ما يعوزني، لكنّه في الآن ذاته لا يبادر، ولا يبدي اهتماما بما أشكو، أذكر تلك اللحظات التي قاسيت فيها نزول دم الحيض لأول مرّة، بعيدا عن حضن عمّتي شمسة، وقلبها النصوح، كان الأمر مرعبا بالنسبة لي، حدث ذلك قبل شهرين تقريبا، حين كنت أغتسل، تلطّخت يدي ببعقة دم قانية، اجتاحني حينها هلع مباغت، وأخذت أبكي، كان مبارك في الغرفة، هرول إليّ قائلا:

- موزة، لمَ يرتعش جسدك هكذا؟
- دم يا مبارك، دم، دم.
- ربّما دم الحيض، تريدينني أن أخبر أمي أو غريبة حتى تساعدك؟
- لا، لا تخبر أحدا، سأتصرف بنفسي، عمّتي شمسة أخبرتني ماذا أفعل قبل أن أغادر الحويرة.

أومأ مبارك برأسه، وتناول ثوبه الأبيض وعمامته، وقال باكتراث ممجوج:

- موزة إذا أردتِ شيئا أخبري غريبة، أعتقد أنّ أمي خرجت مع جاراتها الآن، أنا سأخرج.

- لا بأس، اذهب يا مبارك، اخرج، فأنا بخير ما دامت وصايا عمّتي تزهر في قلبي، وتمدني بعصا موسى، أهشّ بها على كرب البعد، يااااه يا عمّتي شمسة، قلّدتِني طوق النجاة قبل أن أغادركم، أزحت عن روحي بعض وعثاء الغربة وأنت بعيدة، بعيدة هناك وراء هذا البحر الرحراح.

لا بأس فأنا بخير ما دمت لا أطأ الوجع، وأحلّق بقلبي بعيدا عنه، لن يضيرني إهمالك يا مبارك، سأنسج رداء القوة بنفسي وأتلفّع به، هكذا أكون صامدة، أو أحاول أن أتصنّع الصمود.

قد لا يلام مبارك على ذلك، فقد نشأ في بيت النوخذة والتاجر هلال بن مبارك، في بيت عزّ وغنى، ولا أظنّه قد جرّب يوما أن يهتمّ بأحد، أو يفكّر في ما يعتريه من ربكة، بل هو السيّد، الذي تهرول الأيادي لخدمته، والقيام على راحته، ففي بيت عمي تسرح «الخادمات» بزعامة غريبة. وهنّ تحت إِمرة عمي، لكن «غريبة» ليست ككل الخادمات، إنّها عتيقة في البيت، تقطنه منذ عشرات السنين، تخدم وتطبخ وتحطب، وتعين عمّتي سليمة في تربية مبارك وأخواته، وقد زوّجها عمي من أحد بحّارته، لكنّها ظلت تخدم في البيت، ومع اقتراب خريف العمر، وضعف حيلتها، زوّدها عمي بخادمتين تعينانها، وغدت هي بمثابة الموجّه والمدبّر لهنّ، والمشرف الأساسي على احتياجات البيت من عدّة وزاد، وكانت عمّتي سليمة تخبرها -احتراما لعمرها، وطول خدمتها، وعدّها أحد أفراد الأسرة- ببعض خصوصيات العائلة، لا سيّما خطبة بناتها، كما عرفت من مبارك، رغم استنكار عمي لذلك، وإلحاحه لها أن تضع حدا لاقتراب أمثال غريبة من أحوال العائلة.

ربّما كان عمي على حق، فغريبة تظل غريبة، وليست من أهلهم وذويهم، كما أن تحذيره لعمّتي يكون مقرونا بعبارة «تذكّري يا سليمة أنّ غريبة تسكنها هبايب* أخشى أن تضرّنا، وتضرّ أولادنا، فلا تفتحي أبوابا نحن في غنى عنها».

في الحقيقة أخبرني مبارك كثيرا عن غريبة، هو يقول إنها امرأة طيبة وخدومة، وبينها وبين عائلته «عشرة عمر» لكنها مسكونة بـ«الهبايب»، التي تناكف كل من يحاول إيذاءها، حتى وإن لم يقصد ذلك، وقد أعتقها عمي، لكنّها أصرت رغم ذلك على المكوث في البيت الكبير أطول فترة ممكنة، متحججة بمساعدة عمّتي سليمة.

لم أخبره أن نظرات غريبة المرعبة كانت تلاحقني حين كنّا في البحر عائدين إلى صور، كما لم أخبره أني حتى بعد أن وصلت إلى هنا كان طيفها يراودني في منامي بين فترة وأخرى، وكانت الهواجس تنداح من عقلي من فرط ما أراها في منامي، وليس ذلك غفلة مني، بل هي النفس تطرب لمن يبسط لها أكفّ الإنصات والاكتراث، وتنفر ممّا سوى ذلك، فلم أجد في نفسي دافعا لبث شكواي لمبارك، لكني كنت أجتهد في قراءة ما أحفظ من أدعية الاستيداع، أستودع الله روحي ونفسي وراحتي.

إنها المرّة الأولى التي يسند فيها عمي هلال مسؤولية قيادة «أم الخير» إلى مبارك، في رحلة بحر جديدة إلى الهند، ويتنحّى عمي نهائيا؛ بسبب كبر سنِّه، فبعد جولة كفاح طويلة مع البحر، وتحدي أهواله وصراعاته ومتاهاته، قرّر عمي أن

* هذه الكلمة سمعتها من قبل في «الحويرة» وليست جديدة عليّ، وكل ما أعرفه عنها أنها نوع من الجنّ، تسكن سكنى أبدية في أجساد بعض البشر، تدافع عنهم، وفي الوقت نفسه تطلب منهم أشياء بين فترة وأخرى.

يخلد إلى حياة السكون والدعة، ويحيل الأمر برمّته إلى ابنه الوحيد، الذي ما إن أنهى الدراسة في الكتاتيب حتى ألحقه معه وبين بحّارته، جعله لصيقا به أينما حلّ وارتحلّ، بين البلدان والمرافئ، وقد أفاد مبارك كثيرا من ذلك كما أخبرني، فأتقن علم الملاحة، الذي يختصّ بالسفن نفسها وأنواعها، وأنواع البضائع وأسعارها، فعمّي لم يكن «نوخذة بحر» فقط، بل كان صاحب الحلال والمال كذلك، أو ما يخص خطوط السفر ومواقيت الرحلات، وعلاقتها بالرياح الموسمية (الكوس)، كلّ ذلك علّمه النوخذة هلال لابنه؛ حتى يتسنّى له الاتّكاء عليه يوما ما وهو في أريحية من أمره. وها قد جاء اليوم المنشود، ومبارك يتأهّب بحماسة الشباب لحمل راية الإبحار، والتغريد بها بقوة واقتدار، يتوق لمرتبة النوخذة، النوخذة مبارك، يلوح الاسم أمام ناظريه بمهابة جليّة، وفرح غامر، ومع أنّ لكلمة «نوخذة» سحرا عجيبا، يهمهم به شطط الشباب المندفع، لكنّي أراها مختلفة، أراها ممزوجة بتهيّب بيّن، يلتمع في عينيه، كبريق خجول، ألتقطه بمهارة من نبرات صوته، وحين أخبرته بذلك، ضحك مقهقها، وقال:

- موزة، نحن الصوريين تربينا على البحر منذ نعومة أظافرنا، ألم تسمعي ماذا قال الشاعر اليمني في خبرة الصوريين في التعامل مع البحر وأهواله؟

صبرا يا صبر على المخالع مثل ما يصبر الصوري على بحر بوكين

أتعرفين بوكين يا موزة؟ إنه بحر حافل بالشعاب المرجانية، والعثرات، ولا يجيد بحار الغوص في متاهاته، وتحدي عقباته كما يجيد الصوري ذلك، إنها المهنة العريقة التي تتناقلها أجيالنا كشيء مقدّس، لا ينبغي التفريط فيه، لقد نشأنا على عشق البحار، والولوج بجسارة في دائرته العجائبية اللامتناهية، ثم إنّ والدي

جعلني «مقدمي» في غير رحلة، مما أكسبني خبرة كبيرة، تؤهلني دون ريب لأكون «نوخذة».

أسدلت كلماته على قلبي بساط السكون، وتمتمت بدفء:

- حسنا يا «نوخذة»، حفظكم الله في حلّكم وترحالكم.

اقترب مني، وهمس قائلا:

- موزان (كان يهوى مناداتي هكذا) خلال رحلاتنا وطئت أقدمنا أماكن بعيدة وغريبة، شاهدنا فيها شعوبا متباينة الثقافات، والأعراق، واللغات، وأحطنا بما لم يحط به كثيرون ممن لم يهبهم البحر مقاليده، ومفاتيح أسراره، وخضنا غمار أسواق مشرعة على مختلف البضائع، والسلع، والمصنوعات، من تحف فنية، مصوغات الذهب والفضة، والأقمشة متباينة الألوان والأنواع والتطريزات، أخبريني ماذا تودين أن أجلب لك حين أعود من رحلتي إلى بومباي؟ بومباي أمّ العجائب، فيها مما تلذّ الأنفس وتطيب، لقد سبقتك أمي وعائشة، ووأصتاني بـ «بريسم» و«حرّقاني».

- تهمّني عودتك سالما يا مبارك.

وغابت نظراته في الغد القادم، غابت تفتّش عن قطرات تغيث ذاته الملهوفة للمغامرة وركوب المشقّة، ستتركني يا مبارك، ستتركني وأنا أحمل في بطني نطفة صغيرة لابنك القادم، ستتركني أحتسي مرارة الوحدة في هذه الغرفة، وربّما في البيت الكبير كلّه، فقد صرت في الأيام الأخيرة أتجنّب قدر الإمكان الخروج والجلوس مع الجماعة؛ خشية كلمات عائشة السّامة، فمذ علمت بحملي استحالت شيطانا رجيما، ولم تشبع نزقها لسع الكلمات، بل حاولت غير مرّة

دفعي بيديها الحاقدتين من السلالم، وأكاد أقع لولا لطف الله بي، وكنت أصمت في كل مرّة؛ علّها تتغيّر وتكفيني شرّها، ولما يئست منها، اعتزلتها، واعتكفت في غرفتي، وعملت بما قاله الأولون: اعتزل ما يؤذيك، و«روح بعيد وتعال سالم» ولم تقصّر عمّتي سليمة معي قط، ففي الأيام التي لا أبارح فيها غرفتي ترسل إليّ الخادمة لتفقد أحوالي، وجلب الطعام إليّ.

تحسّس مبارك بطني براحة يده، وتمتم بولهٍ:

- عسى أن أعود قبل تشريفك للدنيا يا ولي العهد.
- وإذا كانت بنتا، وليس صبيا!
- إنه صبي إن شاء الله، وسأسميه (هلال)، وسيطوف البحار معي، سيشبه أباه وجده، بطل، نوخذة ولد نوخذة.
- يا رب، يا رب.

كان المساء قد فرد أجنحته على المكان، والشمس سحبت خيوطها الأخيرة، وبدأت العتمة تتسلّل شيئا فشيئا، كان عمي هلال وعمّتي سليمة يقفان في مَن يقف على الشاطئ، يودّعان «مبارك»، وعمي ينسج نصائحه الأخيرة له، ويداه تتحركان يمنة ويسرة، وعيناه تحدّقان في عيني مبارك، يبثّه آخر معاقل الثقة، وكنت أنا هناك معهم، أتلفّع بـ«الثوب الصوري» وأسدل على وجهي خمارا من قماش أسود خفيف مثقوب، وألفّ رأسي بـ«الشادر» وأربّت على كتف الصبر، الصبر على الوحشة في قادم الأيام.

وغادر مبارك، وغادرت غنجة «أم الخير» كنجمة سادرة يقودها حدس النور، تلوك فم الفراغ، وتبرك على صخب الرحيل، وتقذف بحمم النوى على تلك

الأرواح الملتاعة، التي رغم تكرار المشهد في حياتها، فإنّ لدغة الفراغ ما تزال توجعها في كل مرّة، تبسط أسمالها عليها حتى يعود الغائب.

غادرت «أم الخير» مصحوبة بتلويحات الوداع الأخير، وبتراتيل الأذان، وكتب على باب بيتنا قوله تعالى: «إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد» آملين أوبته، هو وبحّارته سالمين غانمين بإذن الله.

***

مرّ شهر منذ رحيل مبارك، وكبر جنيني شهرا، صار عمره الآن أربعة أشهر، أتلمّسه بحبّ، وأقرأ عليه المعوذات صباحا ومساء، وما كان ذلك إلا بسبب ما كان يرعبني من كوابيس بائسة ومتكرّرة، نعم هي نفسها، تراوغ سكوني بين فترة وأخرى منذ أن حملت، أحيانا ألوم نفسي على التفكير بطريقة بائسة كهذه، أقول ربّما من قلة الإيمان أن يخشى الإنسان إنسانا مثله من لحم ودم، وأغوص في ماهية الخوف، وأسأل ذاتي: لماذا نخاف أصلا؟ نحن كلنا مخلوقون من مادة واحدة، ومرجعنا إلى إله واحد، وهل الخوف أمر إرادي أم لا إرادي؟ هل لي أن آمر نفسي أن تكفّ عن خوفها وتوجسها؟ وأنسحب بفكري بعيدا، وأرضي ذاتي الثائرة بنتيجة لم تقنعني، حتى وإن تظاهرت بذلك، أنا لست خائفة من «غريبة»، أنا فقط أستشعر الخوف من كم «الجانّ» الذين يسكنونها، الجان مخلوقات ضبابية، مخيفة، بشعة، لا ترحم!

ذات ليلة باردة، شديدة الوطأة، شعرت برعشات متتابعة تلتهم جسدي، قلت ربّما من فرط البرودة، تناولت فراشا صوفيا أخضر، كان فوق «السحّارة» ودثّرت به جسدي، من نصف رأسي حتى أخمص قدمي، لكن الرعشات ما تزال تنتابني. حاولت النوم، ورأيتها نعم رأيتها، إنها المرأة الشبح، معدومة الملامح التي كانت

تتحين الفرص لإرهابي في مناماتي في الليالي السابقة، هي الآن شبه بينة التفاصيل، وجهها يتّشح سوادا، وعيناها تلتمعان زرقة، وشعرها منكوش، غطّاه الشيب، اقتربت مني، أمسكت ذراعي برعونة، ولعقت باطن مرفقي، كان لسانها طويلا، يتدلّى ببشاعة مفرطة، ثم مدّت يديها الجلفتين، ووضعتهما على بطني، وأخذت تمسح عليه، وتحرك شفاهها الضخمة متمتمة. لم أفطن إلى ما تقوله، كنت مشدوهة بما أرى من عجب، كان الأمر موجعا حقا، وحين استيقظت من فرط الهلع، كانت حبات العرق تغزو جسدي، رغم برودة الشتاء، وتقلصات موجعة أسفل بطني، ليس هذا فحسب، ثمّة شيء أسوأ، أسوأ بكثير، لزوجة دافئة تنسرب مني، وحين كشفت عنها، انتابني وجل شديد، وارتعش جسدي، دماء!

كيف ذلك؟

الحامل لا تحيض!

ما هذا إذن!

والأدهى أني كلما تحرّكت، زادت حدة النزيف!

صحتُ بصوت عال: عمّتي سليمة، عمّتي سليمة، عايشة، عايشة.

لم يجبني أحد، ومرّت صورة عمّتي شمسة أمامي ناظري، تخيلتها معي الآن، تمسك يدي، وتحتضن ألمي، وتهوّن خوفي، لكن هيهات، هي بعيدة في الباطنة، وأنا في ساحل الشرقية، والمسافة طويلة، حتى مبارك لو كان معي لكان الأمر مختلفا، كان سيخبر أمه، لكن...

وقع خطوات أحدهم قادمة إلى غرفتي، إنها عايشة، وقفت عند الباب، وقد وضعت يدها على خاصرتها:

- لماذا تصرخين في هذا الليل المعتم؟

- أين عمّتي سليمة؟
- نائمة.
- أخبريها أني أتألم، بطني يوجعني، وكلّي دم.
- أخبرتك أنها نائمة، لِمَ كل هذه الأنانية؟ تريدين أن توقظي أمي في هذا الوقت المتأخر من أجل وجع بطن عابر، كلّ النساء الحوامل يعانين من تقلصات وآلام، أنتِ جبانة وأنانية.
- عايشة أرجوك، عائشة الحقيني، الألم قوي، قوي جدا، أنا أتوجع، أشعر أن الآلام تتضاعف، وتحتدّ... آاااااه
- سأخبرها فجرا حين تنهض من النوم.

وغادرتني دون اكتراث، حتى أنها لم تفكر في الاقتراب مني، أو مواساتي ولو بكلام خال من الشعور، حتى جدتي التي طالما استأتُ من لسانها الأسود، وسبابها القذر، حتى تلك العجوز ما كانت لتتخلّى عمّن يستجير بعونها.

أتهاوى في مكاني من قسوة التقلصات، كان الألم يزاد حدّة ويتضاعف، حتى زحف إلى ظهري، فأحاله جمرّة ملتهبة، والدم يتتابع نزفا، والبرودة تكتسح أطرافي النحيلة، أسناني اصطكت، وشفاهي افترشها الجفاف، وأطرافي تتراقص من نزق الوجع، أخذت أستفرغ كل ما في معدتي، وانتابني دوار شديد، شعرت أنّ غرفتي تدور، وقد انقلبت رأسا على عقب، ودام الألم مصحوبا بالدوار ساعات، وذات بغتة عند أذان الفجر أحسست بشيء تسلّل مني، وسقط على فراشي، فتلته بركة من الدماء القانية، ثم أخذت عاصفة الوجع تخبو، والراحة تسري في جسدي المنهك قليلا قليلا،

حاولت النهوض لأستبين ماهية الشيء الذي انفلت من جسدي، صعقت من مشهده، كان قطعة لحم صغيرة، غير مكتملة التفاصيل، إنه هو، ابني الذي حشدت مئات الأفكار في عقلي لاستقباله، وشطح خيالي وأنا أراه شابًا وسيمًا، مغامرًا كآبائه، يقود أضخم السفن، ويجوب البحار. غادرني دون أوبة، وغادرت معه بسمتي، آآآه كم هو موجع شعور الفقد! حتى لو كان نطفة، غير بينة القسمات، ناقصة، يظلّ قطعة منّي، سكن في جوفي أربعة شهور، اطمأنّ إلى نبضاتي ودفئي، وأنا غرقت في سعادتي حين نبت في جوفي، وظللت أعدّ الأيام والليالي، أرقب إشراقته على الدنيا، لقد رحل، رحل دون عودة، استحال بركة دماء قانية، أناظرها، وأبتلع الغصّة، ثم غرقت في نوبة بكاء سوداء، كنت أبكي متحسرة، ولم أعلم أنّ شبح فقد الولد سيصحبني حتى خريف العمر.

حين دخلت الخادمة إلى غرفتي حاملة صينية الفطور، كان كل شيء قد انتهى، وكنت أستند على أعمدة السرير، محاولة الوقوف على قدمي، والذهاب للاغتسال، غشيتها الدهشة من هول ما رأت، الدثار الصوفي صار بني اللون، من فرط ما بلّلته الدماء التي امتدّ أثرها على الأرضية، وعجلت بإبلاغ عمّتي سليمة.

احتضنتني عمّتي سليمة، وأخذت تبكي، وتهمهم:

- لو أخبرتني يا ابنتي، لو ناديتني، سأكون معك، أمسح، وأقرأ عليك.
- لا بأس يا عمّتي، كله خير.
- إن شاء الله سيعود مبارك بالسلامة، وستملؤون البيت عيالا، الله المعوض.

- نعم عمّتي، أنا موقنة بذلك، والنعم بالله، جابر الكسر، لكنّ الأمر ليس هيّنا عليّ، يعوزني بعض الوقت حتى أتعافى: قلبا وجسدا.

كانت لحظات قاسية، قاسية جدا، أن تصل لحدّ أن تتوسل إلى أحدهم أن يمد إليك يدا بيضاء، فيكشّر عن أنياب النذالة، ويتركك مغموسا في حضيض الألم، وأنت الذي علقت آمال نجاتك على مشجب رحمته، لكنّه لم يكن لها!

***

كانت الأحاديث التي أقرّتها «غريبة» بعد إسقاط جنيني بأسابيع، حكاية تنبض عجائبية وغرابة، فبعد ما حدث لي استعان عمي هلال بـ«المطوّع»، الذي صنع لي حجابا ألبسه عند الحمل، لكن يبدو أنّ سرًّا ما أباح له به، جعله ساخطا ممتعضا، عرفت ذلك حين كنا مجتمعين، أنا وعائشة وعمي وعمّتي، وغريبة تتوسطنا، وتضع يديها على رأسها، كانت عمّتي تغالب دموعها، وكان عمي يتطلع إليها، وشرارة الغضب تتطاير من عينيه:

- غريبة، لقد أعتقتك منذ سنوات، ثم سمحتُ لك بالبقاء معنا في البيت الكبير، لا أظن أني قصرت معك في شيء، حتى ابنك ضممته إلى طاقم بحّارتي، لمَ فعلتِ ذلك؟ لمَ الضرّ لمن أحسن إليكِ؟ ماذا فعلت بك هذه البنت حتى تتسببي في خسارة حملها؟
- والنعم فيك النوخذة هلال، لم أضرّها متعمدة، ماذا أفعل؟ لقد ابتليت بهم، يسكنون رأسي منذ زمن طويل، وينتقمون من أي شخص ضايقني أو آذاني، دون التمييز بين مكانتهم في قلبي.
- وبماذا ضايقناك؟

- حين خطبتم لـ«مبارك» من الباطنة، لم يخبرني أحد، وعرفت متأخرة من الناس الأغراب، هذا الأمر كسر خاطري، لكن يا (حبابي) هذا الشيء ليس بيدي، وأنت تعلم وتعرف وحدك.

التفت عمي إلى عمّتي سليمة، وقد تكدّست على ملامحه علامات الغيظ:

- أنتِ السبب يا سليمة، أنت من عوّدها، تخبرينها بكل تفاصيلنا، خذي النتيجة الآن، «هبايبها» لم يعجبهم ذلك، والضحية موزة، التي قد تخسر جنينها كل مرّة إذا لم نتصرف.

أحنت عمّتي رأسها، كان الندم قد غمرها كطوفان جبّار، ابتلع وهجها، انطفأ بريق عينيها، شعرت أنّ بين شفتيها أحاديث طويلة، ودّت قولها لكنّها تراجعت على حين توجس.

أردف عمي هلال حديثه مخاطبا «غريبة»:

- وماذا يريدون حتى يرضوا، ويرفعوا أذاهم عنا؟

أجابته بثقة العالم المتبحّر:

- يبون «رمسة زار».

صمت عمي، وأشار إليها أن تغادر.

وغرق بعدها في إطراقة طويلة، لم أعِ كنه نظراته، لكنّها تشي بلوعة مريرة، يبدو أنّ عمي قد بلغ من العمر ما جعله يودّ النأي عن هذه الأمور، وعدم الخوض في شبهاتها، هذا ما شعرت به، ما شعرت به فقط.

كانت عائشة ترقب الوضع، وتدوّن في قلبها أحاديث كثيرة، تحوكها بخيوط قناعاتها وأفكارها الحاقدة، فقد جاءتني بعد أيام من تلك الحادثة، وأنا أستعد لمرافقة عمّتي سليمة لزيارة جارتنا النفساء.

جلست على سريري، واتّكأت بمرفقها على فخذها، وعيناها مصوبتان بحدة نحوي:

- موزوة، هل تعرفين ماذا يعنون بـ «رمسة الزار»؟ يعني سيأخذونك في الليل إلى مكان بعيد، كله ناس «تنعش» وتهتزّ، يخرجون «الهبايب» والشياطين التي تسكنهم، وحتى شياطين غريبة التي تستوطن رأسها ستخرج، وسيذبحون لهم شاة، وسيضربونك ضربا مبرحا، الله يعينك، سمعت أنهم يضربون ضربا يؤلم.

ثم دنت من أذني، وهمست بصوت خفيض، تشوبه شماتة مفضوحة:

- نساء كثيرات زهقت أرواحهن؛ نتيجة ذلك الضرب المتعسف، الذي سيضربك إيّاه زعيم الزار.

تسربلت الصمت، وخرجت عنها، تركتها تهذي بما يشاء عقلها الذي يثير الشفقة، لكن كلماتها للأسف ظلت رابضة بمكر على قلبي في أيامي اللاحقة، تنفث فيّ سموم الخوف، وشؤم الهلوسات، وغدوت أعارك ذاتي، وأطارحها التساؤلات:

- هل صحيح ما قالته عائشة؟ هل حقا سيفعلونها، هل سيأخذونني إلى مكان مرعب كهذا؟ وأضرب ضربا مبرحا حتى يخرج ما يزعمون أنه التبس بي؟

لا، لا أصدق، عمي وعمّتي لا يرضون لي بذلك!

وظللت هكذا بين مدّ وجزر، بين مطرقة الخوف وسندان المجهول، وددت لو أخبروني بكل شيء، عوضا عن هذا الانتظار المنهك، فكّرت أن أسأل عمّتي عن صحة ما أبلغتني به عائشة، لكن همسات عمّتي وغريبة قد فصلت في الأمر، لم أكن ممّن يحبّذ التناجي أمام الآخرين، ولا الإنصات لمن يتناجون أمامي، لكنّي فعلتها، سمعت غريبة تقول إنّ كل شيء جاهز، والجماعة مستعدون، فقط جهزوا البنت، فأومأت إليها عمّتي بالموافقة.

أسقط في يدي حينها، ولم أدرِ ما أفعل، أحسست بأن دوامة منفلتة تدور بي، فلا هي تقف وتستكين، ولا هي تقضي على ما بقي بي من رمق، فأريح وأستريح!

وغصت في نوبة بكاء حادّة، ووددت لو أصرخ وأصرخ؛ علّ صوتي يصل إلى «الباطنة» عند أهلي، فيهبون لمواساتي وانتشالي من هنا! وأبحرت بي الذاكرة إلى عمّتي شمسة، وأبي، وسالم، وجميلة، والمزرعة، أتراهم بخير، مرّ ما يقرب من ستة أشهر أو يزيد لم أرهم، اشتقت إليهم جميعا، وجميلة خاصّة، مشاكساتها الدائبة، وجنونها الجميل، قبل أن أغادر أوصيتها بحفظ الصلاة، يمرّ سرب الكلمات على مرأى من عيني، وكأنها البارحة، فابتسم بوله:

- لقد كبرتِ يا جميلة، ويجب أن تحفظي أدعية الصلاة، دعاء الاستفتاح والتشهد، وحين أعود لزيارتكم سأسمعه منكِ.
- لكني أصلي يا كولجهان.
- كيف تصلين ولم تحفظي تلك الأدعية؟
- أسجد لله، وأقول: جميلة تحب الله، والله يحب جميلة.

يا لهفتي عليكِ أيتها الملاك، في قلبكِ تسكن ألف طفلة.

أنا أعرف أنّ عمي هلال وعمّتي سليمة سيفعلون هذا من أجلي، من أجل أن يثبت حملي في المرّة القادمة، من أجل أن تقرّ أعينهم برؤية نسل مبارك، أعرف أنّ قلوبهم طيبة، ولا يعمدون إيذائي، لكنّ الأمر يبدو موغلا في الغيبية والوحشة، ولا أروم فعله، والرفض ليس من ديدن البيت، ولا تشريعاته، فما يقرّره الكبار يسري على الصغار، ولا فسحة للشجب!

كان الأمر قاسيا على قلبي، والشتات يعتصرني، هل أستسلم لواقع كهذا؟

هل ثمّة خيار آخر؟! كانت دوامة الأفكار تتناوشني، لا أريد أن أموت هكذا، بل لا أريد أن أموت الآن، ما أزال متشبثة بالحياة، كلنا هكذا، تجذبنا نزوات العيش، ورفقة الأحبة، وما الموت إلا شبح مرعب، تنتفض الأجساد عند ذكره، وما عزرائيل إلا رسول تقشعرّ الأبدان بمجرد تخيّل اقترابه. أنا لا أريد أن أموت، فقد اعتصرني الشوق للمصنعة، والحويرة، وعمّتي شمسة، وأبي، وجميلة التي رأيتها في منامي منذ أيام، كانت ترتدي ملابس بيضاء، تغطي جسدها الصغير كله، ولا يظهر منها سوى وجهها، الذي بدا كهالة نورانية، تقف وسط أشجار شديدة الخضرة، وتحمل طفلا صغيرا بهيّ الملامح والبسمات! كانت رؤيا غريبة، لكنّها مبهجة، زادتني شوقا إلى شوقي للمصنعة.

ثمّة خيار آخر داهمني، مشوبا بقلق مضنٍ، حين سمعت أنّ قوافل من رجال ونساء تخرج من صور، متجهة صوب الباطنة، داهمني مصحوبا

برجفة، شعرت أنّ قوة غادرة تكبس على نَفَسي، لقد قذفت نفسي في حضيض صراع مُرّ، أن أبقى هنا، وأستسلم لقدري، وأستقبل يد الموت بعين باردة، أم أضع حياتي في كفّي، وأهرب بها بعيدا بعيدا، حيث تنتعش وتزهو بين أحبابها، أنا لا أنكر مطلقا أنه مع عبور عجلة الأيام أخذت روحي تعتاد على صور، والبيت ومبارك وعمي وعمّتي، لكن أن يصل الأمر إلى الولوج في حلقة الموت، ورمسات الزار الملفوفة بالغيبيات الموحشة فهنا لا بدّ أن يكون قراري مختلفا؛ لذا حسمت أمري بعد تحيّر دام طويلا. كان ذلك قبل يوم واحد فقط من الليلة المنشودة، كنت أعلم أنّ الأمر مقرف جدا، لكنّي لم أشأ إلا الانتصار على واقع آسن، أعتذر للجميع، لمبارك، لعمي هلال، وعمّتي سليمة، لصور الجميلة، التي ما فتئت تمدّني من عذوبة ساحلها الممتدّ معزوفة الصمود.

الفصل الثالث

تسلّلت اليقظة إلى جسدي المثقل بالهواجس، والمكتظّ بالإعياء، والمرتطم بأحداث تفيض من قِدْر الذاكرة، كيف حدث ذلك، لا أعلم؟ لقد مرّ ما يقرب من سبعة شهور مذ غادرت هذا المكان، عشّي الذي يمكث في حضن البساطة، خرجت منه جسدا، وتركت روحي فيه كيمامة سادرة، غيّبتها الريح عن موطنها، وها أنا قد عدت ليلتئم الجسد مع الروح، ويبسم القلب المهترئ من وجع البعد، أجترّ نَفَسًا عميقًا، وأزفر يباس الذكرى، أشعر بألم يذرع جسدي، أجاهد للجلوس، أشتمّ رائحة دفئها، كانت نائمة بجانبي طوال الليل، رائحة خبزها تتنامى إليّ، كم أتوق إلى خبزك الممزوج بعبق الأمومة! أمرّر نظرات ساهمة على بيتنا، كانت جدران الطين قد أخذت تزحف قليلا قليلا على بيتنا، وبيوت الحويرة، واستبدل الناس الطين سعف النخيل، في بيتنا لم يكتمل سيناريو الطين، خيمتي ما تزال من جريد النخل، أعدّل جلستي، أتحسّس رقبتي التي غزتها حبات العرق، مشوبة بحرارة مرتفعة، لا أعجب من ذلك، فما مررت به طوال رحلتي من صور إلى المصنعة لم يكن بالأمر الهيّن، فقد استغرقت شهرا وبضعة أيام، وصلت أمس قبيل الغروب، كان زعيم القافلة رجلا شهما، فمذ عرف أنّي امرأة وحيدة وهو يوصي نساء القافلة بي، انضممت إليهم في صور مقابل خمسة قروش، وأنا أحمل أغراضي، بضع لبسات، ومصوغاتي الفضية، ومصحف وكتاب، حشيتها في قطعة قماش واسعة، وعقدتها بقوة، كنت أتحاشى الاختلاط بأحد طوال فترة الرحلة، ورغم محاولات بعض العجائز للتقرّب مني، ودعوتي للقهوة، بعد الحملقة في وجهي، وسائر جسدي:

- تعالي يا ابنتي، اشربي معنا القهوة، وفضفضي مع النّساء، ستملّين صامتة، وبمفردك.

رغم كل ذلك فإني أتقلد حِلْية الصمت، وأتكوّر على نفسي، وأرد باختزال:

- شكرا لكنّ، أفضل البقاء هكذا.

كانت الرحلة طويلة وموحشة في أحيان كثيرة، خرجنا من صور إلى وادي بني خالد، ثمّ إبراء، ثم المضيبي، ثم سمائل، ثم بدبد، ثم السيب، وأخيرا الباطنة حيث المصنعة. في الواقع لم أكن على علم بهذه المناطق قبل ذلك، وعرفت أسماءها من نداء قيادة القافلة حين نحطّ في مكان ما.

ولم يكن الأمر بالسهولة التي يخطّها القلم، وتبعثرها الحكايات، فالطريق ملغّمة بالعقبات، وقطاع الطرق يصولون ويجولون، لا سيّما في الأماكن المقفرة، ويسطون على القوافل، ينهبون المال والإبل، والزاد والعبيد، هذا ما عرفته من ثرثرات النساء، ولا تسلم القوافل حينها إلا بقوة الجماعة، وحسن تدبير الزعيم، وحين نستريح في بعض المحطات، يأخذ زعيم القافلة الأمان من شيوخ القبائل، فلا يتعرض لنا أحد بسوء حتى نرحل.

حين وصلت القافلة إلى المصنعة، آثر زعيم القافلة أن يوصلني إلى مدخل الحويرة الجنوبي بحكم أني وحيدة، ولما اقتربنا لمحت الشايب «مسلّم» بعمامته البيضاء الملفوفة بعجالة على رأسه، يمتطي حماره العجوز الذي أنهكه من فرط حرصه على جمع المال، يحمل على ظهره في اليوم عشرات الأثقال، ولا يبالي برحمة ذلك الكائن. يشاع في الحويرة أن الشايب «مسلّم» عاش يتيما، وربّته أمه صابرة على قسوة الجوع والفاقة والحرمان، تتردّد بين بيوت الميسورين؛ علّها تجمع زكاة، أو تعاون نساء الدار في أعمال البيت، فتعطى مقابل ذلك جراب تمر، أو حفنة «عومة». وحين كبر «مسلم» عمل بيدارا في المزارع، وعفّها من ذلّ التيه،

من أجل لقمة عابرة، كانت تحلم برؤية نسله، لكن الموت اختارها قبل ذلك، ربّما لأن ذلك النسل ما كان ليخرج على وجه الدنيا، وظل حبيس أرحام ثلاث نساء تزوّج بهنّ «مسلم» ولم يرزق بـ «شطفة ياهل» على حد تعبير نساء الحويرة، فطلقهنّ جميعا، وعاش وحيدا يجمع المال ويخبئه.

كان الشايب «مسلم» متجها إلى الحويرة، فناديته والتعب بادٍ على نبرة صوتي:

- الشايب «مسلم» كيف حالك، هل توصلني إلى البيت؟

كانت الشمس على وشك الرحيل، والأصيل يرسم خارطة حمراء في طرف السماء، ونعيق الغربان يودّع النهار، لتأوي إلى حصنها بعيدا عن فوضى العتمة.

اقترب مني الشايب «مسلم» وأخذ يتقصّى ملامحي، ثم سألني باندهاش:

- من أنت يا بنت؟

- أنا بنت مسعود بن سالم.

عقد الرجل حاجبيه، والتمعت في عينيه عشرات الأسئلة، ثم أردف:

- أنت من زوجوك في صور؟

- نعم يا عمي، أنا التي تزوجت في صور.

أجبته بكلمات يزفّها القلق.

- حسنا يا بنتي، سأوصلك إلى بيت والدك، الله يستر عليك.

وأخذني الرجل إلى بيت أهلي، وفي عقله تعشعش مئات الأفكار، ترى ماذا اعتقد هذا الرجل عني؟ وماذا يمكن أن يلوك عني من أقاويل بين أهل الحويرة؟ تساءلت وأنا أودّعه شاكرة، وأدسّ في جيبه قرشا.

***

خرج أبي إلى عمله عند الوالي دون أن يحادثني، ولم يكلّف نفسه عناء السؤال عن ابنته كولجهان التي شرّدها البعد، وطعنتها الخيبات، دلفت عمّتي

شمسة إلى خيمتي وهي تحمل طبق الخبز المدهون بالسمن البلدي مع اللبن، أكلت بشراهة، كأنّي لما آكل منذ زمن، جوّعني الحنين، وأسغبني الفراق:

- اشتقت خبزك عمّتي شمسة.

أومأت برأسها دون أن تقول شيئا وهي تخطّ بشفاهها ابتسامة حانية.

وظللنا فترة هكذا، يفرد الصمت جناحيه البائسين علينا، تنظر كلانا للأخرى وهي تحمل أطنان الأحاديث المخبوءة في غور النفس، حتى أزاحتها عمّتي:

- لمَ فعلتِ ذلك يا كولجهان؟ لمَ هربت، وعدت وحدك، وأين مبارك؟
- لا أعرف يا عمّتي، لا أعرف من أين أبدأ، وأين أقف، أحسست أني كمن يصارع دوامة تلفّه بعنف، وتمدّ يديها لابتلاعه، وهو يكافح لأجل البقاء، يشاكس الموت متكئًا على بقية أمل كاذبة!

هل أبدأ حين أجبرتموني على نفض طفولتي، والزواج في مكان بعيد، لا أسمع فيه دفء نبضكم، أم حين تعاورت عليّ عجاف الغربة، وعجاف بعض القلوب؟! وحده الله يبصر شغاف النفوس، وحده الله يعلم ما تكنّه من غصة، وما تخفية من خيبة الشعور!

أخذت أرنو إلى عينيها اللتين تقطران حنانا، ولم أشعر إلا وأنا أقذف جسدي في أحضانها، وأبكي، بكيت كثيرا كما لم أبكِ من قبل، غسلت أدران الأيام، وأخذت أسرد كل شيء، نعم كل شيء، وعمّتي تسمعني، ودموعها تهطل على خصيلات شعري، وتفرش عليها حبّ الأم، ذلك الحبّ القدسي، الذي لا يختلف على صدقه اثنان، ولا يماثله حبّ على وجه الأرض، حتى حكايا العشاق تخرّ خائبة أمام ملكوته!

لم يقتنع أبي بأسباب هروبي من صور، كان الأمر ضبابيا بالنسبة إليه، وكان يحمل فوق رأسه همَّ كلام الناس:

- فضحتينا بين العرب والجيران يا كولجهان، الناس أكلوا وجوهنا! كلهم يقولون لماذا عادت بنت مسعود في القوافل وحدها؟! وأين زوجها وأهله عنها؟ لمَ تركتهم وعدتِ؟ الناس تحوك الحكايات، يقولون: «ما عادت وحدها إلا هاربة من فضيحة اقترفتها»!

تتقافز كلمات أبي «فضحتِنا...» في عقلي، تثقب ذاكرتي بطعنات غادرة، وتصنع فيها تجاويف مؤلمة، قد يمحوها الزمن، وقد تخلد لتبثني سمومها كلما وهنت.

نعم يا أبي أنا هربت، لكني هربت إلى الحياة، هربت حين طوقني البلاء بأغلاله، وغدوت كمن يهيم في صحراء مقفرة، لا ماء ولا زاد! هربت إليكم أستغيثكم أمانا، هربت حين أحسست أن أصابع الموت تقترب مني، لم أشأ أن أضعف أمامها، وأسلمها نفسي بانكسار، أنا يا أبي هزمت كثيرا حين استسلمت لذلك الزواج، لكني استيقظت بعدها، وعلمت أن الانتصار على مرارة الواقع لا يُدرَك إلا بالحزم، والصبر على عواقب المغامرّة، أقول هذا وأنا أتنفس الحياة بينكم الآن، ولا عزاء على ما مضى، ولا عزاء على ثرثرات «الروايح» ولا سوالف «الشياب»، راحتي هنا بين وخزات «أشجار الأراك» وظلال «أشجار الليمون» وشموخ نخلات «العوانة» وأراجيح أشجار الغاف، وعلى ضفاف أغنيات الجدات في الحويرة ترتسم سعادتي، ويبين ألقي.

***

ثمّة هدوء مريك يسود بيتنا، جدتي تنزوي تحت عريش المطبخ وتحوك الأثواب، كنت طيلة رحلة العودة وأنا أتوجس ردّة فعلها الغاضبة ولسانها الذي لا يعرف السلم، لكن وقع الصدمة على نفسي كان كبيرا حين لم تتفوّه بكلمة

واحدة، كانت تنظر إليّ نظرة شاردة، ثم تواصل حياكتها، أو ربّما تركتها لقضاء حاجة ما، وجميلة؟ أين جميلة؟

ردّت عمّتي شمسة بكلمة واحدة، كلمة واحدة فقط، لكنها زلزلتني:

- ماتت!

أسقط في يدي، هوى جسدي، بينما عيناي ما تزالان تحملقان في عمّتي:

- من مات يا عمّتي؟
- جميلة.
- أنت تمزحين، صح؟ تمزحين!

طوقتني بذراعيها، وأخذت تمسح على جسدي المتنفض، ثم قالت:

- إنه قدر الله يا كولجهان، فبعد رحيلك إلى صور بشهر، ابتليت «الحويرة» والقرى المجاورة، بعاصفة شديدة، التهمت الشجر والبشر، وحتى بيوت جريد النخل، ولم تسلم إلا الغرف المبنية من الطين عند البعض، كانت الريح قوية جدا، والسيل شديد الغزارة، وحبات البَرَد كبيرة ضخمة، في تلك اللحظات انشغلنا بالعريش المتهاوي، وخيمنا التي تراقصها الريح، حتى كادت تنفلت من عقالها، وتسقط على رؤوسنا، كنّا نصرخ، وندعو الله أن ينجينا من هذه الهدّامة، فلقد ظنناه يوم الحشر، أخذنا نلهج بالدعاء والخنوع إلى الله. إنّها اللحظة التي تشعر فيها أنّ كل شيء قد انتهى، وأنّ الوقوف أمام الله قد حان أوانه، فتراجع تاريخك، ومواقفك: خيرها وشرها.

ووسط هذه المعمعة، صرخت جدتك: أين جميلوة، أين جميلوة؟

حينها لم نشعر أنا ومسعود إلا وقد سحبتنا خطواتنا إلى الخارج، فوجدنا جسدها الصغير مبللا، ومسجى في البراح، الذي يفصل الغافات عن

بيوتنا، تنتفض أطرافها النحيلة، وعيناها شبه مغمضتين، حملناها إلى البيت، متغضنّة الجسد، وظلّت بعدها بأيام تصارع الحمى حتى التهمها الموت، وغادرتنا، غادرتنا إلى الله، إلى الجنة ياكولجهان، رحلت جميلة، ورحيلها كان ثقيلا علينا، لمنا أنفسنا مرارا، وعزلناها عن الحياة، ثم اضطررنا للعودة، كلّنا صمدنا في وجه الفقد الكبير إلا جدتك، فبعد أن غسلنا الجسد الصغير، وعطّرناه بالكافور، لم تتمالك نفسها، تهاوت عليه، وأخذت تبكي بكاء مرّا، وتصرخ بصوت عالٍ، وهي التي اعتادت نهر النساء عن النحيب في مجالس العزاء، ها هي تسقط مغشيا عليها من الحزن، وبعد سبع العزاء بأيام اتخذت لها متكئا عند سحّارة جميلة، وأخذت تخرج أثوابها ثوبا ثوبا، تفردها ثم تعيد ترتيبها، وأحيانا نسمعها تبكي، وأحيانا أخرى تحدث جميلة: عودي يا بنتي، سأصنع لك ثوبا زهريا، سأشتري لكِ قماشا جديدا، من عند «جيماه» البانياني، وأحوك لك أزهى «حظيّة»، ما لبست مثلها بنت من بنات الحويرة، وأصوغ لك «مزردا» فضيا جديدا، سيعجبك كثيرا، وتتباهين به أمام صويحباتك.

وظلت على هذه الحال، حتى نحل جسدها، وقلّ كلامها، ولم يعد سبابُها يجلجل المكان كما كان، لقد كُسِرت جدتك يا كولجهان، كسرها موت جميلة، وتصالحت مع الصمت والعزلة.

- أكرهه، أكره الموت، لم لا يتركنا؟ لم يصرّ على زيارة بيتنا، وسرقة أحدنا؟ لقد سرق أمي قبل أعوام، وها هو يخطف جميلة الآن.
- الموت أمر لا بدّ منه، كلنا زائلون، فلتعلمي أنه لا يخلو بيت من فقد، ولو عددنا بيوت الحويرة، بل بيوت المصنعة كلها، لما وجدنا بيتا لم يدخله الموت.

لم يتغير شيء كثير في المزرعة، مضى الآن ما يقرب من سنة على عودتي إلى البلدة، وثلاثة شهور تقريبا منذ أن طلقني مبارك، نعم لقد طلقني مبارك، فبعد عودتي من صور بشهور عاد مبارك من رحلته إلى بومباي، وحين علم بـ«فضيحة» هروبي إلى المصنعة، جاء مع والده وأعمامه إلى الحويرة، يشكون لوالدي العار الذي سببته لهم أمام جيرانهم ومعارفهم، وقبل أن يغادروا طلقني مبارك؛ لتنقطع وشيجتي بصور انقطاعا نهائيا.

الوضع في مزرعتنا كما هو، خصيف بجسده الضخم، وقوته البدنية، يلفّ على جذعه وزارا مخطّطا، وقميصا تعتريه ثقوب متباينة الأحجام، ويعمل بكل ما بثّ الله فيه من طاقة، ربّما محاولا إصلاح ما أفسدته عاصفة عام 1957، العاصفة التي قتلت جميلة، وأضرّت الزرع والشجر، حين رآني أول مرّة بعد عودتي من صور، اقترب مني، وأخذ يحكي لي عما فعلته العاصفة بالمزرعة:

«حِبّتي كولجهان، جاءنا ما يشبه الحشر، واكتوينا قهرا على مزروعاتنا، لقد أتلف البَرَد محصول البطيخ الذي عقدنا أنا وسعيد أملا كبيرا عليه. كما سقطت نخلات كثيرة، وحرق البرق نخلات «الخصاب» المتجاورة، وتكسّرت أغصان الليمون والبيذام، والمانجو، حِبّتي لو شاهدتِ المزرعة كيف آلت بها الحال لما صدّقَت أنّها المزرعة التي تربيتِ فيها».

هذه الفترة هي فترة «شراطة النخل» التي يتبعها «التنبيت»، كنت أتجول بين أشجار النخيل والبيذام المتبقية، أحتسي تلك الطاقة، التي يبثّها اللون الأخضر الزاهي، وأعيد ذكريات مضت قبل أعوام، حين كنّا أنا وأخي سالم نتسابق في تسلق شجرة المانجو «الهندي»، وحين وقع سالم مرّة، لم يهتمّ لإصابته، بقدر ما حلّفني ألا أخبر أبي وعمّتي شمسة عن الحادث؛ خشية عصا أبي «المحنّاية» التي لا ترحم، وسباب جدتي، وسيتولى هو أمر تلفيق كذبة ما، ولا حين لدغتني

عقرب حمراء، كانت مندسّة بين رفات أوراق البيذام اليابسة، وأخذوني عند الشيخ ليقرأ عليّ حتى يهدأ الألم قليلا، ولا حين غاصت في قدمي شوكة «أم السلي»، وأخذت أصرخ حتى انتزعها سعيد بمهارة، بعدها أخبرتنا عمّتي شمسة عن «حمار الظهيرة»، ذلك الشبح الذي يتجول في البلدة والمزارع وقت القيلولة، ويخطف الأطفال، الذين يصادفهم، ويذهب بهم إلى مكان لا يعلمه أحد، حينها غشينا الرعب أنا وسالم، ولم نعد نخرج في ذلك الوقت إلا نادرا.

آآآآه تمر الذكريات كبالونة، حبلى بالهواء، وما إن تنفجر حتى يغرقنا الحنين!

سمعت أنّ خصيف تزوّج بنت عمه، وينتظر مولودا، وسعيد سافر إلى قطر بعد العاصفة بأشهر، يقول خصيف بأنّ سعيدا داخلَه اليأس من العمل في الزراعة، وفكّر في الهجرة. وحين عزم على ذلك، خرج من الحويرة داسّا جسده في «لاند روفر» متهالك، ويمّم صوب «دبي»، ومنها إلى قطر في «لنج» مع مجموعة من الشباب العمانيين، كل ذلك دون علم أحد، حتى أبويه، غير أننا سمعنا بعدها أنّ أباه تبعه، فهو وحيده، لكنّه أبى العودة إلى عمان.

ذات بوح، قالت عمّتي شمسة:

- سعيد لم يتزوج من بعدك، رفض فكرة الزواج، رغم إلحاح والديه، ربّما ما يزال راغبا فيك.

أذكر أني حينها أشحت بوجهي جانبا، ونكّسته، ولا أعرف أكان ذلك حياء، أم انكسارا، أم خوفا؟! لا أعرف.

أواصل طوافي في المزرعة، أرقب الثيران وهي تمارس عنفوانها الفطري، الذي كشفه الإنسان، وأفاد منه عبر حقب تاريخية متوالية، وتجرّ أحبال «المنجور» لينسكب الماء من الدلو، ويهب الحياة للمزروعات، عبر سواقٍ ترابية، ممتدة ومتفرعة في المزرعة كلها.

ولهذه الثيران حكاية طريفة، حكتها لنا عمّتي فيما كانت تحكي لنا من حكايات شعبية متداولة، قيل بأن جنية تسكن في الطرف البعيد للحويرة، تستوطن إحدى أشجار الغاف الهرمة، وقد توارث الناس العلم بسكناها، فنبهوا أولادهم بالابتعاد عن الغافة، لا سيّما عند غروب الشمس، فصاحبتها مؤذية، وكم من طفل أصابه ضرّها! وبعضهم فارق الحياة، لكن إيذاءها لم يكن مقتصرا على البشر، إذ كانت في كل ليلة تتسلل إلى المزراع، وتأكل طعام الثيران، فضاق المزارعون من ذلك، ونصبوا لها كمينا، وكان الكمين هو الشيخ ناصر بن عامر، شيخ علم ودين «عَزَم» عليها، وهدّدها إن سوّلت لها نفسها نهب طعام البهائم ستكون عقباها وخيمة.

ورغم نكهة الخرافة التي تتطاير من الحكاية، فإنّ عمّتي كانت ترويها لنا وهي تحرك سبابتها، وتعقد حاجبيها، كانت تؤمن بكل كلمة تقولها لنا، وتعقب دائما:

- لا شيء يضاهي علم أجدادنا الأولين، ولا ضرّ كضرّ الجان!

أمدّ بصري على امتداد المزرعة، أغترف من وحي جمال السواقي وخريرها ألحان الصمود أمام كل شيء، كل شيء مرّ عليّ وما زال، فقد جميلة، وغضب أبي الذي ألهب قلبي، لا سيّما بعد أن جاء عمي هلال ومبارك، وأمارات الاستياء تذهب بهم كلّ مذهب، وشعور أبي بالحرج الشديد أمامهم، حتّى إنّ حمّى قوية اشتعلت في جوفه أياما، أطاحت به، وظلّ ممدّداعلى الفراش، لا يقوى على النهوض، وعمّتي شمسة تطحن له «الخيل والنيل» وتدهنهما على جسده؛ علّ حرارته تخفف من فورانها وتهدأ، وتقرأ عليه بعض قصار السور التي تحفظها، وأنا أرقب ذلك،

وأنزوي متكوّمة على نفسي، أضم رأسي بين ركبتي، وأطوقهما بذراعي، وأنخرط في النحيب.

آاااه مرّت تلك اللحظات، وكنت أظنّها لن تمرّ، نعم اعتقدت بأنّها ستجثم على صدرونا أبدا، كأمّ استلّ الموت بساط فرحتها ببكرها، فأمست هائمة في ذكراه، رغم مرور السنين، وإنجاب البنين!

نعم، كنت أظنّ أنّنا سنتسربل بلحاف اللعنة أمدا طويلا، هكذا نحن البشر، نتواطأ مع عقولنا القاصرة، ونصدّق هذيانها وخيباتها، حتى يمنّ الله علينا بالفرج، ويفكّ ضائقتنا، فنبهج ونستبشر وننسى.

أخطو بضع خطوات، وأتوقف عند نبتة ريحان يتيمة، لم يمنعها يتمها من بثّ عطرها في القلوب، ولم تحل وحدتها دون التماهي مع تفاصيل الكون، تبسم لغيمة بيضاء عابرة، وتلوح ليمامة سلّمت جناحيها للريح، تشتمّ رائحة ماء السواقي المختلط بخصوبة الأرض.

حين أظلّنا المساء بعباءته الفضفاضة، والمزدانة بمنمنمات ذهبية تلهب الحواس، اجتمعنا أنا وأبي وجدتي وعمّتي وسالم، يلفّنا عبق الطين المحروق، ويسدل «سراج أبو سحّة» المعلّق على جدران الطين، خيوطه الباهتة على وجوهنا وأجسادنا، تشاكسنا أمنيات الغد. ينظر أبي لسالم الذي بدت تقاسيم الرجولة تشقّ طريقها إليه، صوته الذي روادته بعض الخشونة، تلك الشعيرات الناتئة بخجل بين أنفه وشفته العليا، جِلْسة «الرجال» التي يتخذها، ولا يتهاون فيها أبدا، فقد أوصاه أبي بها، وعوّده عليها، لا سيّما حين يأخذه إلى مجلس الرجال، أو حين يرافقه إلى الحصن، مع الوالي والقاضي سيف بن منصور، عمره الآن اثنا عشر عاما، وقد أنهى دراسة الكتاتيب في البلدة المجاورة حيث كنا نتعلم القرآن والقراءة عند المعلم

سلمان، نقطع مسافة لا بأس بها، ونحمل «البيسات»، كل واحد منّا يعطي المعلم بيسة واحدة كل سبت، الآن جاء دور «المدرسة السعيدية»، نعم سيذهب سالم إلى المدرسة السعيدية في «مسكد» سيأخذه أبي بنفسه إلى هناك رغم المشقة، فهي من أوائل المدارس النظامية في عمان، فرحت لأخي سالم كثيرا، فأبي يعلّق عليه آمالا أكبر من العمل في المزرعة أو في الحصن، أو في البلدة كما يفعل بعض الشباب الذين يبنون بيوت الطين مقابل بضعة قروش، أو يسافرون إلى البحرين والكويت وقطر، يفتشون عن منابع الرزق، والحياة الرغيدة.

يحدق أبي في سالم وهو يرسم خارطة أمل منتظر، وحلم قادم.

كم كنت أغبط سالم على كمية الثقة التي يضعها أبي في جوفه! ستؤتي أكلها لا محالة، فالعلم سبيل مزهر، لا يأتي إلا بالخير، ولا يبثّ إلا ترانيم السّعد، تمنيت أن أرافقهم إلى هذه المدرسة، لكنها كانت متاحة للذكور، أوجعني ذلك، أوليست الأنثى كالذكر في طلب العلم؟ تاريخ الإسلام يلتمع بأسماء النساء العالمات، وأحلاهنّ ذكرا هي السيدة عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها–، لكنها نواميس حياتنا في عمان آنذاك، وتشريعات القهر والعزلة، والشتات والتقتير.

التفت أبي إليّ، وقال بلطف:

– اسمعيني يا كولجهان، أبو سعيد كلّمني يريدك لابنه، إذا كنتِ ترغبين به سنتوكل على الله، المرأة سترها في بيت زوجها، ومع رجل يلفّها، ويحسن إليها.

في الحقيقة أنا لم أتفاجأ من رغبة سعيد في طلب الزواج مني، فقد همست لي عمّتي ذات مرّة بذلك، لكنّ العجب صافح عيني من طريقة أبي

في الحديث، أبي رحّب بخطبة سعيد لي، هل تذكر يا أبي حين طلبني سعيد للزواج من قبل، هل تذكر حين رفضته بل وسخرت من إمكاناته المادية، لا بأس فهمت يا أبي، أنا الآن امرأة مطلقة، أدرك ذلك جيدا، أدرك أنّ المطلقة قد تصبح عالة على أهلها إن لم يتمّ تزويجها لأيٍّ كان، وأن فرصتها في الارتباط صارت ضئيلة، أعرف ذلك، لكنك لا تعلم أنّ سعيدا هو نبضي الأول، هو العطر الذي فرش أريجه على قلبي الغضّ، وأرخى عليه مساحات الأمان، لكني غادرتها، غادرتها كفراشة تعرّت من زهرها، فأصابها الجدب، وهامت في طرقات اليباس، تصارع الموت، حتى أعادتها رحمة القدر إلى قطر الحبّ ثانية، ونفضت من تلابيبها رفات الماضي. جميل أن تكون روحك بالقوة التي تتأهّب بها لاستقبال حياة أخرى، رغم كلّ ما مضى.

تتقافز كلمات أبي على قلبي، كطفل تراقصه نشوة اللقاء بأمّه بعد طول غياب.

أتلفع بالصمت، وأنكّس رأسي حياءً، وربّما فرحا أو ربكة، لا أفقه إلى أيّ قائمة أصنّف إحساسي حينها، كان مزيجا من كل ذلك!

الفصل الرابع

يطلق محمد لرجليه عنان الهرولة، يرسلهما للريح، مندفعا نحو أبي، جدّه الذي يغدق عليه عطايا الرأفة والحنان، يحتضن كفّه الصغيرة، ويذهبان معا إلى المسجد لأداء صلاة العصر، وقبل ذلك يتوقف أبي؛ تلبية منصاعة لطلب محمد عند «السدرة»، التي تعانق مئذنة المسجد، من زمن طويل، تتشرّب وريقاتها كلمات الأذان خمس مرات في اليوم، فتنساب الخضرة من وجنتيها، وتهطل عليها البركة، كما يعتقد أهل البلدة، وتثمر طوال العام دون انقطاع، لكنها تتوجع من قصف الصبية المتكرر لثمارها، يمدّ محمد راحتيه لأبي، ولعابه يتطاير اشتهاءً، وحين تلمتلئان من «النّبق» يخزن محمد الفائض منها في جيب «دشداشته»، وكم من المرات التي ينام فيها صغيري وجيب دشداشته زاخر بمؤنة «النبق»، فأخرجه منه، وأخبئه له ليوم غد؛ احترازا من أسئلته الصباحية:

- ماه أين «النبق» الذي كان خبأتُه في الدشداشة؟

آآاه يا محمد، ليت الحياة تتكوّم في عالمك الصغير، ولا تمتدّ أذرعها لتنهش لحظاتنا الجميلة، أكمل محمد عامه السابع، بعيدا عن نظرات أبيه الحبلى بالقلق، والمشحونة بعطف الأبوة، رجوته البقاء هنا، فالمزرعة استعادت عافيتها قبل أعوام، والحال في البلاد من يسر إلى يسر، وزمن الفاقة سيغرب، وسعيد يعرف أنّي لا أحتمل البعد، ولا أطيق الفراق، وقد خرجت من شرنقته غير مرّة، وأنا مثقلة بالجراح، لكنه كان يسوّغ ذلك بالتفتيش عن حياة أفضل كما يدّعي، كان يقول أنّه يرمي لحياة رغيدة لمحمد، يريده أن يتعلم ويدرس في الجامعات، ويصبح طبيبا، حاول سعيد أن يعود إلى عمان؛ ليأخذني أنا ومحمد للعيش في

قطر، يقول: إنّ الحياة هناك أفضل بكثير من هنا، البيوت الإسمنتية، بتشكيلاتها المتنوعة البديعة، والمزودة بما يسمى بالمصابيح الكهربائية، التي «تجعل الليل كأنّه نهار» على حدّ تعبيره، عوضا عن «سراج أبو سحّة» الذي يوفّر إضاءة خافتة، والمدارس التي تمدّ يديها للطفولة المتوقّدة، وتربأ بها إلى علياء العلوم، والمستوصفات الطبية المتوفّرة، للقاصي والداني، تهبّ لنجدة المجتمع من غوغاء الأمراض، كانت حواسّ سعيد تتعاور بانفعال مغرٍ وهو يصف ذلك، حين زارنا قبل عامين، يقارن بين حسن الحياة هناك وسوئها هنا في عمان، يريدنا أن نسافر معه أنا ومحمد، سنأخذ الجنسية ونستقر هناك، لكنّي رفضت، ما زالت لعنة البُعد عن موطني تلاحقني، لا أريد المغامرّة ثانية، رفضت بكل قواي الإدراكية؛ تلافيا تكرار التجربة الموجعة، فالماضي لا يفتأ يطل برأسه المنتفخ بالبشاعة بين الفينة والأخرى، لا أدري لم أشعر أني كعصفور صغير، لا يلبث أن يغادر عشه حتى تتهالك عليه دواعي الفناء، فيعود منتصرا عليها إلى موطنه البكر وحضنه الأول؟!

ولم يكن السفرآنذاك نصيبا مفروضا على سعيد فقط، بل ثمّة شباب عمانيون آخرون تعاورت عليهم أسباب الشقاء والفاقة، وغادروا البلد، وفي قلوبهم غصّة النوى، لكنّه التفتيش عن كوّة يلج منها بريق الرجاء، بحياة طيبة لهم ولأبنائهم، يتسربلون رداء الصبر، ويلوّحون للشوق بأيادٍ صلدة، لا تخرّ منهزمة، ولا تخنع لرداءة الواقع!

مضت الشهور والأيام ثقيلة دون سعيد، لا سيّما حين أعلن الموت معركته الرابعة في عائلتنا الصغيرة، لقد اغتال روح أمي، وجميلة قبل سنوات، ثم جدّتي التي ملّ الصّمت منها، وتقزّزت منها العزلة حتى أسلمتها لقمة سائغة للموت، ثمّ

انسلّ بعيدا، كنت أظنّه قد اكتفى، ولن يؤوب، وها هو يعاود الظهور، وقد تلفّع بأعتى السلاح، غير آبهٍ بصرخات القلوب، مرضت عمّتي شمسة الحنون بمرض «السلّ» سمعنا بتسميته، لكنّ أبصارنا استنفدت قواها وهي ترمقها بوجل، تتقلب من حرارة الحمّى، صوت سعالها الحاد يخترق أروقة البيت، يخاتل مسارات الطين، يغوي فتائل القوة التي غرستها عمّتي في كل شبر من البيت والمزرعة والبلدة، فتأبى أن تفكّ رهان الصمود، وتظلّ متوجسة عودة تلك الفاتنة بالحيوية إلى مراتع العزيمة!

لكن هيهات هيهات، والمرض يمارس عناده، ويتوغل في حنايا ذلك الجسد الهزيل، فيزيده هزالا، ويمعنه نحولا!

«السلّ» مرض معد، ينتشر بين البشر كالنار في الهشيم؛ لذا كانت مراسيل التحذيرات تتقاذف إلينا من كل صوب أن ننأى بأجسادنا عن المصاب، كان الأمر موجعا بشكل لا يحتمل، نجاهد النظر إلى عذاباتها من بعيد، نشتمّ رائحة الدماء المنسربة من فمها، فتكبر هالة الهلع في قلوبنا، حاول أبي أخذها إلى مستشفى «الرحمة» في مطرح، المستشفى الوحيد في عمان في تلك الفترة، ورغم بعد مطرح فإنّ أبي كان متأهّبًا لفعل أي شيء؛ لأجل أن تعيش زوجته الطيبة، استأجر سيارة خميس «اللاندروفر»؛ لأخذها إلى المشفى، لكنّها أبت الذهاب، كانت كلما أصرّ أبي على رأيه، تلوح بيدها رفضا، وتردّد بصوت ضامر:

– لا أريد الذهاب عند «الدخاتر»، أفضل الموت في بيتي، وبين أهلي، ولا في بقعة بعيدة.

ولِمَ تذكرين الموت يا عمّتي؟ أبي يقودك إلى سبيل التعافي، وأنت تناغين الموت؟ تبًّا لحكايات الفقد، تمخض الأرواح، ولا تكترث!

فعل أبي كل ما يمكنه لأجلها، جلب عسل السدر، واشترى «الزعتر» من «الحجور»، كنا نطبخه لتشرب ماءه؛ علّ دفئه يتشل روث المرض، ويخفِّف الوجع!

لكنها الأقدار حين تقول كلمتها الأخيرة، ويقف البشر أمامها يصارعون عتبات الدهشة، حتى يطفئ الزمن بقايا الحرقة!

رحلتِ يا حبيبتي، ويا أمي التي ربّتني، يا من دثّرتني بوهج رعايتها، كنتِ هناك تقفين بحبٍّ عند محطات عمري، تمدين يديك الدافئتين؛ لتنزعي عني سوءة الخيبات، وشرّ النفوس، كنت معي في قوتي وضعفي، في فرحي وترحي، في زواجي وولادتي!

رحمك الله، سيظل لساني يلهج بالدعاء لك ما حييت.

بعد رحيل عمّتي رحل معها كل شيء، الضوء الذي ينسدل على ردهات البيت، وروائح الخبز في السحر، وحكايات الأولين، وسرّ الخالة جوخة الذي ظلّ مخبوءا في صدرها حتى غادرتنا، كان الحزن يفترش المكان، كأخطبوط ضخم، يمدّ أذرعه الطويلة؛ ليغتال فراشات الفرح التي حلّقت كثيرا في أزقّة البيت، بكى أبي بحرقة حتى جفت دموعه، كان صوت نحيبه يخترق قلوبنا، فيمعن في كسرها، آآآه ما أبشع الموت حين تسحّ له دموع الرجال!

ولبث أبي في البيت بضع شهور، يزدرد الوحدة، ويحاور الذكرى، حاولنا أن نتشله مما هو فيه؛ خشية إهلاك ذاته، أقدّم له مرق السمك والخبز العماني الرقيق، الذي علّمتني عمّتي شمسة -رحمها الله- كيف أفرد عجينه، وأطهوه بمهارة، فلا يأخذ منّه إلّا بضع لقيمات، وأحيانا لا تمتدّ له يده، اصفرّ وجهه، وغزاه النحول، حتى اجتمع أصحابه من رجالات الحويرة، يحاولون إقناعه

بالخروج من ربقة العزلة، كنت أستمع لأحاديثهم من حجرتي، كانوا لطفاء، يجاهدون لامتصاص الحزن من عينيه، سمعت أحدهم يقول ممازحا أبي:

- مسعود، سمعنا أنّ المرأة هي من تترمّل بعد موت زوجها، ولم نسمع أنّ الرجل يترمل، ويعتزل الناس، هذا معك أنت فقط!

تعالت ضحكاتهم، ومن بينها التقط قلبي ضحكة أبي، ففزّ فرحا، ربّما هي المرّة الأولى التي أسمعها منذ رحلت عمّتي.

***

يسعد أبي برفقة محمد، يأخذه معه في جولاته في الحويرة، أو البلدات المجاورة عند أصدقائه وأقاربه، كان أبي حريصا على صلة الرحم، فلا يترك عجوزا ولا شيخا تربطه به صلة دم إلّا زاره، واطمأنّ على أحواله، ومحمد رفيقه شبه الدائم، وكنت أسعد لذلك كثيرا، وأردّد دائما: «زين الولد يخالط الرجال؛ يتعلم طبوع العرب».

وهذا ما لمحته في حديثه وجلسته وتصرفاته، كلها كانت تشي ببديهة متوقدة، وفطنة حاضرة، هو الآن ابن الثامنة، كان القلق ينهش فكري، ويلتوي على قلبي كثعبان مميت، ربّما كان سعيد محقا في كل كلمة قالها، الحياة هنا لا تصلح لمن أراد لأبنائه علما ومكانة سامقة، ترى هل سينهي محمد مدرسة القرآن، ثمّ سيعمل في المزرعة كما فعل أبوه؟ أم سيسافر للعمل في الدول المجاورة عاملا أو عتّالا؟ لا لا، مجرد التفكير في شيء كهذا يهلك روحي، ويبثّها رعبا زعافا، حبيبي محمد أودّ أن أراك من خيرة العلماء، الذين يفاخر بهم الزمان والمكان، لكن كيف ذلك والحال هذه؟ فكرت أن ألحقه بالمدرسة السعيدية، لكنّ أبي شيخ كبير، ولن يقوى على عناء السفر به إلى مسكد، وأخي سالم أنهى الصف الرابع في

المدرسة السعيدية، وسافر للعمل خارج البلد كما فعل سعيد، وجلّ شباب الحويرة، آآآآه يا مسكد، لماذا أنت بعيدة عنّا، لا تظهرين إلا في أحلام البسطاء، وقوافل الأمنيات؟! تبدين كغمامة قصية، تمخبر عباب السماء، تلوح إليها نظرات الملهوفين، فلا تلتفت إليهم!

أتذكر كلمات سعيد وهو يحثني على اللحاق به في قطر، وهو يبني أعشاش الدفء، ويسترق النظر لمستقبل محمد بعين واثقة، يريده طبيبا أو مهندسا، الله! شعور عطر، يغدق القلب نشوة، محمد الطبيب الوسيم، الذي جاء بقميصه الأبيض، يحمل ما يحمله الأطباء من عتاد، يلتفّ حوله الأطفال والنساء والشيوخ، يتأملون تفاصيله المحملة بالأمل، المختبئ خلف أستار العتمة، يمدون أوجاعهم إليه، فتغور خائبة، وتغرب إلى حيث لا عودة، حتى أولئك «المجذّم»، الذي فقدوا أعضاءهم، فاندسّوا تحت أشجار الغاف؛ خشية تعرّي أجسادهم المشوهة، يفترشون الشوك والوريقات اليابسة، ويلتحفون جريد نخل مهترئ، أسندوه ببضع حطيبات، حتى أولئك الذين لا نعرف عنهم سوى أنهم جاؤوا من داخل عمان، يتنفسون رطوبة الباطنة؛ علّها تخفّف بنداوتها شيئا من صلف المرض المميت، حتى هؤلاء سيحتالون على غافتهم الوفية، وينفضون ما علق في أثوابهم من أثر ظلالها، ويتبعون داعي العافية؛ علّه ينتشلهم من غور بلائهم!

آآآه يا محمد، كم يعوز البلد همتك وهمم أترابك، وأنتم تتسلحون سلاح المعرفة، لكن هيهات، ونحن نساير الدنيا بمدرسة أو مدرستين فقط، يبدو الأمر أشبه بالرقص على الماء.

يمشط محمد المزرعة بقدميه الحافيتين، يرفع «دشداشته» إلى منتصف بطنه،

ويعقلها بإحكام، ويهمّ في مساعدة خصيف وأولاده، أصبح خصيف أبا لأربعة أولاد، يأخذهم معه إلى المزرعة، رغم صغر سنّهم، ربّما أرادهم أن يعتادوا العمل الشاقّ؛ حتى ينفعوا ذواتهم في قادم الأيام، ويكونوا لهم دخلا يسدّ جوعهم، وقد لا يكفيهم فيهربون بفاقتهم خارج البلد، كما فعل غيرهم، ينشدون لقمة العيش، وتخوي البيوت إلا من نساء يعانين صهيد الحنين للحبيب الغائب، تفور أجسادهنّ اشتهاء، فتطفئها سجدة في آخر الليل، ودعوة تخترق السماء: اللهمّ أغننا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمّن سواك. لا أحد يدرك حكايا العتمة إلا من ارتمى في غورها، حين تفيض الرغبات، وتنسلّ الشهقات، وتسحّ حرارة الدمع، لتحرق خدودا ندية، ما زال الصبا يعزف عليها أغنيات الطراوة والشغف والنشوة!

لكنه العوز الذي فرّق الرجل عن زوجته، والأب عن أبنائه، فارتمى الحمل بكل قساوته على الأم، تربّي وتسهر وتطعم. كم من المرات بكيت وبكيت حين اشتعل جسد محمد بحمى لا ترحم، أغمس أقمشة بالية في الماء، وأخمد بها وهج الجسد؛ علّه يشفى، ويتمتم لساني بما يسكن قلبي من آي القرآن، كنت التفت حولي؛ ربّما ألمح شبح الفناء فأقصيه بعيدا، وأطهّر البيت من زوبعته، ما عاد في قلبي متسع للفقد.

ما زال محمد يذرع الأرض ويلهو مع أبناء خصيف، يتراشقون بالماء وحفنات التراب، لو كان جدّه هنا الآن لمنعه من مخالطة أبناء خصيف، كنت أعجب من ذلك، كيف لأبي أن يفكّر طريقة كهذه، وهو بنفسه أعتق خصيفا، ووهبه الحرية، غير أنّ محمد وأبناء خصيف لا يفطنون لذلك، ويهبون طفولتهم براءتها التي جبلت عليها، يشاكسون ماء السواقي، ينثرونها على جباههم،

ويغسلون بها عيونهم الصغيرة؛ علّها تلمح في الأفق بوارق السعد، وتنزاح غمة البلد، ويعود الغائبون يمتطون كتف الأمل بحياة أخرى.

***

أدني صحن الأرز الأبيض، الذي نادرا ما نطبخه؛ بسبب قلة توفره، وأضعه فوق «السمّة» في «الليوان» وأسكب عليه «سحناة المالح»، نلتفّ على الصحن: أنا، وأبي، ومحمد، تتقافز إلى مسامعنا جلبة في الخارج، وأصوات الجيران، وقد خرجوا يهلّلون ويكبّرون، وبعضهم يضرب الدفوف، أحدّهم يقرع باب بيتنا الخشبي حتى كاد يقتلعه، يصرخ بصوت ينساب طربا:

- تعال يا مسعود، اسمع ما يقال، السلطان سعيد بن تيمور معه ولد اسمه قابوس، وخلف أباه في حكم البلاد، الحمد لله، عساه فأل الخير والسعد علينا يا رب، ويعود أولادنا من بلاد الغربة، وتتطوّر البلد.

فزّ أبي من مكانه كما فعلنا، هرولنا إلى الخارج، تتبعنا دقات قلوبنا اللزجة بقسوة الأيام، كانت أزقّة البلدة وطرقاتها الملتوية مكتظة بالناس، لقد خرج الجميع، الجميع بلا استثناء، الرجال والنساء، والأطفال والشيوخ، حتى العجائز خرجن، لمحت العجوز «كاذية»، وقد أسندت إحدى يديها إلى جدار الطين، الذي طبع لونه الباهت على يديها المتغضنتين، واتّكأت بالأخرى على عصا مهترئة، تهشّ بها على مذاق الشيخوخة اللاذع، وسطوته التي صنعت عرجا بيّنا في مشيتها، حتى هذه العجوز تبسم، فتنفرج شفتاها عن فضاء خاوٍ، إلا من سن واحدة هرمة، ثقبتها شقاوة العيش، تبسم لعلّ السلطان القادم يفرش الخير لأبنائها وأحفادها، ولا يصيبهم ما أصاب الأولين، من قهر وحرمان ومرض، ولا يكونون وليمة جاهزة للموت والفقد والغربة. خرج الجميع بعدما أعلنت الإذاعة

البريطانية تنصيب قابوس بن سعيد بن تيمور سلطانا على عمان، خلفا لأبيه، الذي سيرحل إلى لندن، وسيقدم السلطان الجديد، الذي تربى في صلالة، ودرس في كلية ساندهيرست البريطانية – كما سمعنا في الراديو – إلى مسقط بعد ثلاثة أيام، عبر طائرة عسكرية، وسيجتمع بالشعب العماني قريبا.

كان الرجال يرسلون همهماتهم، والوجل يأكل ملامحهم:

- عسى السلطان الجديد يكون فيه الخير والبركة، ونساير دول الخليج الثانية في التطور والتعليم والصحة.
- الأمل بالسلطان الجديد، يقولون إنه ما زال شابا صغيرا، ومتعلما.
- يارب يعود أولادنا بالسلامة، أولادنا الذين تفرقوا في البحرين والكويت وفي قطر والسعودية.

تتطاير الأمنيات لتغفو في حضن الانتظار، الخير قادم بإذن الله، رفرفت هذه الكلمات في قلبي، وأنا أحدّق في وجوههم المتلهفة للسلطان الجديد، وكنت أعقد في نفسي ألف سؤال وسؤال، كيف سيكون السلطان الجديد، وهل سيغيّر من أحوال الناس شيئا، وكيف ستصير البلد على يديه، وهل سيعود سعيد وغيره من رجال الحويرة إلى حضن وطنهم، ويغادرون كهوف الغربة المرّة؟

بعد أيام ذهب أبي وبعض رجالات الحويرة والبلدات المجاورة وأبناء المصنعة، ذهبوا إلى ولاية بركاء، حيث التقى بهم السلطان الجديد قابوس بن سعيد مع جمع غفير من أبناء بركاء، والولايات المجاورة لها، وكان السلطان الجديد قد خرج من مسقط، بعد لقائه بأبنائها إلى السويق، والتقى بزعماء القبائل هناك، ثم عرج على بركاء؛ ليلتقي بالمواطنين.

أخبرني أبي كم كان السلطان الجديد ودودا، تبرق من عينيه ثورة الشباب الطموح، كان ملتحيا، يضع على رأسه عمامة أجداده العريقة، العمامة السعيدية المهيبة، التي قيل إنها تنسب إلى جده الأكبر، ومؤسس الدولة البوسعيدية، ويلبس الخنجر العماني، والبشت الأسود، بدا أنيقا جدا، وصل إلى مسقط بمباركة بريطانية، واستقبال شعبي حاشد، أيّ ظمأ للحياة ذاك الذي رسم أناقة الدهشة على تلك الوجوه؟ كان السطان قابوس يخاطبهم بكلمات دافئة مطمئنة، وعدهم بحياة رغيدة، ووعدهم ببسط مائدة التعليم في البلاد قاطبة، عهد على نفسه بثّ العافية في القلوب والأجساد، وتقديم الرعاية الصحية للمواطنين، الذين أنهكتهم الأمراض والأوبئة، وعد بغيمة، بل بغيوم، تحمل في أرحامها نبت التغيير، ستنتشل هذه الأرض من مأزق التخلف، ويتسلل إليها النور من كوّة الحرية، الحرية للإنسان أينما كان، في شتّى أصقاع هذا البلد، وأيًّا كان لونه أو قبيلته أو أصله، الحرية لتطلعاته، وأحلامه بحياة وثيرة، بعيدا عن منغصات العزلة، التي اكتوى بنارها سنوات طوال، بعيدا عن حكايات الجوع والحرمان، التي لازمته أمدا.

كان أبي يسرد انطباعاته، وانطباعات الحاضرين في اللقاء التاريخي، بين القائد الجديد وشعبه التوّاق للقادم من الأيام، وانفراج قسماته يعرّي غبطته المندسّة، تلك الغبطة التي تتواشج وشؤم نبوءات خريف العمر، يسرد تفاصيل اللقاء، يشيح بوجهه جانبا وهو يتمتم بصوت خافت:

- نحن كبار السنّ انتهى زماننا، وما بقي من عمرنا شيء، والخير والبركة فيكم وفي أولادكم وأحفادكم يا كولجهان.

دنوت منه، وضعت يدي على كفته، مسحت بأصابعي دمعته التي التمعت

اصفرارا تحت ضوء السراج، المعلّق على الجدار، وبللت لحيته المخضبة بالشيب، إنّها المرّة الأولى التي أفعلها، نعم فرغم قلب أبي الطيب إلا أننا لم نألف الاقتراب منه، وملامسة جسده، كنا نحتفظ بمسافة حين نحادثه، لا شيء يسوغ ذلك سوى طريقة التربية التي سلكنا عليها، لكنّها دون شك لا تشي بالضرورة أننا لا نحبّ أبي، بل قلوبنا تُكِنّ له الحبّ والتقدير. ربّتُّ على كتفه، وقلت ممازحة:

- أبي ما زلت صغيرا، سأبحث لك عن عروس جميلة، تؤنسك في البيت وترعاك، وتقوم على حاجاتك، أنا ومحمد سنتركك ونعود إلى بيتنا، سعيد سيعود بإذن الله، آمل ذلك.

احتضن كفّي، شعرت بذبذات دافئة تسري في روحي، آآآه يا جمال الأبوة، ابتسم قائلا:

- لا يا كولجهان، لا توجد امرأة تعوض شمسة، ولو كان الأمر بيدي للحقتها إلى حيث غادرت، لكن العمر فيه بقية.
- تحبها؟

احمرّت وجنتاه، ثم أردف:

- رحمة الله عليك يا شمسة.

يا الله! أي وفاء هذا الذي تلتحف به يا أبي، أصغي إلى كلماته التي يبرق منها عطر الحبّ، وأبحر بذاكرتي إلى الوراء، ترى لو أصيبت عمّتي شمسة في زمن الرعاية الصحية، التي سيمنحها لنا القائد الجديد، وحكومته المصلحة، هل كانت ستعيش؟ هل ستتعالج وتنتصر على السلّ؟ أم إنّه القدر الذي تستحيل مساومته؟!

وعاد سعيد من قطر، كما عاد بعض شباب الحويرة، الذين قذفهم العوز إلى لجّ الاغتراب، عادوا وهم يمنّون ذواتهم بأيام أجمل، كان ذلك عام 1971م، وأوضاع البلاد ما تزال مشوشة، والسلطان الجديد قابوس بن سعيد بن تيمور يسعى للملمة بقايا الوطن المنهك: فقرا وذعرا وجهلا، على امتداده من الشمال إلى الجنوب، الذي يئنّ تحت صراخ المتمردين. أما العاصمة فقد كانت أشبه بأرض بور، تحتاج إصلاحات كثيرة، وإنعاش جديد، وبنية صلبة، تحتمل التغييرات القادمة، تلك التي ترقبها عيون البسطاء بلهفة قاسية.

عمل سعيد عتّالا في فرضة مسقط، يحمل على ظهره مئات البضائع في اليوم الواحد، ينقلها بمعيّة كثير من العتّالين، من الماشوات إلى سطح الفرضة، حيث يضجّ المكان بعشرات التجار، الذي احتشدوا لتناول بضاعتهم، التي أوصوا بها من الهند غالبا، مطبوعا عليها أسماؤهم، يكدح سعيد كدحا منهكا في يومه، مقابل ريال واحد فقط في اليوم، ولا يعود إلى المصنعة إلا في نهاية الأسبوع، فقد اكترى هو وبعض الرجال مكانا يبيتون فيه في طويان مطرح، كان مكانا مسيّجا، يتوسطه بئر لأحد البلوش، من سكان مطرح، مقابل ريال واحد في الشهر، يفترشون الصناديق الورقية، التي جلبوها من الفرضة، تحت إحدى الأشجار، يلقون عليها أجسادهم المتعبة من فرط الحمل، يريحون أياديهم المتورمة، وظهورهم التي قوستها الأثقال، يفيقون عند الفجر لمواصلة ضنك العمل. كنت أشفق عليه من قسوة الأحمال، لكنه أفضل من الهجرة والتغرّب، والعودة إلينا بين السنتين، والثلاث، كما أنّ الأمل في القائد الجديد، وتحسّن أوضاع البلاد، بعد أن بدأ التصدير التجاري للنفط، الذي سيعود خيره للبلاد والعباد.

الفصل الخامس

يحدث كثيرا أن تعيش تناقضا، مندسّا في أقصى نقطة من روحك، ولا تجرؤ على البوح به، ليس خوفا ممن حولك، بل خوفًا من ذاتك المتربّعة بقوة على جبل الصراع! صراع بين رغبات الأنا ووصايا الأنا الأعلى، هذا الصراع الأبديّ، منذ الخطيئة الأولى في تاريخ البشر، ما يزال ماكثا بيننا، يستنطق شهواتنا، وما تهوى الأنفس، ويجلدها في آن، تمخّضنا دوامته المفترسة، دون رحمة!

كنتُ أقطّع اللحم حين انتبهتُ لخطّ أحمرٍ دقيق، يشقّ طريقه ببطء في راحة يدي، أسرعت بغسله، ثم ضغطت عليه، ولففته بقطعة قماش صغيرة، يا رب، يبدو أنّ التفكير سرقني وأنا أجهز مائدة السعادة، نعم السعادة بتخرج محمد بن سعيد من الثانوية العامة بتفوق، كان ذلك عام 1983م، ذبح أبوه كبشًا سمينًا، ودعا الجيران لمشاركتنا فرحتنا العارمة، كانت سيماء الفرح تتراقص على وجه سعيد، لم أره سعيدا كمثل هذا اليوم:

- كولجهان مبارك لنا هذه الفرحة، أريدك أن تجهّزي «عرسيّة لحم» مع «ترشة» لذيذة، خلينا نفرح بالدكتور محمد.
- سعيد، محمد لن يسافر، تكفيه الثانوية العامة، والأعمال كثيرة، ومتوفرة في البلد، الحمد لله.

اكتفى سعيد حينها بنظرة سادرة، وغادرني؛ ليكمل مراسم بهجته مع أهله وجيرانه، وظللتُ أنا هناك في محراب الرجاء، أحارب حكايات الفراق،

ولوعة البعد، نعم لقد حلمت أن أرى محمدا طبيبا بارعا، يخدم وطنه الحديث، لكنّ الأمر يبدو أشد شقة حين أتخيل أنه سيسافر إلى بلد آخر؛ لإكمال الدراسة، كيف لي أن أصبر على ذلك، إنه محمد يا سعيد، ابني الوحيد الذي خرجت به من رحم الدنيا، ولا ابن لي غيره، سوى ثلاث نطف صغيرة، قذفها رحمي ولم تتجاوز أربعة شهور، أرجو شفاعتها يوم الدين، نعم أجهضت بعد محمد ثلاث مرات متتالية، ولم أحمل بعدها، حاول أبي، ومن ثمّ سعيد أن يعالجوني عند «المطوع»، لكنّي رفضت، ربّما لجرح قديم يؤرقني ذكره، واقتنعت برزق الله لي، كنت أواسي نفسي بأنّ حالي أفضل بكثير ممّن عدم الذرية، ولم أسلم أبدا من همزات الجارات، ولمزاتهن المقصودة:

«كولجهان هل اكتفيتِ بولد واحد؟ ألا تعلمين أنّ الرجال يحبون الذرية والنسل الكثير، سعيد سيتزوج بأخرى، الرجل لا يلام، يريد أولاد...».

«كولجهان كأنك أوقفتِ الإنجاب... ، كولجهان ما زلتِ صغيرة، لم لا تملئين البيت بالأولاد، كولجهان ألا تريدين بنتا تشبهك، تحنّ عليكِ في أرذل العمر...».

كنت أتجاهل عقولهن الفارغة إلا من حفنة اهتمامات، لا تروق لي، ما لكنّ وأحوال الآخرين، دعن الخلق للخالق، تحمّلت ذلك وكابرت لتغافله، شيّدت في نفسي صرحا منيفا من الأمل في محمد، لا سيّما أنّ الحظ حالفه بالسلطان الجديد قابوس بن سعيد، الذي عاهد نفسه على نشر التعليم، ولم يألُ جهدا في ذلك، منذ أعلن كلمته الأولى: «سنُعلّم أبناءنا ولو تحت ظل

شجرة»، والتعليم يجري كنهر دافق، تتسلّل أذرعه المباركة؛ لتنشر الخصب والنماء على كل أرض تصل إليها، درس محمد في مدرسة تبعد مسافة كيلومترين إلا قليلا عن بيتنا، كان ذلك عام 1971م، والمدرسة ليست بمعماريتها الراهنة إطلاقا، كانت أشبه بغرفة مسقوفة، ومحاطة بجريد النخل، وعدد الطلاب لا يتعدّى الثلاثين طالبا فقط، يفترشون التراب، ويحملون دفترا لطّخه الغبار، هكذا هي البدايات دائما، يعوزها صبر وفير، وقوة تحمل عالية، ومع أنّ محمد كان يغمغم متذمرا بين فترة وأخرى، لكني كنت أمتصّ شكواه بكلمات تحفيزية، ثم أحتضنه، وأهمس لقلبه:

- غدا نفخر بالدختر محمد لابس القميص الأبيض، مثل أولئك الدخاترالأجانب، الذين يزورون الحويرة، يطعّمون الأطفال بلقاحات الكوليرا والسلّ والملاريا، ويعالجون المرضى، الدختر محمد لابس سماعة، والكلّ يشير إليه ببنان الإعجاب.

كانت كلماتي تسري في عروقه كالسّحر العجاب، فتنبسط قسماته، وتبرق ابتسامته، ويطير مع خيالاته، ويعدني ألا يشتكي ثانية، لكنّه يعود في كل مرّة لشكواه التي تقطر براءة، اعتدت على عودته من المدرسة، وقد حفلت «قحفيته» البيضاء و«دشداشته» بجيش جرّار من حبات الغبار، وبعد نقعها في الصابون، وغسلها مرارا، نقعد أنا ومحمد على «المنامة « أمدّ رجلي المخضّبة بالحناء، وأقرأ له في كتاب اللغة العربية بعض الجمل، كان ينظر إليّ منبهرا:

- أمي، قراءتك جيدة، لو كنتِ تدرسين ستكونين الأولى علينا جميعا.

يقول كلماته تلك، ثم يطلق ضحكة عالية، تخترق الفضاء، تصافح نجيمات، يتمتمن أنشودة الوجود، ويبعثن سلاسل النور؛ لتطوق أولئك الذين غلبتهم شقوة الانتظار، فسهروا يحدّقون في النجوم؛ علّ إحداها تهمس له بنبوءة ما.

اضغط بالقماش على الجرح، ورغم ذلك فالنزف ما يزال يعاود الظهور، هذه المرّة أخذت فصّا من الثوم، وشطرته نصفين، وفركت باطن شطر الثوم على الجرح، شعرت بحرقان، لكنّه مجدٍ، فقد خفّ النزيف قليلا، دخل سعيد المطبخ ليُعجّلني بالانتهاء من الوجبة:

- هيّا يا كولجهان، الجماعة سيتغدون قبل صلاة الظهر، عجّلي عجّلي.
- أحاول الانتهاء من «الترشة» بسرعة، أقشد البصل والثوم، ثم أضع حبات الزبيب والكبد المقطع قطعا صغيرة، لقد أخذت مني وقتا، رغم مساعدة جارتي أم عبيد زوجة خصيف، التي تعلمت منها الكثير في إعداد الأطباق والمأكولات، لقد علّمتني طريقة عمل «الترشة» و«الخبيصة» و«اللولاة» و«اللقيمات»، زوجة خصيف امرأة طيبة، كانت وما زالت وفيّة، رغم أقاويل الناس عنها*، لكنّي أراها امرأة مكافحة، صبرت على جفوة خصيف، وغلظة تعامله، وربّت أولادها، وصبرت على غربتهم، استشهد ابنها الكبير في حرب ظفار في الجنوب، تلك الثورة التي كرّس السلطان قابوس جهده

* يشاع في الحويرة بأنّ رجالا شوهدوا يتسللون إلى بيتها ليلا في الأيام التي يغيب فيها زوجها عن البيت، إذ كان خصيف يذهب إلى مسكد؛ للتبضع وشراء الخضراوات، ويمكث أياما عند قريب له، لكنّ كلام الناس كثير، ولم يسلم منه أحد حتى الأنبياء.

لإخمادها، وبتر جذور الفتن والفرقة والشّقاق. كان السلطان الحكيم موقنا في قرارة ذاته أنّ الأوطان لا تكبر، ولا تصنع مجدها تحت حرقة الثورات والتحزّبات؛ لذا كان من جُلّ اهتماماته وخططه إنهاء ملف التمرّد، ورغم أنّ السلطان قابوس كما سمعنا قام في مطلع سبتمبر من عام 1970م، أي بعد شهرين فقط من توليه الحكم، بإعلان العفو عن جميع المتمرّدين، وتحقيق مطالبهم، لكن الحلول السلمية لم تجد مع بعضهم، فاستحكم السلطان إلى الحرب، وأعدّ جيشا لاقتلاع ثورتهم عن بكرة أبيها، وقد نجح في ذلك بعد معارك متتالية، شارك فيها أبطال عمان، وانتهت الحرب عام 1975م بظفر السلطان.

ولم يألُ الشباب العماني جهدا في المشاركة ودعم السلطان، وكان من بينهم عبيد بن خصيف، أذكر تلك اللحظات الموجعة، التي وصل فيها خبر استشهاده لأمه، وقع صرخاتها ما زال يخطو في ذاكرتي، ومع كل خطوة يغرس سمًّا، تحلقنا حولها أنا والجارات، كانت تجثو على ركبتيها، وتضرب الأرض بكفيها، التي أكل الشقاء نضارتها، نحيبها اخترق جوف الأرض؛ علّه يصل إلى ذلك المسجّى بين أروقة العتمة، حاولنا تهدئتها بما أسعفتنا به قوتنا في تلك اللحظات، بيد أنّ صوت العجوز كاذية، بثوبها الأسود الطويل، وسنِّها اليتيم، ينفذ إلينا:

- اتركنها، اتركنها، هذه أمّ، وقلب الأمّ ترف، وعبيد بكرها، والله يلوم من يلومها، الضنى غال، اتركنها تفرغ شحنة الوجع، ابكي يا بنتي ابكي، ولا تكتمي في صدرك.

هل صحيح أنّ الابن الأول أو البكر فقده أكثر وجعا من سائر الأبناء، كما تعتقد العجوز كاذية أو كما غرس في وعي المجتمع بأسره؟ أم إنّ قلب الأم حديقة غنّاء تعشق كل زهرة أرسلت عبقها في دهاليزها؟

وصبرت زوجة خصيف كما صبر غيرها ممّن آلمته ويلات الغياب، لكنّها لم تنسه، كانت كلما مرّ عام على ذكره دعت الجارات على تمرٍ وقهوة، وكيلوين موز، وبعض المانجو والجوافة، وحبّات البيذام، كلها أحضرها خصيف من مزرعة أبي، التي ظلّ يكدح فيها، ويعيل أولاده من خيراتها، كانت تقول لهنّ بعين دامعة:

- هذه فاتحة عبيد، كلن، وادعنّ له.

وتنكّس الجارات رؤوسهن حزنا وهنّ يتمتن بالترحّم على عبيد، وقد تبالغ الواحدة منهنّ في تهويل المصاب، ظانّة أنّها بذلك تواسي أمّه، وتبعث نواحا وهي تلتهم حبات التمر، وتشفط القهوة بشرهٍ، وتعيد إلى أمّ عبيد الفنجان دون أن تهزّه:

- يا حبيبي يا عبيد، لم يهنأ بشبابه، ما زال صغيرا.

وتتبعها الأخريات وهنّ يبكين بأصوات عالية، ويقضمن حبات الجوافة بنهمٍ شديد.

مع الأيام يستعيد الفرد منّا عافيته النفسيّة، ويتنفّس هواء الأمل، وهذا ما حصل لأمّ عبيد، وقد يحصل لكل من تجرّع موتًا قريبًا، يغشاه حزن عميق حتى يظنّ ألا مفرّ منه، ولا تنصّل من سطوته، حتى إذا عبرت سحابة الزمن مسحت على قلبه بلسم التغافل، فعاد وانتشى من جديد.

يتهمني سعيد بالتناقض، وأنا والله لست إلا أمًّا تحمل في جوفها صراعا مقيتا، أمٌ تودّ أن ترى فلذة كبدها الوحيد في أعلى المراتب، وفي الوقت نفسه تخشى بُعده، على كل حال محمد متحمّس كثيرا للسّفر والدراسة في الكويت، وإكمال دراسته الجامعية هناك. ذات مساء وفي الليلة التي تسبق سفر محمد، تكوّمت على نفسي دون أن أسند ظهري على الجدار الإسمنتي، المدهون بصبغ مائي باهت، بدا جسدي ككتلة بشرية مرتعشة، التهمها الهمّ، وهوى الصداع بقبضته المؤلمة على رأسي، فلففته بخيط رفيع، قصصته من خرقة بالية، لزمت غرفتي بعد أن أعددت «صالونة العدس» وخبز الرّخال، ووضعتها على «السمّة» في «الليوان»، اقترب منّي محمّد، قبّل جبيني، واحتضن كفّي بحبّ:

- أمّي حبيبتي، ألا تريدين أن تريني طبيبا، تتفاخرين بي بين صاحباتك وجاراتك؟ الدكتور محمد بن سعيد بن محمد يعمل في مستشفى كبير في مسقط، حبيبتي الغالية، سأحاول زيارتكم كل سبع شهور، أعدك بذلك، سأحضر لك أجمل الهدايا من الكويت.

صوت سعيد يقترب منّا:

- أمّ محمد خفّفي من الدلع، وانهضي تعشّي معنا، لقد جعنا، والجوع كافر، لا بدّ أن ينام محمد باكرا، غدا عنده مشوار طويل.

أحيانا نضطرّ لدسّ حرقتنا عنهم؛ حتى لا تخدش سعادتهم، نجاهد النفس ونتقنع ببسمة باهتة، في تلك الليلة عافني النوم، وانسلّ من بين أجفاني الباكية، حاول سعيد أن يخفّف عني، أحاطني بذراعه، وضمّني إلى صدره،

وأخذ يمسح على شعري، وضع يده تحت ذقني، ورفع رأسي، ومسح على خدّي وشفاهي، ثمّ همس في أذني بدفء:

- حبيبتي كولجهان، ألا تودّين أن تري محمد طبيبا، أليست هذه أمنيتك منذ كان صغيرا؟ ألا تذكرين حين كنت تردّدين دائما: الدّختر محمد سيلبس المعطف الأبيض، ويقدم الحويرة، ويحارب الأمراض التي فتكت بأحبائنا زمنا؟ ها قد آن الأوان، محمد بن سعيد سيكون طبيبا، سنفخر به، سنفخر بثمرة حبّنا الوحيدة، لا تكوني بحزنك وبكائك عقبة في سبيل ذلك.

التمعت في عيني كلمته «ثمرّة حبّنا الوحيدة» ترى هل يفكر سعيد بالذريّة، وهل تحنّ ذاته إلى المزيد من الأبناء؟ أيعقل أن يفكر في الارتباط بزوجة ثانية، تغرقه بالبنات والبنين، كما تفوّهت إحدى الجارات مرّة؟ لا، لا أعتقد سعيد يفعل ذلك، حتى وإن فعلها، لايهمّني، ما يهمّني الآن هو محمد، محمّد فقط، أن يعود محمد من الغربة، حاملا شهادته لبلده الفتيّ، الذي ينتظر أمثاله المتعلمين، من أصحاب الخبرة والمعرفة، حينها سأشتغل أنا بالبحث الدؤوب عن زوجة جميلة لمحمد، زوجة كاملة الأوصاف: جمال، ودين، وخلق، وطيبة، وأناقة. فلا يليق بالدكتور محمد إلا ذلك، يااه شعور عجيب يمطر روحي كلما حلمت بذلك، محمد وعروسه الجميلة في ليلة زفاف صاخبة.

حين خرج النور من فم الشروق، وأغدق الحويرة بهاءً، أخرج محمد حقيبته، دسستُ فيها مصحفا وسجادة، ووصّيته بالمحافظة على الصلاة،

وعـدم التهـاون فيهـا، كانـت سـيارة اللاندروفرالقديمـة شـبه المتهالكـة، والمكسـوة بحفنـات الغبـار تنتظرعنـد بـاب البيـت، خـرج منهـا العـمّ حمـاد بملابس مهندمة، لم نعتدها عليه كثيرا، ونادى:

- هيّا يا أبا محمد، أين أنتم؟ تأخّرنا، أخشى أن تفوتكم الطائرة.
- قادمون يا حماد، قادمون.

أسرعت بإحضار رقائق الخبز التي صنعتها لمحمد، ولففتها في صحن صغير، وغطّيتها بقطعة قماش نظيفة، أخذها منّي سعيد على عجالة، وانطلق نحو السيارة، حيث محمد والعم حماد في انتظاره، وغادرت السيارة، تشقّ طريقا ترابيا ممتدا، يتراقص الهباء خلفها، ويختلط بضجيج صبية الحويرة الذين يتبعون السيارة ركضا بأقدامهم الحافية، وحين يشاكسهم الإعياء، ويدركون عجزهم عن اللحاق بها يؤوبون أدراجهم، ويستأنفون لهوهم.

أما أنا فظللت أحدّق في الفضاء، نظراتي معلقة بين الأرض والسماء؛ علّها تصادف غيمة ميمونة فتحملها بين كفيها، وتمطر بها هناك، حيث محمد الآن! فيهدأ روع نبضاتي المتدفقة، وتركد زوبعة الشوق للحبيب الراحل إلى بقعة بعيدة من أرض الله، ثم رفعت كفّي للسّماء، وسكبت غصتي.

الفصل السادس

كانت غبطة الظافر تلاحقني، وأنا أحدّق في كمّ الكراسات المتبقية، بعد أن التهم نصفها قلمي الأحمر، الذي أهدتني إيّاه ماما كولجهان في عيد المعلم، مصحوبا بعطر العود المعتق، وبخور العود المعطر، الذي لم تخلُ غرفتها منه قطّ، أذكر حين سألتها عن سرّ القلم الأحمر، أجابتني بعفوية أنّي أصحّح الكثير من الكراسات؛ لذا فأنا أحتاجه، و«بينفعك» كما تقول، ضحكت يومها، كما لم أضحك من قبل، هل سمعت ماما كولجهان عن الفلسفة النفعية، وجون ديوي ووليام جيمس؟ سألتها وأنا أغرق في تيارات من الضحك المتتابع، أما هي فكعادتها حين أخوض في مسائل كهذه، تلفّ ثوبها الأسود المطرز من الأمام، من جهة الصدر بخيوط فضية لامعة، تعلوها من حول رقبتها شديدة البياض بعناية، وتنصرف عني وهي تتمتم بكلام لا أسمعه، لكني موقنة أنه ممزوج بدفء قلبها الكبير.

ماما كولجهان هذه السيدة السبعينية هي عمة أبي، احتوتني أنا وأخي ماجد منذ أن خطونا على صفحة الحياة، أسدلت علينا بريق الرعاية حين سلب الموت أمي، ورغم أنّ الزمن قد نهش أيام عمرها، فإنّها ما زالت تحرس ملامحها المليحة بعناية فائقة، فما إن تطأ قدمك عتبة غرفتها حتى تستقبلك روائح الياس و«المحلب» و«الصندل»، الذي تدهن به وجهها قبل النوم، وفي الصباح بعد الاستحمام، وتستنشق عبقه في ارتياح، أما الياس فتأخذ حفنة منه، وتمزجه مع قليل من الماء، وتمسح به شعرها، فيغدق عليه رائحة زكية، آآآه ما أشهى

تفاصيلك البسيطة أيتها السيدة العتيقة، تلك التفاصيل المنحوتة بحبّ على جدران غرفتك، علب البخور «الدقة»، المصفوفة على روازن الغرفة، زيّك التقليدي الجميل «الثوب العود» المفروش فوق «المبخرة» المصنوعة من جريد النخيل، ووسط هذا الجمال، تقبع صورة بالأبيض والأسود، مؤطرة بإطار ذهبي، ومطوّقة بورد أبيض، إنها لشاب عشريني على ما يبدو، يمتلك ابتسامة، تجعله نسخة بشرية مكررة من ماما كولجهان، يرتدي دشداشة وقحفية، وكثيرا ما جرّنا فضول الطفولة لمعرفة هويته، لكنها كانت تتحاشى الردّ على أسئلتنا المتهافتة، أو محاولة نبش حكايته، فتلوذ بالصمت أو التشاغل بأشياء أخرى، ومع الأيام أدركنا أنّها لا تحبّ الخوض في سيرته، كما حذّرنا أبي من معاودة السؤال، والانسياق خلف تطفلاتنا، التي لا تروق لها، فلم نعد نسأل عنه، لكن مع تقادم الزمن عرفنا من فتات الأحاديث أنّه ابنها.

حملت باقي الكراسات، ووضعتها في دولابي، فالوقت تأخّر، والسهر مؤذٍ للعين والجسد، كما تصفه ماما كولجهان دائما، وهي تطلق صفارات الإنذار، وتحذّرنا منه، أنا وأخي ماجد بشكل مكرور، وربّما العبارة ذاتها:

- لا تعتادوا السهر، يرهق الجسد والنفس.. السهر مثل المرض، يتغلغل ببطء في الجسد حتى يهلكه، حين كنا في مثل أعماركم، ننام بعد صلاة العشاء.

تقلبت في فراشي طويلا، في محاولة شبه يائسة للظفر بلحظة النوم الهاربة، شعرت كأني صيّاد فاشل، ركب البحر ولم يظفر بسمكة واحدة، حسنا ستبدأ أفكاري المجنونة تهبّ علي الآن بشغفها المتهافت، فكرت عبثا أن أكتب نصا

شعريا، وقبل أن أغادر سريري تساءلت في نفسي: هل الشّاعر من يبحث عن القصيدة؟ أم القصيدة هي من تبحث عن الشاعر؟ وهل يباح للشاعر أن يقرر بدء كتابة نص شعري؟ وهل الشعر قرار؟ أم إنّ الشعراء مغلوبون على أمرهم، وهم رهن شيطانهم، الذين يبعثون لهم بشرارة العبقرية، فتفوح من أقلامهم رائحة الإيقاعات، تتراقص عليها كلمات ومعان، وقوافٍ ومشاعر؟

فكّرت مليّا، وانخرط عقلي في تحليلات ومقاربات وموازنات، حتى كتب النقد الأدبي، التي قرأتها منذ زمن غير قصير، شاركتني جلستي الحوارية البائسة هذه، بعد منتصف الليل، تذكرت قدامة بن جعفر، وكتابه نقد الشعر، وابن طباطبا العلوي وعيار الشعر، كم همت بهذين الكتابين! لقد عايشت آراءهما في الأدب والنقد، والفهم العميق لمفهوم الشعر.

لم يقطع علينا جلستنا النقدية هذه سوى جلبة من الخارج، فتحت نافذتي المطلة على الجهة الخلفية للبيت، ربّما هي بعض القطط المشردة، التي غزت الحويرة بكثرة منذ شهور، ولم يعلم أحد سبب ذلك، مع أنّ جارات ماما كولجهان يؤكدن مرارا وتكرارا، ويبصمن بالعشر – على حد تعبيرهنّ – أنّ تلك القطط السوداء هنّ من سكّان المكان*، يتسكعن بعد منتصف الليل بين بيوت الإنس؛ بحثا عن بقايا العشاء، الذي اعتادت بعض النساء أن تضعه في الخارج؛ ظنا منهن أن الجن لهم نصيب من عشاء أهل البيت، وإن لم تفعل فإن مكروها عظيما سيحلّ بالبيت وأهله، تنصت جارات ماما لهذه الأحاديث بلهفة وشغف كبير، يمازجه شيء من قلق صادق، وكل واحدة تفاخر بأنها تحافظ على سلامة

* سكان المكان، كلمة تستخدم في الحويرة؛ لتدل على عالم الجنّ، دون التصريح بهم، في البدء لم أكن أعلم بها، حتى شرحتها لي ماما كولجهان.

بيتها وأطفالها، وتضع للجنية عشاءً وافرا.

مرّ طيف أحاديثهنّ العفوية على أزقّة ذاكرتي كنسمة باردة، فهؤلاء النسوة كثيرا ما يتراشقن السباب والتّهم، ويصنعن الشائعات، ويشكين لبعضهن سوءات الحياة وهنّ يفترشن الحصير، ويجلسن في «الرايح»، تحت الغافة المحاذية لبيتنا، وقد أحاطت بهنّ كومة من دلل القهوة والفواكه والتمر، فكلّ واحدة منهنّ لا تأتي إلى «الرايح» إلا برفقة قهوتها، التي غالبا ما تكون دلة مملؤة بالقهوة السيلانية اللذيذة، وحفنات من التمر، وأحيانا تصنع إحداهنّ «الكاسترد» أو «العصيدة» يجتمعن حولها، وتجتمع معهنّ الأحاديث الطويلة، هناك تفرغ كل واحدة منهنّ ما شحن به قلبها من هموم الأبناء والأزواج. حين كنت صغيرة كانت ماما كولجهان تمنعني من الجلوس والإنصات، ومشاركتهنّ لأسباب أجهلها إلى الآن، كانت تقول: من العيب أن تجلس البنات مع النساء في «الرايح»، وظلت كلمة عيب تتردّد في أذني، كلما جرّني السأم للجلوس بينهنّ، لا سيّما في الأيام التي تذهب فيها مريم وأخواتها لزيارة جدتهنّ في الرستاق. لكن حين كبرت، وأصبحت في عمر الجامعة، لم تعد ماما كولجهان تنعت جلوسي بينهنّ أو على مقربة منهنّ بالعيب، ولا أعرف السبب، ولا أريد أن أعرف بقدر ما كنت أتوق لحكاياهنّ، وأتعاطف مع مواقفهنّ وصبرهنّ على ضنك الحياة.

ورغم ذلك كله فإنّ ليونة قلوبهنّ وطهرها لا تخفى على أحد، فهنّ لا يتقنّ الكراهية، ولا يلتمسن إلى وكرها سبيلا، يربض الحبّ في أرواحهنّ، ويلتمع في المواقف والشدائد، هكذا عهدتهنّ منذ صغري، حين كانت جارتنا خديجة أم مريم تخبز «الرخال» اللذيذ، وترسله إلينا حين تمرض ماما كولجهان، وتعجز عن الخبز، فتتلقّفه بشغف شديد، ونحن نمازح ماما، قائلين: «خبز خالوه خديجة

ألذّ عن خبزك»، فكانت تردّ علينا بمزحة بمثلها: «طيّب، عسى خالتكم خديجة كلّ يوم تخبز لكم «رخال»، وأنا ارتاح من كسرة الظهر».

أغلقت النافذة، وقرّرت أن أعود للنوم، لكنّ الصوت يعود للغمغمة ثانية، نعم لقد عرفته، إنّه هو نعم، ماجد مرّة أخرى!! أسرعت حاسرة الرأس، فتحت باب غرفتي، وهرولت إليه، كان يقترب من الباب الرئيس، أمسكته من يده، كانت حدقتاه متّسعتين، ونظراته تهيم في اللاشي، نظرات بيضاء خاوية من أي تعبير، أخذته بتؤدة إلى غرفته، أجلسته على سريره، ليكمل نومه، ومع أنّ الطبيب قد أكّد أنّ علينا إيقاظه، حتى لا يعود لسرنمته ثانية إلا أنّي كنت أتجنّب ذلك؛ خشية صراخه، وسماع أنّات وجعه، وهمهماته العجيبة.

دثّرته ببطانية من الصوف، ثم أطفأت الأنوار، وخرجت.

وما إن خرجت من غرفة ماجد حتى وقع بصري عليها، كانت تفترش أرضية السيراميك الباردة، وقد مدّت رجليها النحيلتين، وأسندت ظهرها، الذي أهلكته العثرات على الجدار، تحارب دفع شعور القهر، الذي غشيها بالبكاء، اقتربتُ منها، احتضنت يديها المعروقتين، بادرتني بالسؤال بصوت محروق:

- حياة، الدختر أخبرنا أنه سيشفى من هذه الحالة حين يكبر، لكنّي أراها ما زالت تراوده، لقد أصبح رجلا، هو ابن عشرين عاما الآن، وربّما أكثر.
- لا تقلقي يا ماما، الحمد لله ماجد الآن أفضل بكثير، فبين أن تعاوده السرنمة بشكل شبه يومي، وبين أن تعاوده مرّة في الشهر فرق كبير، وتحسّن ملحوظ.

نكّست رأسها، ورحلت بفكرها بعيدا وهي تطلب دفء دموعها، وحين رفعته رمقتني بنظرة خاطفة، سرعان ما سحبتها بعيدا؛ خشية أن ألحظها، أعرف

بماذا تفكرين، أعرف أنّ دموعك لا تنعي ماجد فقط، إنّها تسحّ لأجلي أيضا، لأجل حياة يا ماما، لكنّ حياة عرفت كل شيء، ولا جدوى من دسّ سرّكم عنها، هي الآن تعرف كل شيء، عرفته وغرقت في ألمها شهورا طويلة، وحين استعادت بسمتها كانت قد كبرت أعواما وأعواما.

أضع يدي تحت ذقنها، وأرفع رأسها، أبتسم لها بحبّ:

- ماما كولجهان بنت مسعود لا تنكّس رأسها، عرفناها تواجه الضيم والوجع بنفس قوية وصابرة.

لم تنبس بكلمة، اجترّت نفسا عميقا، وأشاحت بوجهها، هل كانت تلتقط شرذمات زمن ولّى، وأبى أن يغادر ذاكرتها، أم كانت تنحت قادم الأيام بعين متهيّبة، ومتأهبة للذود عن آمالها فينا.

- لا شيء يظل على حاله، ولن أموت من الجوع، الله يحفظ المحسنين، وأصحاب الأيادي الخيرة.

هكذا أنهت الخالة زعيمة شكواها من ابنها وزوجته، الخالة زعيمة جارة قديمة، وإحدى رفيقات الأيّام عند ماما كولجهان، رزقت بابنة زوّجتها في السيب، وابن يعيش معها في بيتها، حين تلتقي بالجارات في رايح الغافة، تجد في نفسها فسحة التنفيس عن وجعها من معاملة ابنها وزوجته، فقد قطع الضمان الاجتماعي عنها راتبها، الذي تعتاش به، بحجة أنّ ابنها يعمل، وتلزمه مسؤولية احتياجاتها، لكن ابنها كان مقترا عليها، ونادرا ما مدّ يده -على حد تعبيرها- بريال واحد، كنت أرقب مراسيل الكسر من عينيها، هي لا تخشى الجوع والحاجة، بقدر ما قتلها العقوق، وعذّب مهجتها، وهي أمّ، ربّت وتعبت وكافحت، وتنتظر، نعم تنتظر البر والإحسان، ولا تجد من تبثّه غصّة الانتظار سوى رفيقات الغافة،

وجارات الأيام.

أما الخالة أم عبيد، وزوجة العود خصيف، ففي كل مرّة تحنّ على ابنها الراحل، الذي استشهد في حرب ظفار، كما علمت، وتصرّ على تسميتها أم عبيد، رغم مرور زمن على فقده، ورغم كثرة الأولاد والأحفاد حولها، لكنّ قلبها ما زال هناك، معلقا في روح عبيد المغادرة منذ سنوات طويلة، وطالما كانت تخطو إلى مقبرة الحويرة، وتتقرفص باكية داعية أمام قبره، وترشّ عليه ماءً باردا قبل أن تغادره، وكم نهتها ماما كولجهان عن زيارة المقابر، وأخبرتها أنّ المرأة معنا منهية عن زيارة القبور، لكنّها ظلت على حالها هذا زمنا طويلا.

وتحت الغافة أيضا، تستظل الخالة خديجة، وتمتصّ من قوة الغافة قوة تعينها على تحمل زوجها أبو مريم، الذي ألقى على كاهلها الأنثوي الترف مسؤولية أربع بنات، وذهب للجهاد والدعوة في سبيل الله، كما يدّعي.

أما ماما كولجهان فتصمت حين تبث جاراتها حكاياهن، ولا تحكي عن الشاب العشريني، صاحب الصورة شيئا، ربّما لتشاغلها برتق ذلك الشرخ، الذي صنعه الحرمان والفقد في قلوب الجارات، أو ربّما لا تودّ الغوص في حديث يخصه، وإذا حكت عن أوجاعها، فتحكي عن ماجد وحالة السرنمة، التي ابتلي بها.

امرأة واحدة من بين نساء الغافة هؤلاء كانت مختلفة -على الأقل في نظري- إنّها الخالة ليلى، هذه المرأة كثيرا ما تبثّ شكواها عن زوجها البخيل، الذي تنعته بـ«الحافي»، لكنّها شكوى ممزوجة بضحكات مجلجلة، فلا تكاد تكمل جملة واحدة حتى تسمع قهقهتها، كنت أقول في نفسي إنها

ربّما قهقهة القهر، لكني مع الوقت أدركت أنّ هذه المرأة الغريبة تمتلك قوة خفية، تمكنها من تجاوز كل شيء بالضحك، والتزيّن المستمر، فالخالة ليلى لا تأتي إلى الغافة إلا وقد وضعت أحمر شفاه، بألوان فاقعة، وكحلت عينيها بكحل «الكاجل الهاشمي» وزيّنت معصمها بأساور عديدة من الحلي الصناعي (النورجول)، قد يبدو مظهرها مثيرا للسخرية عند البعض، لكنّها تاجرة معروفة في الحويرة، وتاجرة ذكية كذلك، جرّها تقتير زوجها إلى الاعتماد على ذاتها، فتاجرت في كل شيء، ففي نهاية الأسبوع تستأجر مع بعض تاجرات المصنعة حافلة بسائقها إلى السوق الإيراني في الفجيرة، وتجلب من هناك مختلف أنواع البضائع، الملابس الجاهزة، والأقمشة، وأدوات المطبخ، وكل ما تستلذّه النساء، وفي اليوم الذي يعقب وصول البضاعة تكتظّ الغافة بنساء الحويرة، القادمات للتبضع من سلع الخالة ليلى، التي داست على نتوءات الحاجة والحرمان، فكانت أكبر من أن تعتمد على رجل، كما كانت تردّد دائما: «ما لي حاجة به، أنا عن مائة رجل» فتردّ عليها ماما كولجهان غاضبة:

- استغفري ربك يا ليلوه، المرأة ما لها غنى عن الرجل، سند وظهر.

فترد وهي تكركر:

- ذلك حين يكون رجلا يا كولجهان، وليس...

وتتابع ضحكاتها، غير آبهة بنظرات ماما والجارات، ولا بأحد من الحاضرات.

الفصل السابع

تسند كلانا ظهرها على شريط الكراسي الحديدية المثقوبة، والممتدة على بلاط أبيض بارد، ألتفتُ إلى مريم، كانت أجفانها تجاهد نعاسا مشاكسا، يترنّح رأسها كأرجوحة مهترئة، كلّ هذا بسبب جلسات السهر والحكايات مع جارات الغرف في الأجنحة، والوحدة السكنية في سكن الجامعة، مريم شخصية محبوبة واجتماعية، تملك كاريزما مثيرة، حين تأخذ بسرد الأحداث والقصص يلتفّ الجميع حولها، في حلقة متراصّة، تتابعها الأعين دون توقف، صوتها الذي تتخلله جهورية ملفتة، أسلوبها المنكّه بمذاق الفكاهة، سمرتها الخفيفة الجذّابة، وفوق ذلك كلّه تفاصليها البارزة، وخصرها البيّن، وأنوثتها المحلّقة، كلّ ذلك جعلها شخصية مثيرة للإعجاب بين بنات السكن، كانت ضحكاتهنّ وحكاياهنّ تتناهى إلى سمعي، وأنا في غرفتي، تبذر على قلبي فتات الغيرة، لا أدري لِمَ أنوء بنفسي عن تلك الجمعات رغم محاولات مريم المتكرّرة لزجّي فيها؟ كنت أتسلّل بجسدي مع بدء كل جلسة وجمعة، أهرب بنتوءاتي الصغيرة، لا طاقة لي بتحمل همساتهن الموجعة، سئمت من إنزال غطاء الرأس الفضفاض على صدري، وتجرّع المزيد من اللمز، تتبعني مريم، وتأخذ في صفّ قائمة مكرورة، ومملّة من وصفات «تطوير الذات، وكتب التنمية البشرية» التي يكتظّ بها عقل مريم وغرفتها، لا بأس، سأكون بخير، هكذا ينتهي حوارنا دائما:

- حياة، لا بدّ أن تواجهي الواقع، وتتحدي مشكلتك.
- لا أستطيع، لا أتحمل الهمز واللمز، ألم تسمعي إحداهنّ مرّة تقول: لِمَ

جسمها هكذا كجسم البنات الصغيرات، خالٍ من دلائل الأنوثة؟ أليست أنثى؟

- لا، لم أسمع، أنت تهلوسين، هذه أصوات أفكارك فقط، حين ينقصنا أمر، نظنّ أنّ الآخرين يلمزوننا به، وهي محضُ تهيؤات.
- إذن أنا ناقصة يا مريم، أهكذا تنظرين إليّ؟
- لم أقل إنّك ناقصة، أنت من زرع هذه الفكرة في عقلك وصدّقتها، ثمّ إنّنا مجبولون على النقص، ألسنا بشرا؟

أعدّل جلستي، وأستشعر برودة الكرسي، نحن في ديسمبر، ومع ذلك فأجهزة التكييف في المستشفيات ما تزال تمارس طغيانها، وتغرقنا في لجّ صقيعها، أفواج متعاقبة من المارّة تسبح أمامي، رجل مسنّ يتكئ على عصاه بيد، ويمسك بشاب في مقتبل العمر بيده الأخرى، امرأة في العقد الرابع أو الخامس من عمرها، تجلس على كرسي متحرك، ترتدي (يونيفورم) ورديًّا، تتخلّله خطوط بيضاء دقيقة، جاءت من قسم التنويم لإجراء الأشعة، وامرأة مسنّة ترقد على سرير متحرك، ترافقها سيّدة شابّة تهمس في أذنها بين فترة وأخرى، وتعيد رفع الغطاء على جسدها حتى لا توجعها لسعات البرودة، تمتدّ يدها لإخفاء بضع شعيرات بيضاء منسلّة من رأس العجوز، ربّما هي من طلبت منها ذلك. أدرك مدى حرصهنّ على الستر، حتى وهنّ يكابدن أضعف حالاتهنّ الإنسانية، لمست ذلك عند ماما كولجهان، حين أصيبت بحصى المرارة، ذلك الألم القاتل الذي يصنف عالميا من أشد أنواع الألم بعد آلام المخاض، إلا أنّها وفي غمرة الألم تشدّ على يدي، وتقول:

- حياة، أسدلي غطاء رأسي، حياة، استري قدميّ، أشعر بتعرّيهما.

يقطع شرودي صوت الممرضة الفلبينية وهي تنادي بعربية مصطنعة:

- هياة همد سالم... هياة همد سالم.
- نعم موجودة.

لكزت مريم التي أخذتها سِنة، وتبعنا الممرضة، دخلنا غرفة التصوير بالرّنين المغناطيسي، طلب إليّ أن أغير ملابسي وأرتدي ملابس أخرى خاصة بعمل الأشعة، كرّرت الممرضة على مسامعي أن أتخلّص من أي شيء معدنيّ أرتديه. دخلت بمفردي في غرفة داخلية، تحتوي جهازا دائريا ضخما، متصلا بسرير، وتقابله غرفة تحكم لأخصائي الأشعة، استلقيت على السرير بناء على أوامر الأخصائي. حين تحرّك السرير، ودخل في منتصف الدائرة شعرت بوحشة، كأنّي قد ألقي بي في قبر أو حفرة موحشة، ورغم سدّادات الأذن التي أرتديتها فإنّ صوتا عاليا مزعجا ما يزال يخنقني، كان أشبه بصوت مطرقة تضرب بشكل متوالٍ. استمرّ الفحص ما يقرب من نصف ساعة، لا يمكن وصف راحتي حين أخبرني الأخصائي أنّ التصوير انتهى، أسرعت إلى غرفة تغيير الملابس يصاحبني غثيان مزعج ودوار بسيط، ومن فرحة الإفراج غفلت عن سؤالهم عن موعد النتيجة، فعدت مرّة أخرى. أخبروني أنّي لا بدّ أن أحجز موعدا مع الطبيبة حتى تشرح لي نتيجة التصوير.

كان لقائي الأول مع طبيبة أمراض النساء قبل شهر ونيّف، وما تزال لحيظات الرعب التي غشيتني آنذاك تعوم على سطح الذاكرة، أمسكت مريم كفّي بقوة محاولة درء الرجفة التي ألمّت بي حينها، وهمست في قلبي:

- اذكري الله يا حياة، عسى أن يكون خيرا، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.
- أشعر بالخوف يا مريم.
- توكلي على الله.

لمحت الطبيبة حالة الهلع التي انتابتني، فعمدت إلى تلطيف الجو:

- من الواضح أنّكما من طالبات الجامعة، كيف الاستعداد للاختبارات؟

سكتت مريم وهي تنظر إليّ، وتستحثّني أن أبادر بالحديث؛ علّه يفكّ عقدة التردّد وتنحلّ، وأشرع في بثّ شكواي. حاولت التَّماسك، سبحت في عوالم الشتات التي تمرّغت في التواءاتها، وعصا الشك والريبة والسخرية، التي ذقت صفعاتها، لم أشعر إلا والدموع تنساب، والكلام يتبع الكلام، تخبرني مريم أنّ الطبيبة كانت تصغي إليّ باهتمام كبير، حتى إنّها بعد المقابلة أصرّت على عمل تصوير مغناطيسي للرحم:

- اسمعيني يا حياة، حاليا ليس معي نتائج الأشعة التي أجريتها في مستشفى الرستاق من قبل، لكنّي سأقطع الشكّ باليقين، وأعمل لكِ أشعة رنين مغناطيسي للرحم، وإن شاء الله خير.

يااااه يا دكتورة هاجر، كلماتك وأسلوبك جعلني أشعر بارتياح عجيب، وددت لو يرافقني العمر كله.

في الحقيقة أنا لم أخبر الطبيبة بكل شيء، لم أخبرها عن صمودي عند مرافئ الألم، تحمّلت كل صنوف التهكّم وهراء لصوص الخصوصيات، ماما كولجهان مثلها مثل كلّ الأمهات، تودّ أن ترى علامات بلوغ ابنتها، تودّ أن تشعر بحلاوة إحساس الأم وهي ترى ابنتها وقد دخلت عالم النساء، وودّعت خربشات

الطفولة وعفويتها، كانت تنتظر، تنتظر أن أخبرها وعلامات القلق تأكلني، أنّ دما يسيل منّي، كنت أرى ذلك في نظرات عينيها، ولم تسألني إلا بعد أن أكملت الخامسة عشرة من عمري:

- ابنتي حياة، ألم تنزل الدورة الشهرية؟
- لا.
- غريب، لقد أكملتِ خمس عشرة سنة.
- لا أعرف ماه، كل بنات الصفّ في المدرسة...
- حبيبتي حياة، لا تضايقي، ربّما بعض البنات بلوغهنّ يتأخر، وأنت بلوغك متأخر، إن شاء الله كم شهر وتصبحين في عداد النساء.

وتمرّ الشهور، وأنا أسلّي نفسي بكلمات ماما كولجهان «أنت بلوغك متأخر»، لكنّ العمر يجري، وحين دخلت المرحلة الثانوية بدا الموضوع أكثر تعقيدا، وأكثر وجعا أيضا، دخلت تفاصيله منطقة أكثر قتامة وضبابية، زميلاتي في الصفّ لا يتوانين عن طرح الأسئلة، ومدّ ألسنة الفضول:

«حياة، لمَ لا تأتيك الدورة الشهرية؟».

«حياة نحن كلّنا نحيض، أنت لستِ طبيعية، لستِ كسائر البنات، اذهبي إلى المستشفى، اعملي فحوصات وكشف، سمعنا البنت التي لا تحيض لا تنجب، لن يكون معك أولاد في المستقبل».

«أنتِ محظوظة يا حياة، أتعلمين أنّ آلامها قوية وحادّة، لقد أراحكِ الله منها».

«حياة، ربّما لن تتزوجي».

«حياة، سمعنا ستظهر عليك علامات الشيخوخة مبكرا».

كنت أستمع إلى كل ذلك، وأتجرّع الصّمت في كلّ مرّة، ثم أعود إلى البيت، وأغلق على نفسي باب غرفتي، وآخذ في البكاء.

حتى ماما كولجهان تسلّل الخوف إليها من ذلك، فأخبرت أبي، فأصرّ على أخذي للمجمع الصحيّ في الولاية، وكتبت لي الطبيبة أدوية (ميدروكسي بروجسترون) لإنزالها، وهو هرمون بروجيسترون صناعي، يعزّز هرمون البروجيسترون الطبيعي الذي يتمّ إنتاجه في الجسم بشكل طبيعي بعد التبويض، ومع أنّي ثابرت عليه، وأخذته في موعده إلا أنّ النتيجة واحدة، كنت أعتقد أنّ مشاكلي حُلّت مع هذا الهرمون، وأعددتُ ما تعده البنات لاستقبالها، أردت أن أشعر بما تشعر به أيّ فتاة طبيعية، لكنّ النتيجة جاءت مخيّبة للرغبات، ثلاثة شهور وأنا أحلم بلحظة نزولها، لكن للأسف، لا جديد تحت الشّمس، كنت أهرب من سؤال ماما كولجهان في كل مرّة؛ لعلّ الأحوال تتغير، لكنّي ذات يأس أسقط في يديّ، وارتميت في أحضانها، لم أفق إلا في الصباح، وأنا ممدّدة على سريري، أشطح في خيالاتي البائسة، وأصارع آلاما في عظامي وعضلاتي، التفتُّ إلى صينية الفطور الموضوعة إلى جانبي بحبّ، والزاخرة بشتّى أصناف الأطباق، أيّ قلب ذاك الذي يعمر جوفك أيّتها السيّدة الفاضلة، والأمّ الرؤوم؟!

حاول أبي وماما كولجهان غلق ملف الموضوع حين دخلت الصف الثاني عشر، حتى أركّز على الدراسة والمذاكرة. هذه المرحلة في مجتمعنا وأغلب المجتمعات العربية هي مرحلة الضغط النفسي بامتياز، تشعر كأنّك تخوض معركة شرسة، تضعك عيون الفضوليين تحت عدسة مكبّرة، وحين

تظهر نتيجتك يتواصل معك الجميع، حتّى الذي قطع صلته بك منذ فترة طويلة، يتّصل بك بغتة، ويطرح السؤال الوارد كثيرا، بلغة تطفلية:

- كم نسبة ابنتكم في الثانوية العامة؟

هذا كله لم يكن يسترعي اهتمامي، نعم عشت ضغطا نفسيا؛ لأنّ درجة طموحي عالية جدا، ووددت أن أدخل السعادة في قلب عائلتي، لا سيّما ماما كولجهان، التي رافقتني عنايتها منذ مراحل تعليمي الأولى، لذا تناسيت مشاكلي، وغصت بين الكتب وأوراق الاختبارات السابقة، والملخصات والمذكرات، والتواءات السهر والأرق، كان متعبا فعلا، إلا أنّ الأماني تستحقّ ذلك دون شكّ، وبحمد الله حصلت على نسبة عالية، وانضممت إلى جامعة السلطان قابوس، كلية التربية، الكلية التي ندخلها ونحن مغمضو العينين؛ لأنّ وظيفتها مضمونة.

رائحة الجامعة، وصخب الدراسة، وفرحة تسليم البحوث، وإنهاء الاختبارات، وضحكات الزميلات، حديقة البطّ، والفير، ومؤسسة الاثنين، ومقهى الكلية، وشغف القراءة والتهام الكتب في أروقة المكتبة الرئيسة، والابتهاج في حضرة المساحات الخضراء مع برج الجامعة، وتناول الشطائر اللذيذة، وبسط المواقف الظريفة مع الأساتذة والزميلات والزملاء، ترافقها ضحكات بريئة، كلّ هذه الأشياء كان من شأنها أن ترخي على قلوبنا بعض السعد.

لكنّها رغم كل شيء لم تنسِ قلبي همّه الأكبر، وظللت أنوح من الداخل، أنزف حين أرى جسدي كجسد ابنة الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، أو ربما أقرب لأجساد الذكور، وحين أشاهد البنات في الجمعية

الاستهلاكية وهن يضفن الفوط الصحية إلى قائمة مشترياتهن، كلّ ذلك من شأنه أن يحدث في نفسي شرخا موجعا.

حتى اقترحت عليّ مريم، رفيقة الطفولة والصبا والجامعة، أن نذهب لمستشفى الجامعة، وأعرض مشكلتي، في البدء تردّدت كثيرا، وخالجني الفزع، أخذت أهرب من فكرتها تلك في كلّ مرّة تعرضها عليّ، ألوذ بالصّمت أحيانا، والتشاغل بالاختبارات وضغط المحاضرات والتكليفات، وضيق الوقت أحيانا أخرى، حتّى صرخت في وجهي مرّة:

- إلى متى ستظلين حبيسة في كهوف الخوف والقلق؟ واجهي مشكلتك عوضا عن الهروب منّها في كلّ مرّة، إنّ تجاهل المشكلة، ومحاولة دفنها، لن يحلّها أبدا، بل سيوفّر لها تربة خصبة تتغذّى عليها، فتنمو ويشتد عودها، يقول محمد الغزالي: «والنّاس من خوف الفقر في فقر، ومن خوف الذلّ في ذلّ»، فرهبة المواجهة لا تذر إلا الهمّ.

أقف مبهوتة من تعلّق هذه «المريم» بكتب «التنمية البشرية»، والغريب أنّها تحفظ عباراتهم التي يستشهدون بها عن ظهر قلب، أو ينسخونها من بعضهم، أو من كتب مترجمة.

جعلتني كلماتها تلك غارقة في الهواجس لأيام عديدة، حتى استجمعت قواي، وتنفّست بعض البأس، واتخذت قراري.

أتسلم ورقة من السجلات، تحدّد فيها موعد نتائج تصوير الرّنين المغناطيسي الذي أجريته، وهو الموعد مع الطبيبة هاجر، التاريخ سيكون بعد شهر تقريبا من الآن.

***

السعادة كائن عجيب، يتوشح بالكبرياء، ويمتطي غيمة سماوية عابرة، عليك أن تقتنصه قبل أن يهرب منك، عليك أن تقتفي أثر تلابيبه المتدلية باشتهاء، أن تتبع نفحاته بنفسك، هو لن يأتيك إذا لم تكلّف نفسك عناء البحث عنه، وحين تبحث لا تنسَ أن تبدأ من أعماقك، هناك في تلك الأغوار الأسطورية، قد تجد شيئا من السّعد ينثر بتلاته على روحك.

هكذا كانت مريم، أو هكذا أحسبها، تفتِّش عن السعادة في كل شيء، بدءا من تفاصيلها الجميلة: عينيها العسليتين، وشعرها المنساب الطويل، وروحها المرحة. رغم حياة العوز والفاقة التي عاشتها هي وأخواتها فإنها مبتسمة، تنقّب عن الأمل في الزوايا المعتمة، مريم هي الابنة البكر لخالتي خديجة، جارتنا منذ سنوات، والأخت الأكبر لأربع أخوات، مريم وأخواتها يستمتعن ببساطتهنّ، ينمن معا على «دواشق» تناثر على قماشها النّمش، وهزلت حشوة قطنهنّ من طول العهد، يتقاسمن غرفة واحدة، ضيّقة المساحة، لكنّها تتسع بسعة قلوبهنّ، قضيت أيام عمري معهنّ، أذكر حين كنت صغيرة أبكي لأجل المبيت معهنّ؛ لنسهر معا، ونحكي ونلعب ونلهو، فتغضب ماما كولجهان، وترفض قائلة:

– النّاس حالتهم صعبة، وظروفهم قاسية، وأنتِ تريدين المبيت بين بناتهم؟

لم أكن مدركة ما تعنيه ماما بـ«حالتهم صعبة»، لكنّي مع الأيام بدأت أستوعب ما لم أستوعبه في صغري، تحمّلت خالتي خديجة مسؤولية البيت والبنات، واحتياجاتهنّ بنفسها، وما أكثر احتياجات البنات! تحمّلت هذه السيدة ما يعجز عن تحمّله أعتى الرجال، ويكفيها صبرا على زوج لا يدرك معنى الأسرة والشراكة في تكوينها، نعم هكذا كان أبو مريم، قليل المكوث بين زوجته وبناته،

يرحل ويهجرهنّ بالشهور، كان يتبع جماعة «أهل الدعوة»، وهم جمع من المتدينين يرتحلون من ولاية إلى أخرى، ومن محافظة إلى محافظة أخرى، يبيتون في المساجد، ويهدفون -كما يقولون- إلى نشر الوعي الديني في المجتمع، وتعريف الناس بمبادئ الدين، وأصول العبادة، وغيرها، في ظاهر الحكاية يبدو هذا العمل نبيلا جدا، لكنّه في الخفاء، وما أدراك ما الخفاء؟! يحبس غصّة أسر ملتاعة، زوجة وبنات، يعوزهنّ المال قبل كل شيء، عائلة تحتاج الطعام والشراب، كأقل حقّ من حقوقهنّ عليه، طبعا هذا بصرف النظر عن الاحتياجات الأخرى، كحقوق الزوجة من رعاية وحبّ ومعاشرة، وحقوق البنات من عناية، والتفات إلى مطالب الأيّام، فالبنت حين تتسلق شجرة الأنوثة تنمو احتياجاتها، لكنّ ذلك كلّه لم يحرّك شيئا في نفس ذلك الأب الغارق في قناعاته البائسة، أعتقد أنّ أمثاله لا يملكون الفهم العميق للإسلام، الإسلام دين الإنسان، بضعفه ورغباته واحتياجاته قبل أي شيء آخر.

كثيرة هي المرّات التي تطرق فيها خالتي خديجة باب بيتنا وهي تجرّ أذيال الدمع، ترتمي في أحضان ماما كولجهان، وتسكب شكواها، هي لا تفعل ذلك إلا حين يبلغ السيل الزبى، ويختنق القلب بما يحبس، كانت ماما تبكي معها، تشاركها الدمع؛ حتى يستلّ بعض مرارتها، وبين فترة وأخرى تدسّ في جيب دشداشتها بضع ريالات من راتب الضمان بعد وفاة زوجها «العود سعيد»، كانت سندا حقا لجارتها المبتلاة.

حتى مريم التي قضيت معها عمرا طويلا تعقد مع قلبها قران الكتمان، ولا تحكي أي شيء من الممكن أن يعرض والدها للإساءة، لا أدري لماذا؟ لكن

صدقت العجفاء بنت علقة السعدي، حين قالت كلمتها، التي خطّها الزمن بماء الخلد: «كل فتاة بأبيها معجبة».

وأنا كذلك، كنت أتحاشى ذكر الموضوع أمامها خشية خدش شعورها، فمريم لا تستحق سوى طيب الكلام، ونعومة المعشر، وهي أخت عزيزة، لا أودّ الخوض في خصوصيات، حصّنتها هي نفسها بالصمت والكتمان.

ولا ألوم ماجد في شغفه بها، رغم أنّها تكبره بعامين، يبدو أنّ الحبّ الذي لم أعرفه ولم يعرفني بعد لا يعترف بالسنوات، ينصهر فارق العمر بين صهيد أنّاته، كنت أرقب عينيهما، ضحكاتهما التي حين تتلاقى يبسم الكون، شعور يستدعي الغبطة، أذكر حين كان ماجد يأخذنا إلى الجامعة في سيارته، وعيناه تتنقّلان بين الطريق والمرآة الأمامية يسترق النّظر من خلالها إلى مريم، الجالسة بحياء في المقعد الخلفي، وحين يوصلنا إلى مجمع خمسة في السكن الجامعي، كان يختم نظرات العشق تلك بعبارة يكرّرها في كلّ مرّة:

- إذا احتجتما أيّ شيء، تواصلا معي، أنا في الخدمة.

يقولها وعيناه لا تغادران عينيّ مريم، التي تنكّس رأسها حياء، وتتشاغل بهاتفها أو بحقيبة يدها، حتى أتدخّل لإنقاذ موقف مريم، الغارقة في حلاوة الخجل، وأردّ على ماجد:

- حسنا ماجد، اذهب الآن، وإذا احتجنا شيئا سنخبرك.

الآن مرّ وقت طويل على تلك الأيام، أنا ومريم تخرّجنا، وتمّ تعييننا في أودية تبعد عن الولاية ما يقرب سبعين كيلو مترا، لكن في مدرستين مختلفتين، وماجد ما يزال يجاهد في كلية الهندسة.

تحمّلنا النهوض قبل الفجر، وروائح الغبار التي يستقبلنا بها شارع الوادي الترابي الذي توظفنا فيه، تحمّلنا تلك السنتين، حتى وافتنا رحمة النقل إلى مدارسنا الحالية في المصنعة.

من اليوم الذي توظّفت فيه مريم وماجد لا يكفّ عن التفكير؛ خشية أن تضيع من بين يديه، رغم أنّهما يتواصلان برسائل (الواتس آب)، إلا أنّه كان يخشى أن يفرض عليها والدها الزواج، وكانت تطمئنه في كل مرّة:

- ماجد أنا أريدك، وسأنتظرك، لكن لا بدّ أن تبذل جهدا مضاعفا حتى تتخرج.

لكنّ هاجس الفقد كان يعتصره، وقد كلّم ماما كولجهان غير مرّة أن تحجزها له، وردّها كان واحدا في كلّ مرّة:

- حبيبي ماجد، لا أقدر أن أتكلّم وأخطب إلا بعد أن تتخرّج وتعمل.
- -باقي سنة وأتخرج إن شاء الله.
- والوظيفة؟ انتظر إلى أن تجد وظيفة، لا يعقل أن تتقدم لبنت الناس وأنت بلا عمل.

ورغم حبّي لماجد ومريم، ورغبتي القلبية لهما بالارتباط، لكنّي كنت في كلّ مرّة، ومن باب الدعابة أعلّق على ماجد:

- ماجد، أنت أولا خفّف من حالات النهوض في منتصف الليل، والمشي وأنت نائم مثل المجانين، ماما كولجهان لا تتضايقي إذا ماجد جاءته السرنمة، ربّما يذهب بيت خالتي خديجة يفتّش عن مريم.

ضحكنا جميعا، لكنّ ماجد اكتفى برسم ابتسامة قلقة على محيّاه، تلتها

كلمات أمي:

- ماجد حبيبي، أنت زين الشباب، وإذا لك نصيب في مريم ستتزوجها.
- وإذا ما لي نصيب، أرجوك ماما كولجهان لا تقولي إذا، تخيفني هذه اللفظة.
- ولدي ماجد، الحياة أعطت كلا منّا نصيبه ورزقه، ولن يفقد الإنسان رزقا له، كما لن يحصل على رزق ونصيب ليس له، وهذا ينسحب على كل شيء، ليس المال فقط، بل المال والزواج، والذرية، حتى الأخلاق نصيب ورزق.

هزّ حديث ماما عن النصيب وجعي، الذي أجاهد كل يوم وساعة ودقيقة وثانية ولحظة لدفنه في أعماق الغفلة، أو سحقه فتاتا تذهب به الريح، حاولت كثيرا أن أشغل نفسي، وما أزال على هذا النهج، أشتغل بالشعر والخواطر والرواية والموسيقى والقراءة، نعم القراءة وحدها كانت تسلّي الروح، وتربأ بها إلى تناسي ما يؤرقها، ولا أقول نسيانه، لكنّها السفر بعيدا، خارج أسيجة الزمان والمكان، قرأت لأدباء كثر، لأدونيس، وهِمْتُ في تمرّد الصورة بين ثنايا حروفه، قرأت لعبد الرحمن منيف، وتنقّلت بين وهم الصحراء وجنون السجون، غصتُ بين شخوص روايات نجيب محفوظ، وروائح الحكايات المنبعثة من أزقّة القاهرة، أعطتني القراءة عصا سحرية، أهشّ بها على تصاريف القدر التي ألمّت بي، لا سيّما بعد مرور أربع سنوات منذ عرفت تفاصيل حالتي الصحيّة، والتفسير لتأخر نضجي الأنوثي، وحرماني من إحساس الفتيات الطبيعي بنزول الدورة الشهرية، إذ ما تزال كلمات الطبيبة هاجر ترقد في قلبي، كجثث مكتنزة، عصيّة

على التحلّل والفناء.

كانت مريم تمسك بيدي المرتعشة، ونحن نستمع إلى الطبيبة:

- اسمعيني حياة، كلّ شيء في حياتنا قضاء وقدر، وأيّ ابتلاء هو خيرة لنا، ولا يأس من رحمة الله، والله على كل شيء قدير.
- دكتورة كيف النتائج؟
- حياة، أنت مصابة بمتلازمة روكيتانسكي كوستر هاوزر -Rokitansky Kuster-Hauser syndrome أو متلازمة ماير، وتعني عدم تخلّق المهبل، وانعدام وجود رحم، غير أنّ نتائج الفحص بتصوير الرّنين المغناطسي أظهرت وجود جزء صغير من الرحم لديك، لكنّه صغير جدا، الحقيقة أنّ هذه المتلازمة نادرة الحدوث، فأغلب الدراسات والإحصاءات الطبيّة تشير إلى إصابة امرأة واحدة من بين خمسة آلاف امرأة بها، ويوجد نوعان من هذه المتلازمة: النوع الأول، وهو الأكثر انتشارا، والأقل خطورة على الصحة العامة للمريضة، وهو عدم اكتمال الأعضاء التناسلية الداخلية، وهي: المهبل والرحم، والنوع الثاني، وهو الأشدّ خطورة، هو إضافة إلى عدم اكتمال الأعضاء التناسلية، توجد مشكلات في تكوين الكلى، والمسالك البولية، وأحيانا مشاكل في القلب والعظام. وهذه الحالة عامة هي إحدى تشكّلات العيوب الخلقية، التي قد يولد بها الإنسان، ولا يد له فيها.

كانت الطبيبة هاجر تشرح لنا الحالة، وعيناها تتقافزان بين جهاز الحاسوب وبيننا، وبين بضعة أوراق مرميّة على الطاولة بإهمال، ومريم تنصت إليها باهتمام،

أمّا أنا فكنت أحاول استيعاب مسلسل السحق والإبادة الذي تمارسه عباراتها على نفسي، شعرت أنّ الغرفة استحالت ضبابا، ربّما من بركة الدمع التي أغرقت مقلتي، كنت أستشعر ملوحة الصدمة، وأحاول جاهدة إعادة سرد وصف الطبيبة؛ علّه يكون كابوسا مارقا، وسينصرف لا محالة. يصل إلي صوت مريم وهي تناقش الطبيبة:

- دكتورة ما أسباب هذه المتلازمة؟ وما مضاعفاتها وتبعاتها؟
- أسبابها مجهولة، والأغلب أسباب تتعلق بخلل جيني، المضاعفات واضحة، بما أنّ الرحم والمهبل غير مكتملين، فمن الطبيعي عدم حدوث حمل وولادة بالنسبة للمتزوجة، حتى الزواج شبه مستحيل في ظل عدم تخلّق المهبل، لكن كما أخبرتكما، لا ييأس الإنسان من رحمة ربه، التي وسعت كل شيء.

سقطت في وحل المرارة، مرارة الخيبة، كنت أظنّ أنّ تأخّر البلوغ لن يدوم، وأنّي سأحيض كسائر البنات، لكنّ بعض الظنّ إثم، نعم إثم، لقد أثمت حين أوهمت نفسي أنّه أمر طارئ وسيتلاشى، لكنّه نما واستشرى وتربّع على خارطة أيامي، كندبة خجولة، توارت خلف جدران الصمت، وآثرت الانزواء.

لكنّه النصيب والرزق، كما تقول ماما كولجهان، نصيبي أن أحرم من قدر الأمومة، وربّما الزواج، فمن يرغب في امرأة بأنوثة مشوهة، بأنوثة مبتورة؟ إنه القدر الذي تندس تحته الخيرات كما أجزمت على ذلك الطبيبة هاجر وهي تواسيني بعد شرح حالتي الصحية، الآن وبعد جزع يبّس عروق الصبر، انتشيت ثانية، ارتويت من قطر المواساة لذاتي التي كادت تغرب حيث العزلة التي طوقتها

بها مذ عرفتُ تبعات حالتي الصحية، حتى المحاضرات عزفت عن حضورها، كان ذلك مؤلما حقا، ربّما ما أعانني هو أنّنا كنّا في نهاية الفصل الدراسي، وإلا كنت أجّلت الفصل، دفعتني مريم بقوة كلماتها، وحضنها الأخوي الوارف للاستمرار، ودخول الاختبارات حتّى لا أخسر الفصل، لا سيّما أنّ المعدل الأكاديمي يعتمد بنسبة كبيرة على الاختبارات النهائية، ودخلت الاختبار، لكنّي دخلت الاختبار بهشاشة مفرطة، أن اختبر وأكتب ما تجود به ذاكرتي خير من ألّا أختبر أبدا، انخفض معدلي التراكمي، بيد أنّ الأيام جرت بحلوها ومرها، وتخرّجت، يظلّ الزمن دائما خيرَ جابر بفضل الله.

تقطع شرودي ضحكاتهم، ماجد يتوسّد حجر ماما كولجهان، ويأخذ في سرد حكايات الجامعة وأصحابه ومواقفه نفسها التي يردّدها في كلّ مرّة؛ بسبب كثرة نسيان ماما كولجهان التي تستمع إليه بالانبهار نفسه الذي تبديه عند الاستماع الأول، وكأنّها تسمعه للمرّة الأولى، كان يحدّثها عن رداءة أكل المطاعم الذي أعيا معدته، ينفض ماجد شكواه لماما، التي تفرد روحها الحنون، وتصطاخ إليه، هي تعرف مدى تعلّقه بها، ماجد لم يعرف أمّا غيرها، توفيت أمي وهو ابن الرابعة، فتح عينيه الصغيرتين على قلبها، ربّته واحتوته، ربّما كانت ترى فيه ابنها الذي لا نعرف عنه سوى صورته بالأبيض والأسود المعلّقة على جدار غرفتها كتحفة ثمينة، تداريها ماما وتمسح عنها أغبرة الزمن، تقبّلها وتحادثها بين فترة وأخرى، ولا تهجرها قطّ، وربّما ترانا أنا وماجد عوض الله الجميل لها.

صالة بيتنا الواسعة بلونها الأبيض اللؤلؤي، تفرد جناحيها، تحتوي ضحكاتنا، تغزل حكايانا، تصنع منها نسيجا ناعما يدثّر ذاكرتنا، المكتبة الخشبية التي تسكن

أحد أركانها، تلك المكتبة المنسكبة نصوعا من فرط عناية ماما بها، يتوسّطها كتاب «تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان» للإمام نور الدين السالمي، هذا الكتاب تبجّله أمّي كثيرا، كم من المرّات كنت ألمحها حين تعيد ترتيب المكتبة، تتناوله بكلتا يديها، تقلّبه، تشتمّ صفحاته، ثم تعيده إلى الرفّ بهدوء خشية خدشه، لكنّه رغم اصفرار أوراقه متماسك، صامد في وجه الذبول. وحين نستفهم عن سرّ ذلك، تقول إنّه من رائحة الزمن الجميل، وذكرى والدها رحمة الله عليه، تخبرنا أنّ هذا الكتاب أحضره لها والدها، من عند القاضي سيف بن منصور الذي كان يعمل معه في حصن المصنعة.

ينهض ماجد فجأة من بين حجر ماما كولجهان، ويشهق كمن تذكّر شيئا:

- ماما هل أخذتِ حبوب الضغط؟

تضع ماما كفّيها على رأسها، وتعقد حاجبيها، وترشق الفراغ بنظرة ضالّة:

- لا أتذكر، لكن أغلب الظنّ أني لم آخذها.

أتدخل بما تجود به ذاكرتي لفضّ الموقف:

- ماما كولجهان، أنا لم أركِ تأخذين الحبوب، من الأفضل أن تاخذيها.

تهرع لغرفتها وهي تتمتم وتحدّث ذاتها، وتعيد ترتيب ذاكرتها التي غزاها النسيان بشكل مفرط في الآونة الأخيرة.

الفصل الثامن

أصارع ما تبقّى من شطيرة الفلافل التي سئمت معدتي طعمها المكرور كلّ يوم، ليتني أقلّل كسلي، وأحضر شطيرتي من البيت، كما تفعل بعض المعلمات في المدرسة، كنت على الأقل ارتحت من تناول الشيء نفسه بشكل يومي، لكنّه صراع الدقائق والثواني، وفتور حركتي الصباحية.

صوت الجرس المدرسي معلنا انتهاء الاستراحة، وبدء الحصّة الخامسة يصمّ أذني، كم مرّة اقترحنا عليهم استبداله بصوت موسيقى ناعمة، أو معزوفة «ضوء القمر» لبيتهوفن، أو أغنية وطنية، أو حتّى أغنية لعبد المجيد عبد الله، ياا سلام، يبدو الأمر مثيرا، لكنّه حلم معلّق في الفضاء.

الحصة الخامسة عادة ما تكون مبتورة، أكلت الاستراحة بضع دقائق منها، لكن لا يهمّ، الأهم أن تتفاعل الطالبات اليوم مع قصيدة المتنبي، أن تمتصّ أرواحهنّ عزيمة هذا الشاعر، أن يدركن ما معنى أن نحبّ ذواتنا، وأنّ الاكتراث لحاجات الذات، والتَّربيت على طموحها لا يمتّ إلى الأنانية بصلة، أنصت إلى قراءاتهن بحبّ، أصحّح الأخطاء بحبّ أيضا، لا أدري لماذا أشعر أنّ العلاقة بين الطالب والمعلم لا بدّ أن تزهر بالمودّة، لكنّ الكثير من معلمات المدرسة كنّ يستهجنّ ذلك الأسلوب، بل ويحذّرنني منه:

- أستاذة حياة الطالبات ينظرن للمعلمة الطيبة الحنونة نظرة خبث واستعلاء واستغلال، ينظرن إليها نظرة الضعيفة التي يسهل الضحك عليها، أمسكي العصا، وأدّبي كلّ واحدة ترفع صوتها عليكِ.

كان التجاهل هو الحلّ الوحيد لهكذا رؤى، أنا لست مضطرّة لأسوّغ لأحد ما طريقتي في التعامل مع بناتي الطالبات، ما دمت مؤمنة بها، نعم مؤمنة أنّ الكلمة الطيبة سحرها نافذ إلى أقصى نقطة في الروح، وسأعمل بما أؤمن به، وليس لأحد الحقّ في فرض أفكاره علي.

تقرأ سهى قصيدة المتنبي بصوتها شديد الحدة، الذي يثير تهكّم بعض الطالبات، ويأخذن في الضحك، لكنهنّ وبنظرة عتاب منّي، يلجمن ضحكاتهنّ ويشرعن في الإنصات، تقرأ سهى:

مَلومكما يجِلّ عن الملامِ ... ووقع فعاله فوق الكلامِ
ذراني والفلاة بلا دليلٍ ... ووجهي والهجير بلا لثامِ
فإني أستريح بذي وهذا ... وأتعب بالإناخة والمقامِ
عيون رواحلي إن حِرت عيني ... وكلّ بغام رازحة بغامي

وحين نغوص في خبايا النصّ نغرق في سحر اللغة، والقدرة الهائلة على تركيب الجمل، وانتقاء الألفاظ، ولا نغفل عن تلك الثقة العالية، التي تتنفّس في أجواء القصيدة، وتناسب مرحلة المراهقة، التي يعوزها جرعات كبيرة من ترياق الإيمان بالذات وقدراتها.

وعلى سبيل الدعابة تعلّق بعض الطالبات:

- أستاذة المتنبي مغرور كثيرا.

أبتسم، ثم ندخل بعدها في نقاشات طويلة، ولا بأس إن أخذت جزءا من وقت الحصّة، المهمّ أن يتمرنّ على أسلوب الحوار، ويعتدن طرح الأفكار بطريقة منظمة، ومناقشة الآخر بأسلوب حضاري وبلغة عربية سليمة، والأهمّ أن

يميزن بين الثّقة الزائفة والثّقة المتّكئة على إنجاز يستحقّ التّباهي، وفوق هذا كلّه يعلمن أنّ لنفسك عليك حقّا، وللتواضع معطيات مغايرة لمفهوم تقدير الذات، فلا نبخس نفسنا حقّها من الاحترام.

انتهت الحصة، ونصّ المتنبي ما يزال مفتوحا، يستدعي نبشّ أغواره ومقاصده، بعيدا عن المتنبي ذاته، هذا ما يجب أن يقمن به في البيت.

ألملم دفتر التحضير وأقلام السبورة وأسلاك الحاسب الآلي، وجهاز العرض مزاجيّ الصنع يعمل في حصة، ويرفض العمل في حصص أخرى، وأخرجُ محملة بأدوات العلم، يلامسني ضوء الغبطة إثر ذلك، أستشعر جمال الإخلاص في التدريس، أو هكذا أحسب نفسي، وأسرح بأفكاري في مراعي المثالية، وأنا أمشي في الطريق، أمشط ممرا طويلا، محاذيا لساحة الطابور، ويمرّ بعدة فصول دراسية، أذكر كلمة سمعتها من إحدى المعلمات في المدرسة:

- حياة، أنت حتى حين تمشين تفكّرين؟ ناديتك غير مرّة، ولم تجيبي، بمَ تفكرين؟

استهجنت العبارة في البدء، ربّما لأنّي عطفتها على وضعي الصحي، وحالتي الاستثائية، ومتلازمة الشؤم، التي تلازم حياتي، وتحرمني من دماء الأنوثة، حتّى إنّي كرهت كلمة متلازمة، ولم أعد أطلق على أطفال متلازمة داون سوى مرضى داون، هكذا أفضل بعيدا عن شبح المتلازمات، تبًّا للمتلازمات!

لقد أخذت عبارة تلك المعلمة محمل الاهتمام، وأخذت أتساءل: هل تعمل دوامة الأفكار في كل آن؟ ألا يتوقف عقل الإنسان عن التفكير، ولو للحظات؟

كان ذلك مثار بحث لي، وجدت أنّ العقل لا يمكن أن يتوقف عن التفكير،

الكلّ يفكر، وفي كلّ وقت، حتّى لو أوهم نفسه بغير ذلك، حتى في وقت النوم تعمل أدمغتنا على تنظيم الأفكار وتثبيتها، وحين تنقيبي عن المعلومة بين أزقّة الشبكة المعلوماتية، وجدت عبارة لبروفيسور في علم الأعصاب والمعرفة، في جامعة جونس هوكبنز، يدعى باري جوردن يقول:

«إنّ دوام التفكير هو ما أنقذنا من أن نكون الوجبة المفضلة في أدغال السافانا»، وهذا يعني أنّنا نفكر دائما لنحمي ذواتنا من شيء ما يتربّص بنا، أو ربّما هكذا نشعر! فهل أحمي نفسي من شيء ما؟ لا أدري، ربّما خوف الوقوع فريسة الهمّ.

أنفض عن نفسي تكدّس الأفكار، وأشتمّ هواء باردا، كنّا في فبراير والبرودة تمارس طقوسها الأخيرة، قبل حلول صهيد الصيف الحارق، ورغم أنّ الصيف فلكيا يبدأ في يونيو، فإنّه في بلادنا ذات المناخ الصحراوي يباغتنا بلفحاته منذ شهر أبريل.

أتقدم بضع خطوات، وأجدني عند غرفة المعلمات، غرفة مكتظة بـ«الكابينات الزرقاء»، تراودها راوئح البخور تارة، وروائح «المعكرونة» و«المحاشي» تارة ثانية، وروائح الحبر والأوراق تارات أخرى.

يد صغيرة تربِّت على كتفي، ألتفت فأرى طالبة من الصف الخامس:

- أستاذة حياة، المديرة تريدك.
- إن شاء الله، سأذهب إليها، شكرا لك يا صغيرتي.

كانت هناك على كرسيها الدوار، ممسكة بفأرة جهاز الحاسوب، تؤرجحها يمنة ويسرة، وعيناها مندلقتان بتركيز شديد على الشاشة، ربّما تصارع البوابة

التعليمية التي تعاني عرجا شديدا بسبب ضعف إمدادات الشبكة المعلوماتية التي تتكئ على شركتين فقط، تمارسان شتّى أنواع الاستغلال، مع أداء باهت. دلفت إلى مكتبها، ابتسمت ابتسامة مقتصدة، وطلبت إليّ الجلوس:

- أستاذة حياة، أبشرك الحمد لله، الشركة وافقت على دعم مشروعك «المدرسة الخضراء»، لكن طبعا لا بدّ أنّ يأتي ممثلون من الشركة؛ حتى يعاينوا المدرسة، ويحسبوا التكلفة.
- الحمد لله، شكرا أستاذة، أرجو أن ينجح المشروع.

حين خرجت من مكتبها كان الفرح يرافقني، ينضح من عينيّ، أخيرا سأستلذ ببهجة الإنجاز، وأرى المدرسة وقد استحالت جنة ترفل الطالبات بين جنباتها دون تذمّر أو ملل، كنت مؤمنة أنّ تجميل المكان، وإضفاء لمسات خضراء عليه من شأنه أن يحبّبه إلى عيون قاطنيه، ويرسل إشارات إيجابية لهم؛ لذا آمنت بفكرة «المدرسة الخضراء»، ووددت تطبيقها في المدرسة، حلمت أن أرى المكان الذي أقضي فيه وقتا طويلا من أيام عمري بهيًّا، يعين على التعليم والتعلم، ولا أعلم ربّما كنت أفعل ذلك لأدفن متلازمة الشؤم في أعمق نقطة في وهم النسيان، وأستبدله بالإنجاز والعطاء، الحمد لله موافقة الشركة لدعمنا ماديا تعني أنّ المشروع على وشك التحقق؛ لأنّ العقبة الأولى كانت في الدعم المالي، وقد انقضت بفضل الله، عدت إلى البيت، وأنا أحمل أطنان المسرّة، أخبرت ماما كولجهان بكل شيء، أخبرتها أنّ مشروع المدرسة الخضراء سيتحقق، أخبرتها أنّ مبادرتي لاقت تقبلا من الداعمين، وسيأتون الأسبوع القادم إلى المدرسة، ويتعرّفون على المشروع بشكل أوسع. كنت أحكي وأنظر لعينيها الدافئتين،

أحتسي منهما قوة تشدّ أزر أيامي القادمة، أدرك أنّ الأمّ الحقيقية ليست من تلد، وإنّما من تقدّم صحتها وشبابها وراحتها في سبيل التربية الصالحة، والسهر المضني؛ لأجل راحة أولادها، هكذا كانت ماما كولجهان معنا، فمنذ أن رحل زوجها «العود سعيد» رحلت أمّي التي ولدتنا بعده بأربعة أعوام تقريبا، فطلب أبي من عمّته ماما كولجهان أن تعيش معنا حتى ترعانا، فكانت نعم الأم. كنت دائما أقول إنّ الله يدبّر الأمر لخيرة البشر وهم عن ذاك غافلون، ألتفت إلى جسدي، أعبر بيدي تفاصيله الأنثوية الخجولة، إلا من نهدين صغيرين ناتئين على استحياء، أووه أنا الآن أكملت الرابعة والعشرين، تراودني كلمات الطبيبة هاجر، كجثامين نتئة «تشوّه خلقي في الجهاز التناسلي»... « متلازمة نادرة تحدث لامرأة واحدة من بين خمسة آلاف امرأة»، أشعر بمأزق القهر يحاربني، لماذا تركت هذه المتلازمة القبيحة كل نساء الدنيا وفردت أجنحتها المشؤومة صوبي؟!

لا إجابة تذكر سوى أنّي يجب أن أصبر، وألتهي بتفاصيل أخرى في الحياة، أنا مقتنعة بذلك، لكن الضعف الذي يسكن النفس البشرية لا يفتأ يزورني بين حين وآخر، يغسل كمّ الشعور الذي أسجنه في أعمق نقطة من روحي، لا شيء، فقط لأكون قوية، نعم قوية كما تردّد مريم على مسمعي وهي تربّت على جرحي، لا بأس سأكون كذلك، لكن دعوني أبكِ، أصرخ بصوت عالٍ، أنفض ألمي، أستشعر إنسانيتي الباهتة، أعتقد أنه حق مشروع لي. نعم كلنا يحق لنا أن نبكي، أن نبوح، أن نحكي، أن نزعق بكل ما ترتج به دواخلنا من نحول، ثم نعاود الحياة بصفة «أقوياء» و«صابرين».

تتكئ أستاذة «سعاد» على كرسيها الدوار في انتظار القادمين من الشركة، تقول

بأنهم سيمرّون على مدرستين قبلنا، ترنو إليّ وهي تبتسم:

- اليوم محلوّة أستاذة حياة.

باغتتني ملاحظتها، في الحقّ نحن لم نعتد من مديرتنا تعليقات من هذا النوع، فهي من الأشخاص الجادّين الذين يشغلهم العمل فقط، بادلتها البسمة وقد استحال وجههي كتلة حمراء:

- شكرا أستاذة، كلّك ذوق.

تذكرت أنّي وضعت اليوم أحمر شفاه وردي، وظلال ترابية، وقليلا من «المسكرة»، أخرجت مرآة صغيرة دسستها في جيب حقيبة يدي منذ مدة، أممم نعم أبدو اليوم أجمل من العادة، المجد لمن اخترع المكياج!

- أستاذة حياة، أريد أن أفاتحك في موضوع، وأرجو أن يكون بيننا.
- نعم أستاذة، تفضلي.
- حياة...

وقع خطوات في الخارج، وأصوات رجال تتناهى إلينا، تنهض أستاذة سعاد، وقد بانت على ملامحها تفاصيل الربكة.

- حياة، يبدوا أنّ ضيوفنا قد وصلوا، طبعا أنت ستشرحين لهم تصوّر المبادرة، حاولي أن يكون شرحك وافيًا، ومتطرقًا للأثر التربوي الناجم عنها.

أنا أيضا شعرت بقلبي يرقص قلقًا، ربّما هي المرّة الأولى التي أقف فيها أمام أشخاص لا أعرفهم، وأتحدّث ارتجالا عن أفكار متوالية، لا بأس تشجّعي يا حياة.

- حاضر أستاذة.

رحّبت أستاذة سعاد بالضيفين.

كانا اثنين: أحدهما عُماني، يبدو ذلك من زيِّه وحديثه، أمّا الآخر فمن حديثه ولكنته يبدو خليجيا، يرتدي بِذْلة رمادية. بعد التعارف والسلام والترحاب الودود، أومأت إليَّ المديرة بالحديث:

- مرحبا بكما في مدرسة المعارف للتعليم الأساسي، ونشكر مبادرة الشركة لدعمنا في مشروعنا، اسم المشروع هو «المدرسة الخضراء»، يهدف إلى نشر المساحات الخضراء في المدرسة من خلال تعشيبها، سواء أكان طبيعيا أم صناعيا، مع تجهيزها بمقاعد من الخشب، أو الخيزران، أو حتّى الحديد، لاستراحة الطالبات، مع ترك مساحات لممارسة الزراعة، من قبل الطالبات في حصص الاحتياط، عن طريق شراء شتلات لأنواع الزهور المتباينة والنباتات لغرس ثقافة التشجير، ودوره في تحصين البيئة، من شتّى ضروب الضرر، الذي قد يحلّ بها...

كنت أشرح بانفعال كعادتي، وكانا ينصتان إليّ باهتمام، وكم غمرتني الغبطة حين أعجبا بالفكرة، ووافقا على دعمنا بمبلغ مالي جيّد، منوّهين بفكرة المشروع وتنظيم تصوّره، وقبل أن يغادرا التفت أحدهما إلى الوراء، ورمقني بنظرة غريبة، ثم رحل.

بعد إطرائهما على المشروع، وموافقتهما على الدعم المالي الكامل، شعرت من فرط السعد كأنني غيمة بيضاء، تحلّق بخفة في فضاء أزرق ساكن، مع أنّ أخي ماجد خالفني في مساري هذا، لا أعرف كيف يفكّر ماجد؟ كان يرى أنّ اجتهادي

في هذه المبادرة محض تعب، ومضيعة للوقت، وتكديس أعمال فوق أعمال التدريس المرهقة بطبيعتها، كان يقول:

- أنا أرى يا حياة أن تفكري بطريقة أكثر نفعية، ماذا ستجنين من وراء هذا التعب؟ عندك ما يقرب من إحدى وعشرين، وأحيانا خمسة وعشرين حصة أسبوعيا، ومع ذلك تجهدين نفسك في هذه الأعمال التي ليست ضمن نطاق مسؤولياتك، تذكّري يا حياة أنّ الترقية معنا حين تأتي تأتي للجميع، المثابر وغيره، فلمَ أجهد نفسي؟

كنت أنصت لكلماته التي تنسكب من فوهتها أفكار لا يجب أن تنبع من عقل متعلّم، ثمّ أردّ عليه بهدوء وثقة:

- أنا يا ماجد لا تهمني الترقية بقدر ما يهمّني إرضاء ذاتي التي تتوق للإنجاز، لعمل شيء يدعو للفخر، لصنع تغيير ما، يكون له سهمه في تطور العملية التربوية و...

وأخذت أحكي له أهداف المبادرة بشطط كبير، حتى إنّي كنت أبتلع بعض الحروف أثناء حديثي من فرط الانفعال. أخبرته عن جدوى المبادرات المدرسية لو أتيحت لها فرصة الظهور والتنفيذ على أرض الواقع، أخبرته بكل شيء، ونسيت أو تناسيت أن أخبره أني أفعل كل هذا لأبحث عن «حياة» أخرى مختلفة عن «حياة» الطاعنة في الخيبة، عن «حياة» التي ولدت دون أن يحق لها أن تكون أما أو حتى زوجة، عن «حياة» التي تفتِّش عن حمحمة السلوى، تداري بها قدرها العجيب، وتتوارى خلفها.

عدت إلى بيتنا، وأنا أنثر فرحتي بين جنباته، أخبرت أبي الذي كان عائدا ذلك

اليوم من العمل في إجازة سنوية، وأخبرت ماما كولجهان كذلك، كنت أرى الفرح في عينيهما، مدّت ماما ذراعيها فارتميت في حضنها، أغمضت عيني، وأخذت أحتسي بعض الحبّ، أسير على هداه في قادم أيامي، وحكايات أبي المثيرة عن العمل في العسكرية والتدريب، أبي يعمل مدرّبا في الجيش السلطاني العماني برتبة وكيل، قدّم غير مرّة للترشّح إلى ملازم، لكنّ ضعف مستواه في اللغة الإنجليزية كان يقف حائلا دون ذلك، الآن وبعد أن أمضى وقت طويل من الخدمة العسكرية الصارمة، والتنقل من مكان لآخر يفكر في التقاعد، ماما كولجهان لا تشجّعه على ذلك؛ ربّما لأنها تعرف شغفه للعمل والحركة:

- ماذا ستفعل هنا يا حمد، أعرفك ملولا، أنت معتاد على الحركة والعمل.
- لا يا عمّتي، لن أملّ، سألتفت إلى المزرعة، إنها الآن بين أيدي العمالة الآسيوية، يزرعون فيها ما يشاؤون، ويبيعون ما يشاؤون دون حسيب ورقيب، ونحن أصحاب المال تشاغلنا عنه، وانصرفنا إلى أعمال أخرى.
- في هذا صدقت، تلك المزرعة نشأنا بين ظلالها جميعا، مزرعة جدي، وأبي من بعده – رحمهما الله –، والمزارع كلها كانت منبع الرزق لأهالي الحويرة، وأغلب قرى المصنعة، وساحل الباطنة.

يبدو كلام أبي صحيحا، فأغلب أصحاب المزارع في الباطنة قاموا بتأجيرها للعمالة الوافدة مقابل مبالغ زهيدة، واشتغلوا بتفاصيل الحياة المدنية، فنسوها، وهي ما بقي من إرث أجدادهم، آآآآه كم أثار حديثهم عن المزرعة حكايا تستريح تحت ظلال الذاكرة منذ سنوات، حين كنا أنا وماجد نغافل ماما كولجهان، وننسلّ وقت الظهيرة، حين تأخذ قيلولتها المعتادة، ونهرول نحو المزرعة، نقطف

ثمرات الليمون، نقشرها ونعصرها في أفواهنا التي تطيب لمذاقها اللاذع، ثم نقذف أجسادنا الصغيرة في الحوض الذي غزته رائحة الطحالب، ونستلذ ببرودة المياه، رغم ملوحتها التي نتعمد تجاهلها؛ حتى لا ننغّص على أنفسنا نكهة الفرح التي تعتريها حينها.

وحين نعود إلى البيت عند أذان العصر نجد ماما وهي تنتظرنا، وعلامات الحنق تغلف ملامحمها الناعمة، وقد أدركتْ أنّ خرافة «حمار الظهيرة» التي سمعتها من عمتها شمسة كما تقول وسردتها لنا مرارا، تلك الخرافة لم تعد تجدي نفعا في ردعنا عن الخروج في ذلك الوقت، وإذا كان «حمار الظهيرة» الذي يظهر وقت قيلولة الناس، وانسرابهم في بيوتهم، ويخطف الأطفال الذين يخرجون في ذلك الوقت، ويأخذهم حيث يقطن الجنّ والمردة، إذا كان قد نجح في منعنا من التجول حين كنّا في عمر السادسة والسابعة، فإنّه قد عجز عن ذلك حين مشطنا السنين وبلغنا العاشرة والثانية عشرة، كانت ماما كولجهان ترقب عودتنا إلى البيت، وقد أمسكت «العسو» بإحدى يديها، وما إن نلحظ شطط القلق في عينيها، وهيبة «العسو» المتربّعة في كفّها حتى نغدو كعفريت الجنّ حين انسلّ يسابق الضوء؛ بحثًا عن خبر بلقيس وقومها، نسابق خطواتنا هربا من ضربات «العسو» المؤلمة، ويندسّ كلّ منّا في غرفته، هي حنونة الطبع، لا شك، لكنّها كانت تخاف علينا، لا سيّما أنّ المزرعة في وقت الظهيرة تكون خاوية إلا من بعض العمال الآسيويين، الذين يأتون في بعض الأحايين إلى المزرعة للاستحمام، وخوفها كان مسوّغًا بكم القصص التي تسمعها من جاراتها. حين يجمعهنّ بساط «الرايح» وقت العصر، يشرعن في بسط حكايات ألف يوم ويوم،

وألف حارة وحارة، حكايات عن بنات صغيرات ومراهقات اعتدى عليهنّ عامل آسيوي وهتك عرضهنّ؛ لذا كانت تخشى علينا كثيرا، تطوّقنا بكل ما تروم من عناية حتى لا يلحقنا الضرر.

تتلاشى أحاديث ماما وأبي وسط نغمات الجرس، صوت خالتي خديجة الحادّ، يتقدم معلنا زيارتها المباغتة، على غير عادتها:

- هود هود.
- تعالي أم مريم تفضلي.
- أحسنت أبا ماجد.

تنزلق ابتسامة مصطنعة على قسمات ماما كولجهان:

- مرحبا خديجة، هل البنات فيهنّ شيء؟
- لا يا كولجهان كلنا بخير، لكنّي وددت أن أبشرَكم عن مريم.

حين سمعت اسم «مريم» فزّ قلبي، فمنذ يومين لم نلتقِ.

- مريم الحمد لله زوّجناها.

تهاوت نظراتنا أنا وماما، حطّ صمت ثقيل على المكان، لم يقطعه سوى صوت أبي، الذي بارك لخالتي خديجة.

أما أنا وماما فقد ابتلعتنا هاوية الصدمة، كيف حدث ذلك؟ ألم يقرّ ماجد بنفسه أنّها تحبّه، وستنتظره؟ وأحاديثهم الليلية التي تحرسها تعويذات الغرام، هل طمستها صفعة الخيانة، أم دفنتها شمّاعة «النصيب»؟ ماذا عن همساتهم، عن نظرات العشق التي يتبادلانها حين تتاح لهما فرصة اللقاء؟ أين ذلك كله؟! هل حدث أمر ما بينهما وآثرا الفرقة؟ أحقا ما سمعته؟ أحقا مريم ستتزوج؟ لكنّها لم

تذكر أمامي شيئا، لقد التقينا منذ يومين، أم إنّها تعمّدت إخفاء هذا الأمر عنّي حتى لا أخبر ماجد؟ وماجد، هل يعرف شيئا كهذا؟ ولو عرف ماذا قد يحصل لقلبه؟

ابتعلتني دوامة التساؤلات، وأنا أرقب ماما كولجهان، التي كبتت غصّتها، وقالت مجاملة الخالة خديجة:

- تستاهل مريم كلّ خير، أسعدها الله، زواج مبارك.

بعد أسبوع عاد ماجد إلى البيت، لكنّه لم يعد ماجد البشوش الذي عهدناه، عاد من الجامعة، ولازم غرفته ساعات طويلة، يبدو أنّ مريم أخبرته بأمر خطبتها، وإلا كيف عرف؟ ماما كولجهان كانت تقف عند باب غرفته وتبكي، أكلت الحرقة قلبها وهي تئنّ خلف الباب:

- ابني ماجد، افتح الباب، افتح الباب يا حبيبي، لم تأكل شيئا منذ رجعت من الجامعة، لا تفعل بنفسك ذلك، إنّ لنفسك عليك حقا، هذا كله نصيب، ولا يأخذ أحدنا غير نصيبه، ردّ علينا يا ولدي، ما يجوز.

كنت أحضنها، وأبكي معها، وكنت في نفسي أعرف أنّها لا تبكي على وجع ماجد فقط، إنها تذرف دموعها الغالية عليّ أنا أيضا، وربّما على حياتها التي هبّت عليها دون ريب ريح الفقد العاتية مرات ومرات!

- ماما حبيبتي اتركيه، ربّما يودّ أن يختلي بنفسه، أحيانا يحتاج المرء منّا أن يجالس ذاته، يحادثها، يراجع حساباته ومواقفه، وربّما يبكي بعيدا عن أعين الناس، دون أن ترمقه شفقتهم، لا تخشي عليه، سيبكي حتى تسكن نفسه، ويهدأ.
- يا حياة، أخشى أن يكون قد فعل بنفسه شيئا، اتّصلي بأبيك.

- لا يا ماما، دعيه، سيفتح الباب بنفسه، وسيأتي إليك يكلّمك، أنا أعرف ماجد جيدا.

وحدث ما ظنته، ماجد الذي حبس نفسه يومين، عاد إلى حضن ماما كولجهان، كان يبكي، إنّها المرّة الأولى التي أشاهده فيها يبكي بهذه الحدّة، قذف نفسه في حضنها وهو يصرخ باكيا:

- كذبت عليّ مريم يا ماما، كانت تقول إنّها تحبني، تحبّني موت، وستنتظرني حتى أتخرج وأتوظف، كانت تكذب، كذّابة كذّابة.

التفت إليّ وهو يناظرني، والقهر يعرّي ألمه.

- حياة، مريم تخلّت عنّي. خطبها ولد سليمان بن محمد، طبعًا ستوافق، معهم خير وأموال، وافقت، وتركتني أنا وتفاهاتي.

وحكى ماجد، حكى كلّ شيء، كانت شفتاه ترتعشان، وملوحة الدمع تلذع وجنتيه، حكى عن شعوره الخانق، عن وجع العشق الذي يلتهب في صدره، شعور الخذلان الذي يقضّ جسده، آآآآه ألهذه الدرجة يوجع الحبّ؟

بدا ماجد وهو في حضن ماما كطفل صغير، هرع إلى حجر أمه هربا من شيء طارئ أخافه، تكوّر جسده، يداه المرتجفتان تتعانقان، وقد ضمّ ركبتيه إليهما، بينما اندلق رأسه فوق حجر أمي؛ عله يحتسي منه بعض الجبر. كان المكان يضجّ بالسكون، خرس كل شيء، صمت الكون لبرهة؛ ينصت لأنّات العاشق، ويسدل أمام حسراته فضاء البوح، ودّ لو يسرد علينا لحيظات الوله التي شاركته فيها محبوبته، كانا يجتمعان في غرفتي، وكنت أترك الباب مواربا، ليس خشية من شيطان الخلوة، بل ربّما كنت أسترق النظر لدفء عينيهما وهما يتمتمان بصوت هشّ، تتشابك أصابعهما، أذكر تلك المرّة التي قبّل فيها خدّها، ثم مرّر أصابعه

عليه، لكنّها أزاحتها في هدوء، ووجهها ينزف حياء.

أيعقل أن تكون تلك النظرات كاذبة؟! وذلك الشعور محض زيف، لا يا ماجد، ثمّة خطب ما، تفسير آخر، عرفت مريم سنوات طويلة، مريم لا تجيد التصنّع، حتمًا كانت صادقة.

التهمتني التساؤلات وأنا أحاول صنع مسوغات تنقذ صديقتي من اتهامات ماجد الذي شلّ الألم كلماته وأوقعه طريح الهوى، أمسكت هاتفي، وكتبت رسالة «واتس آب» لمريم:

- ماذا حدث يا مريم؟ ماجد متعب، متعب جدا.

***

رغم كم الإرهاق الذي تورثه عملية التدريس، لكنّ المدرسة تظلّ مكانا رحبا، ننفض فيه أوجاعنا، ونسدّ فيه فجوات البوح، ونذيب على عتبات الصفوف المكتظة بالرؤوس المنتظرة صقيع الهمّ، نناغي القلوب المتعطشة للرعاية قبل العقول، نطبطب على الأرواح التي ما تزال تشقّ طريق العلم، ونغرس فيها شتلات التشجيع والتعزيز حتى تكبر وتثمر. التدريس ممتع حين تستشعر لذة النتيجة المنتظرة، حين يتيح لك قدرك أن تغير طالبا، وتربو به إلى المجد، طالب واحد فقط تغيّره كفيل ببثّ تراتيل السّعد في النفوس.

كنت منهمكة بالشرح بين تلميذاتي حين دخلت عليّ الصف أستاذة سعاد، سلمت على الطالبات، ثم بادرتني القول:

- أستاذة حياة، أريدك في مكتبي بعد الحصة.
- طيب أستاذة.

ربّما تريدني في الموضوع نفسه الذي كادت أن تفاتحني فيه قبل حضور لجنة

معاينة المشروع، ترى ماذا تريد؟ أخشى أن الشركة غيرت رأيها، ولن تدعمنا كما وعدتنا، لا بأس، لن أستعجل على رزقي، حين دخلت مكتبها كانت النائبة والمنسقة معها، لكنّها طلبت إليهنّ المغادرة، يبدو أنّ الموضوع خاص بي فقط.

- تفضلي حياة.
- شكرا أستاذة، طلبتِ رؤيتي.
- نعم حياة، لن أطيل عليكِ، فقد يكون معك حصة فيما بعد، في الحقيقة أريد أن أخطبك لأخي، هو خريج طب، دارس في بريطانيا، شابّ جميل وخلوق.

تجمدت في مكاني من هول الصدمة، كان الأمر مباغتا حقا، شعرتُ بجيش الأدرينالين يهاجم جسدي بشراسة، تلمّست كفيّ، كان الدم يتدفق في عروقهما بشره، ينفض فيهما حرارة الربكة.

- طيب أستاذة، سأفكّر، وأردّ عليك.

لم يسعفني لساني بسوى هذه الكلمات، قلتها وانسللت بجسدي إلى الخارج، سمعت دقات قلبي، كانت تتصاعد، شعرت بدوار خفيف، لكني واصلت سيري حيث مكتبي، أزحت أوراقي، وأجلست رأسي مكانها، رأسي المتخم بالشتات، ليتني أستطيع أن أمدّ يدي لأنتزع تلك الأفكار والوساوس، وأرمي بها في محرقة نائية تأكلها النيران، وتحيلها رمادا بائسا تسرقه الريح، ليتني أمتلك ساعة الزمن السحرية؛ لأعبر خلالها إليّ، حين كنت جنينا في بطن أمي، وأمسك بعصا موسى؛ أهشّ بها على أعضائي لتنفجر أنوثة، وينبت الرحم ومعه المهبل، ينبتان لأعيش حياة طبيعية مثل سائر البنات، أتزوج وأطفئ شبق الحبّ

الذي يثور في جوفي، آآآه ليتني فقط!

حسنا أنا بحاجة إلى تنظيم إجابة منمّقة وشافية لأستاذة سعاد، هي لا تتوقع أن أردّ بالنفي، أخوها دكتور، خريج جامعة أجنبية، وابن عائلة معروفة، من هذه الغبية التي تترك عرضا مغريا كهذا؟

إنّها أنا، أنا نصف الأنثى التي يجب أن ترفع لوحة، وتكتب عليها بالبنط العريض:

«ممنوع الاقتراب... أنا نصف امرأة»، وبذلك تريح رأسها من عناء التفكير في الردّ، وتحمل ردّات الفعل الموجعة، وأحاديث نسوة الحويرة، كل هذا ينتظر شرارة الفتنة؛ ليشعلها.

كيف لي أن أتجاهل نميمتهنّ اللاذعة وهنّ يلكن سيرتي، ويتفنّنّ في خلق الأكاذيب عنّي لرفضي كثيرا من الخطّاب، أتضايق وأتساءل: متى تنداح عنّي دائرة التهم، وأغط في سبات النسيان؟

سمعت مرّة أنّ إحدى تلك النسوة، اللائي يسكنّ في الطرف الجنوبي للحويرة شكّت في أخلاقي وسمعتي أمام جاراتها وهنّ مجتمعات في «الرايح»، وحين علمت ماما كولجهان بالأمر لبست ثوبها، وطوّقت رقبتها بشال أسود، وهرعت تمشي حيث بيت تلك المرأة، وهدّدتها إن تعرّضت لسيرتي مرّة أخرى:

- اسمعيني يا فلانة، سمعة بنات النّاس ليست عِلكة في لسانك أنت، ولسان غيرك، وابنتي أشرف منّك ومن أمثالك، وبالنسبة لزواجها تتزوّج أو لا تتزوج هذا شيء لا يخصّك قطّ، وإذا وصلني أنّكِ تعرّضتِ لسمعتها بكلام مرّة أخرى، سنضطرّ نلجأ إلى القانون، ومعي شهود على ذلك.

وانتشر خبر هذه الحادثة بين الجارات، ولم تجرؤ إحداهنّ من يومها على ذكري بسوء، أو حتى النّبش وراء رفضي لكل من يتقدم لخطبتي.

لا أعرف لماذا يتلذّذ البعض بابتلاع لحوم الناس، يسابقون ديدان الأرض في نخر أجساد الموتى، يلوكون حكايات باطلة تخترعها أفكارهم المريضة، تبًا لهكذا مخلوقات، تلتهي بكدر الآخرين، وترمي براءتهم بشرر من غِلّ.

ألحظ رسالة واتس آب من مريم:

- مرحبا حياة، هل يناسبك أن نلتقي اليوم؟

ياه يا مريم، اشتقت إليك رغم كل شيء.

بادرت سريعا بالرد:

- نعم، سنخرج معا نشرب قهوة، ونتحدّث.
- طيّب، يناسبني.

لم أرَ مريم منذ أسبوعين تقريبا، ضممتها بقوّة، لاحظت ميلاد دمعة حارقة بين جفنيها، وددت أن أخبرها أنّي أحبّها رغم ما حدث بينها وبين ماجد، صداقتنا أكبر من ذلك، لكنّي آثرت الصمت، وأنا أرقب ملامحها:

- ما شاء الله مريم، لقد ازددتِ جمالا وبهاءً، ثمّة تغييرات في مظهرك وأناقتك.
- امممم... ربّما بسبب الخطبة، وما يلزمها هههه.
- مبارك لكِ.

بدت مريم أجمل من السابق، أصبحت ترتاد صالونات التجميل وعيادات العناية بالبشرة، حتى مظهرها بدا مختلفا، ترتدي العباءة الملونة، وتضع الكثير من

مساحيق التجميل.

شيء واحد لم يتغير فيها، ضحكتها العفوية، ونظرتها الدافئة، حكت لي عن خطيبها، وخصاله الجميلة، ووسامته وأناقته، والهدايا التي أحضرها لها، أرتني هاتف «آيفون6» الذي أهداها إيّاه، وعقد «لازوردي»، الذي اشتراه لها بعد عودته من آخر سفراته، كانت البهجة تتراقص في عينيها، باغتها سؤالي:

- وماجد يا مريم؟

أخذت تحرك السُّكّر في القهوة بتململ، أشاحت بوجهها جانبا، أخذت تذرع المكان بعينيها، كأنّها تراه للمرّة الأولى، ثم قذفت ببصرها عليّ، وتمتمت بثقة:

- الله يوفقه.
- ماذا حدث؟
- حياة أنا لا أنكر، لقد أحببتُه، وكنت مستعدة لانتظاره، لكني تعبت، تعبت من لا مبالاته في الدراسة، تعبت من قلّة اكتراثه بالتخرّج، ماجد مهمل يا حياة، هو الآن في السنة السادسة، ولا أحد يعلم إن كان سيتخرج أم لا، ألم يخبركم أنّه رسب في مادة الفصل الماضي، ومعدله رجع تحت الملاحظة الأكاديمية، نصحته وحاولت مساعدته ما استطعت، لكنه لم يقدّر ذلك، حتى في أيام الاختبارات ماجد يسهر مع أصدقائه، خاصمته كثيرا من أجل أن يعدل سلوكه ويلتفت إلى دراسته، لكن دون جدوى، يعدني مواعيد عرقوب كما يقال، تعبت يا حياة، جانبتُ عاطفتي، وحكّمت عقلي، كيف لماجد أن يتحمل مسؤولية عمل وبيت وعائلة وهو غير قادر على تحمل مسؤولية الدراسة، هاتفته وأخبرته أني خُطبت لرجل أعمال من معارف

أبي، وسأوافق عليه، صرخ في وجهي، واتّهمني بأنّي طمّاعة، لن أنسى كلماته أبدا، قال هازئا: «أنت بنت فاقة وفقر، حديثة نعمة، ولم تصدقي من الفرحة أن يخطبك رجل غني».

آلمتني كلماته كثيرا، قاسيتُ طعناتها أياما وأياما، صحيح أني نشأت في كنف أسرة بسيطة، وأبي كان يتركنا لعطف الناس وصدقاتهم، ويخرج في جهاده ودعوته كما يزعم، لكن عشنا أنا وأخواتي وأمي عزيزات نفس، لم نمدّ يدنا لأحد، حتى مضى كل مُرّ، سقاني ماجد سمًّا زعافًا بكلمته تلك، وذات صباح أخبرت أمّي أنّي موافقة على العريس الذي آثرني من بين نساء كثيرات، وأرادني بالحلال، رغم مرور شهرين على طلبه، كنت آمل أن يتغيّر ماجد، لكنّه ظلّ كما هو، يتردّى في مساوئه، حتى كانت القاضية بكلماته تلك، فكّرت مليّا يا حياة قبل أن أتّخذ قراري، كان يجدر بي أن أتكلم بعقلي لا بعاطفتي، أحيانا حتى في الحبّ نحتاج إلى ذلك، أعني ذلك الحبّ الذي أضاع روحه، وهو الاحترام، الاحترام هو روح الحبّ، حين يلفظ الحبّ بقايا الاحترام، يغدو كائنا شرسا، ينشب أظفاره في قلوبنا حتى ينهكها، يضعف بنيتها النابضة بالهيام، ثم يخبو بريقه شيئا فشيئا، حتى يمكث في العدم.

- مريم أنا لم أجرب الحبّ، لكنّي أسألك عن الغفران، أليس له نصيب من دائرة الغرام؟
- له، بل ربّما يكون الغفران هو ترياق خلوده، لكن حين يكثر الدقّ على الجروح، فإنها تكبر، وتستحيل عاهة، يصعب على أشطر حكيم

معالجتها، ويكون الغفران المكرور داء لا دواء، الغفران الذي لا نجني منه سوى إرهاق الذات العاشقة، والسير بها في طريق مسدود أغلقته تراكمات بائسة لم يشفع لها قانون العفو، وأي عفو هذا يصنع في قلوبنا ندوبا لا تشفى؟!

- لكني كنت ألحظ غيمة بيضاء تظلل لقاءاتكما!
- نعم، يحدث هذا، أنا لا أنكر، لكن حتى تلك اللقاءات لم تسلم من غوغاء المزاح الثقيل، وأنا كنت أرتشف كلماته، وأحتفظ بها في ركن قصيّ من روحي، كنت أحسب في البدء أنّي كنت أشيّعها إلى مثواها الأخير، لكنّ نبضا قذرا ما يزال يسكن داخلها، ومع الأيام نمت، وغدت كمسخ فرانكشتاين، الذي انقلب على صانعه، من الكلمات التي لا أنساها حين قال لي مرّة:

«سأحاول أن أعوّضك عن أبيك «المطوع»، الذي لا يسأل عنكم أبدا».

قالتها وقد تدحرجت دمعة على خديها، فاشتعلا حمرّة، ثم أردفت:

- من أخبره أني سمحت له بالحديث عن أبي بهذه الطريقة، ألا يعلم أنّ الأب مهما فعل يظلّ أبا، لماذا يصرّ على معايرتي به في كل آن؟
- يااااه يا مريم!! كيف حملتِ هذا الألم بمفردك؟! لِمَ لم تشاركيني بعضا منه، علّي أطفئ بعضه؟!
- لم أشأ أن أحملك عبئا آخر فوق أعبائك، يكفي ما أنتِ فيه، آآآه يا حياة سيعوضك الله عوضا جميلا عن صبرك على البلاء.
- أو تظنين ذلك؟

- أنا لا أظن، أنا موقنة، ما أوصد الله بابا على عبده إلا فتح له من أبواب السعد ما لا يحصى.
- يا رب، شكرا مريم، والنعم بالله تعالى.

لم أنم تلك الليلة، ظللت أفكر في مريم، مريم طيّبة وقلبها نقيّ، لكنّ الكرامة شيء غير قابل للتفاوض، وتتعالى على الحبّ، هذا الأمر لم يستوعبه ماجد قط، كثيرا ما أخبرته ماما كولجهان أنّه «لو أنّ له نصيبا فيها سيأخذها» ويبدو أنّ النصيب لم يقل كلمته!

تبدو فكرة النصيب مصيبة حقا، كلّ خلق الله لهم نصيبهم في شريك حدّده الله لهم، اختاره لهم لأسباب غيبية، قد يكتشفها البشر مع مرور عجلة الأيام، ربّما كلهم هكذا، إلا أنا مبتورة الأنوثة، لا أظنّ أنّ أحدهم يرغب فيّ و...

أجترّ تنهيدة طويلة، وأنا أفتش في «جوجل» عن خلطات جديدة تبرز ملامح الأنوثة، أمسح بها جسدي، جربت كثيرا من الوصفات، ولم ألحظ تغيّرًا ملموسًا لكنّي ما زلت مستمرّة، ربّما حتّى أرضي نفسي المكلومة، فتقنع وترتاح!

أتقلّب في فراشي يمنة ويسرة، أشتمّ رائحة الدمع التي بللت مخدتي، لِمَ أبكي؟

أليس هذا قدر الله، وهل على قدر الله اعتراض؟!

إن من أركان الإيمان أن يسلم الإنسان بالقضاء والقدر، وإلا فقد عنصرا مهما في المنظومة الإيمانية، هذه كلمات ماما كلما لمحت آثار البكاء على

وجهي، الذي يغدو كبالونة حمراء، تكاد أن تنفجر.

غدا موعدي في مركز تالا الطبي، الطبيبة العراقية المتميّزة، التي تفد إليها النّساء من كلّ مكان، أكّدت على ضرورة حضوري، هل تخبِّئُ لي خبرا سارا، أم إنّ الأمر سيّان، لا جديد في وضعي الصحيّ، لا بأس، كل شيء سيبين غدا، إن شاء الله.

في الصباح انسللت بجسدي بخفّة مُفرطة، كانت الساعة ما تزال تزحف في حدود الثامنة، حاولت التبكير قبل استيقاظ ماما التي صارت تنام كثيرا في الفترة الأخيرة على غير عادتها، كانت مصرّة على مرافقتي، ويبدو أنّها نسيت، سرّني ذلك كثيرا، لم أكن أرغب في حضورها، الأمر صعب بالنسبة لامرأة سبعينية يرهقها أقل مجهود، فكيف بالذهاب لموعد طبيّ في مسقط، يعوزه انتظار الدور لمقابلة الطبيبة؟!

إنّها المرّة الأولى التي أرى كثرة نسيانها مدعاة للسرور.

وصلت أخيرا إلى العيادة، التي تقع وسط غابة من البنايات العالية، كلّفني الوصول إليها عبور بعض الالتواءات، شعرتُ بأنّي ألعب لعبة المتاهة، مع أنّها المرّة الثانية التي آتي إليها، أتأسّف على ذاكرتي الجغرافية الهزيلة.

آخذ ورقة الموعد، وأدلف إلى قاعة الانتظار، إنّها تضجّ بالنساء الحوامل، بدا المشهد ساحرا، البطون المتكوّرة تشع فتنة ودفئا، يااااه ما أجمله من شعور! حين تسكنك روح أخرى تجاور روحك تسعة أشهر، تتقاسمان تفاصيل العيش، الغذاء والهواء، حتى المشاعر قد يكون لها سهم

من تلك القسمة أيضا، تمسح على بطنك التي تنتفخ ببطء، فتصطدم بركلة ناعمة، ياه كمية إحساس عجيبة، أكاد أطير غبطة كلما نبت أمل في جوفي؛ فأنا أنثى أحلم بالزواج والإنجاب، أحلم بطفل أناغيه وأداعب براءته، أحلم أن أقبل قدميه الناعمتين، وأشتم رائحة المواليد الجدد، أحلم أن أذرع محلات بيع أدوات الأطفال محلا محلا، أنتقي لصغيري ملابس قطنية، وألعابا تحدث أصواتا تنتزع ابتسامته، وتشعل قهقهاته.

جاء دوري للدخول عند الطبيبة، تدهشني ابتسامتها المحلّاة بلهجة بغدادية ماتعة.

- أهلا عيني حياة، كيف حالك؟
- مرحبا دكتورة، الحمد لله.
- الآن سوف أشرح لك كل شيء يتعلق بنتائج الفحوصات التي أجريتها معنا.

طارت بي الذكرى إلى أيام الدراسة، ومستشفى الجامعة، حين كانت الطبيبة هاجر تشرح لي حالتي من خلال نتائج الفحوصات، يومها كانت المرّة الأولى التي أعرف تفاصيل المتلازمة، أغوص في بئر الذاكرة، أتحسّس يديّ مريم الدافئتين وهما تعانقان يدي، تحاولان جاهدتين تخفيف موجة التوتر، التي تلبّستني حينها.

لكنّي الآن وحيدة دون مريم، أصارع توابيت الحياة، وما تدسّه في كفّها من خبايا، تتقاذف شظاياها علينا، بين آونة وأخرى، فيخيل إلينا أنّه التابوت الأخير، سيحملنا إلى حيث الرقدة الأبدية، لكنّ ظلال الرحمة تغمرنا،

وتنتشلنا من قتامة الموت إلى بهاء الحياة، ويُكتب لنا عمر جديد، نصارع فيه توابيت أخرى.

ابتسم بتكلف:

- تفضلي دكتورة.
- اسمعي يا حياة، طبعا أنت أخبرتني أنّه عندك علم مسبق أنك مصابة بمتلازمة ماير-روكتنسكي-كوستر- هاوزر (MRKH)، والمهبل عندك غير متخلّق، وحتى تتزوجي وتعيشي حياة جنسية طبيعية ممكن نعمل جراحة للمهبل، ونوسّعه إذا رغبتِ، الشيء الآخر المبشّر أنّ المبايض عندك سليمة، الحمد لله، في هذه الحالة يمكن تعملي زراعة رحم، أو تستخدمي فكرة الرحم البديل، أو الأم البديلة، لكن هذا ما زال ممنوعا في الدول الإسلامية، إلا إذا أجريتِ العملية في الخارج ممكن.

كنت أنصت إلى شرحها، وأرمق يديها البيضاوتين وهما تتراقصان في الهواء، بينما جوفي يشتعل، كرمضاء غادرها الغمام، فالتهمتها نيران الهجير.

عن أي بشارة تتحدث الطبيبة الجميلة؟!

نحن في مجتمع عربي! كيف لي أن أوسّع المهبل، وأزرع رحما؟

لا لا، يبدو الأمر أشبه بمعجزة، ثمّ إنّ عمليات زراعة الرحم قليلة في العالم على حد علمي، وتحتاج إلى متبرعة، وأسعارها خيالية جدا! أما التوسعة فلا أكاد أتخيّلها! ولم أسأل الطبيبة عنها، لا أدري لِمَ بدا الأمر بالنسبة إليّ مستحيلا؟

كانت علامات الاشتغال تتطاير من قسماتها وهي تنقر على لوحة مفاتيح حاسوبها، هي تدرك كما أدرك أنا تماما، كيف يبدو الموضوع عصيّا في مجتمع تسوده فرقعات العادات البالية، وتسكن عقول بعض أفراده أفكار مهترئة يابسة، أعلنت اصفرارها في خريف راحل. نحن في مجتمع ما زال غضًّا على تقبل مثل هذه النوع من العلاجات.

شكرتُ الطبيبة، وغادرت، أجرجر جسدي، ألقيت نظرة خجلى على المكان، بدت قاعة انتظار النساء باهتة وهشّة، تحوطها خفافيش الوحشة، المقاعد الحديدية الباردة، الجدران البيضاء التي ينسكب منها ضجيج السكون، يخاتله صوت أجهزة التكييف بطنينها الذي عقد هدنة مع الآذان، منذ حلّ أبريل، غادرت النساء، وكل واحدة منهن تحمل في صرة مخبوءة، في دهاليز فؤادها الوادع خبرا، أو بشارة، أو ربّما كلمات ظاهرها بهاء، وباطنها عتمة، يتخبط صاحبها بين طرق مسدودة!!

خرجت من العيادة، وقد همست لروحي: كوني بخير، لن ينساك الله، رفعت وجعي للسماء، وغصت في سيارتي، آيبة إلى المصنعة.

الفصل التاسع

أتأمل تفاصيل بلدتنا الصغيرة من زجاج نافذة السيارة، وأنا قافلة من المدرسة، البيوت القديمة اندثرت، لتحلّ محلّها الفِلل ذات الطراز الغربي التي تقبع بخيلاء، موصدة أبوابها الفولاذية على قاطنيها، يااه مرّ طيف بيوتنا القديمة، بباحتها الترابية الواسعة، و«ليوانها» الطويل الذي يفصل بينه وبين الباحة شرفة صغيرة، كنّا نسميها «وارش»، حتى هذه الكلمات أكلتها الحداثة الزاحفة، وغادرتنا دون أوبة، ولم يبق منها سوى فتات ذكرى مطموسة في قلوب جيلنا، والأجيال التي سبقتنا. كنا تنسابق لصعود سطح البيت حين ينقطع تيار الكهرباء، حاملين معنا فراشنا الصوفي، محاربين عتمة العتبات، تسري أصواتنا الطفولية الحادة إلى مسامع الجيران، وتغازل الآذان. وفي ممرات الحارة الضيقة كنّا نلعب الغميضة وقت العصر، ونتأرجح في أرجوحة من حبال بلاستيكية، معلقة على أغصان الشريشة العجوز. ثم اشترى لنا أبي أرجوحة حديدية، مكونة من كرسيين متقابلين، مشبوكين بقاعدة واحدة، ومستندين على أربعة أعمدة، تصدر صليلا يبدو مزعجا منفرا عندما ندفعها بقوة، لكنّه صليل تستلذّه آذاننا، ونتشبث بها، غير مكترثين به، كنّا نتدافع ونتشاكس، من يبقى مدة أطول على الأرجوحة، وكان ماجد أكثرنا تسلطا في هذا، إذا استوطن الأرجوحة لا يقوم منها إلا بعد صراخنا وبكائنا وشكوانا لأبي أو ماما كولجهان. يااه أيام مضت، بضنكها وانشراحها، كانت في بدء ومنتصف التسعينيات من القرن المنصرم، لم نكن كأطفال الأيام الراهنة، فنحن لم نعرف الهواتف المحمولة، ولا الأجهزة اللوحية، أو الألعاب الإلكترونية، كل ما لدينا أدوات بسيطة جدا، تلفظها البيئة فتتسلى بها، وقد نفترش

ظلال الشريش والغاف والبيذام، ونخترع ألعابا بدائية، لكنها توقظ الفرحة في أعماقنا، أما الآن فقد تغير كل شيء، حتى تلك الغافات التي شاطرتنا طفولتنا البسيطة ابتلعتها النهايات، وسطا عليها جبروت المدنية، أكل ملامحها الدافئة، وركل بقاياها في العدم، وجاءت الحداثة تمدّ أذرعها المخاتلة إلى أزقّة الحويرة، تلتهم عادات الجيرة، وطقوس القرى إلا قليلا من شذرات الوصل تشبث بها كبار السن من الشيوخ والعجائز، وربّما تنقضي بانقضائهم، فبعد أن كانت أبوابنا مشرعة للداخل والخارج من أهل الجيرة دون حرج، غدت الأبواب الفولاذية حارسا عاتيا أمام التواصل الهيّن بين أبناء البلدة الواحدة.

حين وصلت إلى البيت كان أبي جالسا على الأريكة، مطأطئ الرأس يبكي، وليس هذا ديدنه، تربّى أبي في حضن العسكرية التي علمته القوة والنظام، لم أعهده هكذا قطّ.

انتباني الهلع، جثيت على ركبتي، واقتربت منه، وضعت يدي على ذقنه، مسحت على لحيته، التي غزاها الشيب باكرا.

- أبي، ماذا حدث؟

سدّدت نظراتي صوب عينيه اللتين بللهما دمع حارق، فأحالهما كتلة من جمر.

أشاح بوجهه جانبا، وأسدل جفنيه، فانسلّت دمعة متربصة.

- عمّتي كولجهان، اليوم كانت خارجة لزيارة جارتنا خديجة.
- طيب... وماذا بعد؟.. هي معتادة على ذلك.

اجترّ نفسا طويلا، ثم أردف...

- المشكلة أنها تاهت، لم تتذكر طريق العودة إلى البيت، تخيّلي يا حياة، أمّك التي عاشت عمرها في الحويرة، وذرعتها حارة حارة، ونمت وكبرت بين براحاتها الرحراحة، ومزارعها الخضراء، ورمالها المنسابة، تضلّ

طريق بيتها؟ لقد وصلت إلى الحارة الشرقية، ورآها ولد حميد بن راشد، وأوصلها إلى البيت، المشكلة الأكبر أنّها غير مدركة فظاعة الوضع، ولا تصدّق أنّها كانت تائهة.

أطبقت راحتي على فمي، وأغمضت عيني، يبدو الأمر مرعبا، سبحت بي الذاكرة إلى تلك المواقف العابرة التي كانت ماما كولجهان تنسى فيها تفاصيل حياتية بسيطة اعتادت على القيام بها لسنوات، مثل مواعيد تناول حبوب الضغط، أو حتى أسماءنا أحيانا.

أنا أعرف جيدا لماذا تبكي يا أبتي، ربّما هي تلك البقع المعتمة في ذاكرتك، جرّتك لفخّها القذر، نعم لقد تذكرتَ أباك، جدّي «العود سالم» -رحمة الله عليه- مات متأثّرا بالخرف أو الزهايمر، هل تخشى يا أبي أن يكون مصيرهما واحدا، لا لا، كيف لي أن أفكّر بهذه البشاعة و... أستغفر الله، أستغفر الله.

أنتزع جسدي بقوة، وأهرول إلى غرفة ماما كولجهان، كانت ممدّدة على فراشها، وقد استسلم جسدها الذي نخره الهزال لنوم عميق، سمعت صوت أبي يهمس خلفي:

- دعيها ترتح قليلا، لقد تعبت على ما يبدو.

دسست نفسي في غرفتي، تتقاذفني أمواج كالجبال، من خوف وربكة.

حاولت تهدئة ذاتي، المعلقة حبا وولها بماما.

الأمر بسيط جدا، لا داعي للقلق أبدا، مجرد نسيان، كلنا ننسى، حتى الأطفال ينسون، ماما كولجهان التي لم أعرف أمًّا غيرها، ذلك القلب الكبير، إنها بخير، لا تقلق يا أبي، إنها بخير.

ستنهض من نومها، وتسأل عنّا، وستتصل بماجد؛ لتطمئن عليه، كما اعتادت بشكل شبه يومي، وستطهو لك «عرسية» الدجاج، التي تحبها، وحين تغازل

الشمس عينيها الجميلتين غدا ستأخذ قهوتها العمانية المحلاة بالزعفران والهيل وحبات الرطب، وتيمّم مسيرها صوب الغافة، حيث تجتمع الجارات: خالتي خديجة، والخالة زعيمة، وليلى وأم عبيد، وغيرهنّ، يبسطن الحصير، ويشكين صروف الأيام، ومغارات الدروب، وهموم الأبناء، تظللهن الغافة الرؤوم، يحتسين من قوتها قوة، يفردن الأحاديث الطويلة، وربّما يعرجن على أخبار الحويرة، وما جدّ فيها من زواج وطلاق وغيره، وينفث بعضهن زيادات لتلك الأخبار، محبوكة بمكر متعمد؛ للتشويق أو أسباب أخرى، تعشش في عقولهن.

لكن على كلٍّ... تلك التجمعات كانت بمثابة حياة الحياة لتلك النساء، يجدن فيها ذواتهن المعلقة بين حوائج الأبناء والأزواج، وماما كذلك كانت تجد فيها متنفسا ناعما للضحك والسلوى.

لا بأس عليك يا جميلة، ستزهر أوراقك، وتعود نضارتها.

أحاول النوم، لكنّه يستعصي عليّ، أووه أتذكر بريدي الإلكتروني، الذي لم أفتحه منذ أسبوع.

ثمة رسالة واردة من « خالد محمد»:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

الجميلة المبدعة: حياة

كانت الحيرة تتناوشني وأنا أحاول صف كلماتي التي تزف شعوري حين رأيتك للمرّة الأولى، حين أنصتُّ لحديثك المزدان بمنمنمات الثقة والإبداع، واللغة العربية الجميلة التي ينطلق بها لسانك اللبق، حضورك الجميل زاد الموضوع بهاء وعمقا، كنتِ كغيمة حبلى بالغيث، تحمل الاخضرار للأرض التي لوّثها اليباس، واستعبدها الجدب، هكذا كنتِ يا حياة، بملامحك البدوية الجذابة، عيناك اللوزيتان المصبوغتان بلون القهوة كانتا شهيتين كاللقاء بعد

النوى، فاتتين كالنور حين ينبلج من كوّة الضيق.

جلّ ما أتذكره أني عدتُّ إلى البيت مسحورا، ينتفض قلبي وكأنَّ ريحا غاضبة تحاول سرقته، تصارع الثواني والدقائق لا جتثاثه، نبضاته تلتحم بالفضاء، تفتِّش عن النور، تُقبل قشعريرة مباغتة، تهزّ أوصالي، أتساءل: ما بال تلك المعلمة؟ ما بال الدفء يتقاطر من عينيها، فيغرس في قلبي شطط الوله؟

أستاذة حياة:

الحقُّ أنا التقيت بنساء كثيرات، كان ذلك أيام الدراسة، وفي العمل، في الكويت وعُمان، وفي المؤتمرات، وفي أماكن كثيرة لا حصر لها، لكنّ الساعات القلائل التي رأيتكِ فيها، واستمعت لعقلك كانت مختلفة تماما، هل تصدقين أنّ تلويحة يديك الغضّتين حين كنت تشرحين محاسن المساحات الخضراء في المدرسة ما تزال تباغت أوقاتي، تتراءى لي بين الزحام، تمارس فتنتها الطاغية، ثم تهرب إلى حيث تندسّ، لتعاود الظهور مرّات أُخر.

حياة:

قد تظنّين أنّي أبالغ في شرح شعوري، أو ربّما أدّعي، لكنّي أذكّرك بقول برنارد شو: «الحبّ يستأذن المرأة في أن يدخل قلبها، وأما الرجل فإنه يقتحم قلبه دون استئذان، وهذه هي مصيبتنا».

هذا ما حلّ بي يا حياة، مذ التقيتك قبل شهر، ظللت أكابد الشوق، وأتنكّر لإحساسي المتوهّج كشمعة تأبى الانطفاء، حتى أقرّتْ ذاتي بسلطان الحبّ، وأزمعت على استقباله بصدر رحب، وأخيرا وبقلم يرجف كتبت، أتعلمين أنّنا حين نعتقل شعورنا في سجون الرّوح، ثم نسمح له فجأة بالانطلاق فإنّه لا يغفر لنا خطيئة الكتمان، وينطلق في مدّ بوحه حتى يسكن ويهدأ، إنّه كامرأة ثرثارة، سُدّ فُوها بقطعة قماش، وحين أزيحت عنها انتابتها حالة عجيبة من الثرثرة، لسانها لا

يبقى ولا يذر من الأخبار والحكايا، إنه الكتمان والإضمار، الذي يتكتّل في القلوب كجثث منسيّة، تفوح منها رائحة الموت، وأنا خشيت عقباه، فأزمعت البوح، وبسطت يدي لروحك الشفيفة؛ علّها تنقذني من هاوية الهيام».

«خالد محمد»

تلعثمت وأنا أقرأ كلمات هذا الرجل، انزلقت على شفتي بسمة حائرة، هل يقصدني؟ لا لا، إنه يتحدث عن امرأة أخرى دون ريب، ثم كيف واتته الجرأة ليبوح بهكذا حديث؟

في الحق، لقد تملكني العجب، شعرت أنه يعني بكلامه، الأقرب للشعر، امرأة أخرى.

تمعنّت في الاسم قليلا، خالد محمد، خالد محمد، إنه ذلك الشاب الوسيم المهندم، الذي جاء مع زمليه إلى الشركة لمعاينة مشروعي، مشروع «المدرسة الخضراء»... إنه كويتي إذن.

لا أريد أن أحلّق بعيدا، ولا أطلق عنان الأحلام، إنه ليس زمن المعجزات، التحليق مؤذٍ أحيانا، من الأفضل لأمثالي المكوث عند عتبة الواقع، إنّ الولوج في دهاليز الأمنيات الزائفة لن يرحمني، ثم إنّ الحديث في مسألة الحبّ الذي يقع من النظرة الأولى لي فيه حديث طويل، ورأي مغاير، أتعجّب منه، ولا أؤمن به قطّ.

ترددّت في الردّ، ثم شرعتُ أكتب:

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

أهلًا أستاذ خالد.

تشرّفنا بأهل الكويت الطيبين، الشغوفين بالعلم والمعرفة والأدب، أتذكرك حين جئتَ إلى المدرسة، في شأن تمويل مشروع «المدرسة الخضراء»، كنّا

سعداء أن نجد من يساند مشاريع تنموية كهذه، فالتعليم لا بدّ أن يُدرج في أولويات الدعم المجتمعي، لا سيّما من جانب القطاع الخاص، ولم تألُ شركتكم التي تعملون بها جهدا في تعزيزنا، وقد أحسنتم الزيارة، وكنتم خير رسول من الشركة، بدماثة أخلاقكم، وحسن أسلوبكم.

قرأت كلماتك كلّها، وقد لا أكون على قدر الاستحقاق الذي وضعتني فيه، شكرا لطيب شعورك الذي على قدر جماله نالني منه عجب.

أستاذ خالد: مشاعرك هذه هي أقرب إلى الإعجاب منها إلى الحبّ، فالحبّ لا يكون من النظرة الأولى، إنّه أعمق من ذلك، ألم تقرأ ما قاله ابن حزم الأندلسي في كتابه الموسوم بـ«طوق الحمامة في الألفة والألاف» في هذا الشأن:

«وإني لأطيل العجب من كل من يدّعي أنه يحبّ من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدّقه، ولا أجعل حبّه إلا ضربًا من الشهوة، وأمّا أن يكون في ظني متمكنا من صميم الفؤاد، نافذا في حجاب القلب، فما أقدر ذلك، وما لصق بأحشائي حبّ قطّ، إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لي دهرا، وأخذي معه في كل جدّ وهزل»؟

لذا لا أقول إلا ما يرضي عقلي، الحبّ لا يتأتى إلا من طول العشرة، وكثرة المداخلة، ومع ذلك أقدر شعورك أستاذ خالد.

وأنا من محبي الكويت، وأمجّد فيها ذلك الثقل الثقافي المبين، فخورون بكم».

«حياة حمد»

مرّ شهران، ووضع أمي يجري جري السحاب نحو الأسوأ.

بدت علامات الخرف أشدّ وضوحا.

لم نتوقع هذا الامتداد المباغت للمرض، وهذا التطور السريع، أخبرنا الطبيب أنّ ماما كولجهان قد وصلت إلى مرحلة الخرف المعتدل؛ بسبب مرض الزهايمر، وهي مرحلة متقدمة جدا، كان الأمر سيئًا حقا، نسيت ماما أسماءنا، كانت تناديني شمسة، وأحيانا جميلة، وأحيانا تديم النظر إلى ملامحي، ثم تعقب ذلك بسؤال، تتخلله بلاهة موجعة: من أنت؟ لم أعرفك!

أشعر حينها كأنّ سكينا حادة غرست في صدري، أرتمي على الأريكة، وأنخرط في نوبة بكاء شديدة، أنا حياة يا ماما، حياة القلوب كما كنتِ تناديني، حياة التي جاهدتِ لتربيتها وتعليمها، ألا تذكرين حين كنتِ تسرحين شعري، وتضعين عليه زيت الفازلين، الذي تحبين رائحته، ثم تجدلينه ضفائر، وأنا أنوح في غنج طفولي:

- ماما كولجهان، لا أحد من رفيقاتي يسرّح شعرها ضفائر، كلهنّ يسرحنه بتسريحة «ذيل حصان»، ويربطنه بشرائط ملوّنة من الأعلى، وأحيانا من الطرف السفلي، سيسخرن منّي، ومن تسريحتي التي ينعتنها بتسريحة العجائز.

فتردّين عليّ بثقة العارف والخبير:

- لا تهتمّي، ولا تلتفتي لأحاديثهن الجاهلة، شعرهن سيتساقط، ويتقصف، وأنتِ شعرك سيطول، إنّ ضفر الشعر يحميه من التساقط.

فأهدأ حينها، وتسكن نفسي، وأتخيل شعري كشعر إحدى أميرات القصص العالمية، التي أشاهدها في التلفزيون.

وحين أصبحت في الصف الرابع الابتدائي، كنتِ تطوقين رأسي ورقبتي بـ

(الوقاية)، وتقولين:

- لقد كبرتِ يا حياة، ويجب أن تتحجبي.

وحين أمتعض من الوقاية العريضة، التي أجهل لفّها لفًّا صحيحا، كنت تضحكين، ثم تردفين بلطف:

- ألا تريدين يا حياة أن يكون شعرك أسود، فاحما كشعر «سالي»*، هذه «الوقاية» ستحمي شعرك من أشعة الشمس، وسيكون سواده كسواد شعر «سالي».

ماما كولجهان، أنا لم أعرف أمي حفصة التي رحلت بعد ولادتي بخمس سنوات، استلّ الموت شبابها، ورحلت عند ربٍّ كريم، ولم أسأل عنها طويلا، أتدركين سبب ذلك؟ لأنّي ألفيت حضنك الدافئ، يشرع حدائقه الفاتنة لي ولأخي، يرشقنا بنسائم الحبّ، وما بعد الحبّ إلا الحياة الناعمة، والعناية الكريمة.

لا بأس يا ماما، سأكون إلى جانبك؛ علّي أردّ بعض ذاك الجميل، وتلك التربية.

في الحق لم يتوقف الأمر على نسيان اسمها وأسمائنا، كان الوضع أشد سوءا، ذات صباح تركتها تلبس ملابسها بمفردها، بعد أن ساعدتها في الاستحمام، لكني صدمت حين رأيتها تلبس ملابسها بشكل معاكس، هي لم تعد قادرة على مساعدة نفسها حتى في هذه الأمور البسيطة، اضطررت إلى المكوث معها جلّ الوقت، كان أبي يعينني على ذلك، لكنّ النّساء أعلم بشؤون النساء، أما ماجد فقد

* إحدى الشخصيات الكرتونية، التي أحبباها أنا ومريم في طفولتنا، لم يكن في بيت مريم تلفزيون، كانت تأتي إلى بيتنا حتى تشاهدها معنا، وكم هي المرات التي سالت فيها دموعنا؛ تعاطفا مع شخصية سالي.

قلّل زياراته للبيت، ليس عقوقا بماما كولجهان، وإنما ضعفا منه، لم يستطع ماجد مواجهة الأمر عن قرب، حاول غير مرّة لكنّه في كل مرّة يبادر لمد يد العون والسند يسقط باكيا، يجثو على ركبتيه، ويقبّل يديها، وصوت نحيبه يخترق سكون الأفق، يقرأ على مسامعه حكاية حبٍّ، عمرها عشرون عاما أو يزيد، ثم يكسره.

اختار ماجد البعد، وإذا أتى يتجنب النظر إليها، لقد كان ضعيفا حقا، لم أكن أعلم أنّ النساء أكثر صلابة من الرجال في هذه المواقف، لكنّه الحق، فمنذ بدء الخليقة وهنّ يجاهدن رحلة الوهن على الوهن، ومن بعدها تربية الأبناء، وإعدادهم للحياة، يعبرن توابيت الحياة، ويسخرن من الموت، لكنّ الأمر ليس هينًا أبدًا، يعوزه صبر جميل، وقوة جبارة.

لا ضير يا ماجد، تحتاج وقتا أطول لتعتاد، وبعدها عد إليها، هي بحاجتك الآن أكثر من أي وقت مضى.

كنت أوصد باب البيت جيدا حتى لا تخرج، وأوصي العاملة بذلك بصوت مهموس؛ لأنها إذا خرجت ستهيم على وجهها، ولن تدلّ سبيل الأوبة، لكنها حدثت ذات صباح، حين استسلمتُ لغفوة، وجدتْ أمي الباب مواربا، فخرجت، وحين صحوت لم أجدها في غرفتها، صدمت وارتبكت، شعرت برجفة تهزّ أوصالي، لم أعرف كيف أتصرّف، خرجتُ مهرولة إلى الغافة، حيث يجتمعن عادة في الصباح، لكنّ المكان كان خاويا، ثم حششتُ الخطى إلى بيت خالتي خديجة، كان الباب موصدا من الخارج، أدرت المزلاج بخفة وفتحته، حين دخلت كان السكون يفرش ملاءته في أنحاء البيت، ناديتُ بصوت عالٍ:

- خالتي خديجة... مريم... مريم

لم يردّ علي أحد، ربّما نائمات، أو ربّما خرجن للتسوق، فعرس مريم قريب.

خرجت من بيتهم، وأنا أجرّ أذيال الخوف والحيرة، لم يكن معي خيار سوى أن أخبر أبي.

وحين جاء أمرني بالعودة إلى البيت، وهو سيتصرف، لكني لم أقتنع، وأصررتُ على مرافقته والبحث معه، فانقسمنا، أنا أسأل الجيران، وهو يفتّش في المزارع والحواري.

كان ردّ الجميع أنّهم لم يروها، ولم تطرق أبوابهم، الساعة ما تزال تصافح التاسعة صباحا، لكنّ شمس يونيو شديدة الوهج، تبعث حرارتها باكرا، خشيت أن تؤذيها قوة الحرارة، فضربة الشمس عواقبها متعبة، وهي بها من الأمراض ما يغنيها عن ذلك، تعاطفت معنا الجارات، وخرجن معنا للبحث عن رفيقة الديار، ذرعنا الحارة حتى وصلنا إلى المزارع، ومن شدّة قلقي اقتربت من بئر المزرعة، ومططت رقبتي إلى مياهه العميقة.

جاءني صوت الخالة زعيمة، يصرخ بحسرة:

- تعالي يا حياة، لا توسوسي، لا يعقل أنّ أمك هوت بجسدها في «الطوي»، توكلي على الله يا بنتي، وأمك ما عليها باس، وسنجدها.

تسللت كلماتها إلى قلبي المفجوع، فزادته فجعا، كيف لي أن أفكر هكذا، أهو جنون القلق من يرسل هكذا وساوس، تغرف من هدأة عقولنا، وتحيلنا أشبه بالمعتوهين، لا ندري أي صوب نيمم؟

ألقيت نظرة عجلى على المزرعة التي أمضت ماما كولجهان جلّ حياتها بين شجيراتها ونسيمها، وطيرها وبهائمها، لقد انطوت السنون سريعا، فالزمن يسيل كالماء كما يقول واسيني الأعرج، يمضي ولا نشعر إلا ونحن نعانق صفحة الشيخوخة، وها هي ماما سالت أيامها سيل العرم، حتى ألفت نفسها معلقة بين الوعي واللاوعي، تتقاذفها عواصف الذاكرة المهترئة، فلا هي تحيا حياة الأحياء،

ولا هي مع الموتى، لا قدر الله.

اقترحت الخالة ليلى أن نتجه صوب البلدة المجاورة، ولكن من الطرق الداخلية المختزلة، ولم نكد نمشط بضع أمتار حتى هاتفني أبي:

- ارجعي إلى البيت، لقد وجدت عمّتي كولجهان.
- أين وجدتها، وكيف وضعها؟
- الحمد لله، بخير.

لوجهه المليح حين يغضب تعابير أقرب إلى الدفء منها إلى الحنق، كنتُ أرقب تلك القسمات وهي ثائرة، تمارس الغضب، أبي الطيب كان ساخطا على ما حدث، كيف لنا أن نغفل، ونترك الباب مفتوحا، وندع الفرصة مواتية لخروج ماما كولجهان؟ إنه الإهمال بعينه، أقسمتُ له أني نبّهت العاملة غير مرّة، وشددتُ عليها بضرورة إحكام الباب.

كان القلق يأكل ملامحه، ظل يتحرك جيئة وذهابا في الصالة، أحسست أن نياط قلبه ستتقطع، لا سمح الله بذلك، تهاوى على الأريكة، وقد وضع رأسه بين كفّيه المرتجفين، ثم قال في حزم:

- اسمعيني يا حياة، الوضع محتاج إلى حذر شديد، وما أريد أن يتكرر ما حدث اليوم، لا يمكن تخيّل كيف كان وضعها وهي جالسة عند عتبة الدكان إلى جنب عبود الأهبل، كولجهان بنت مسعود بن سالم تصل إلى هذه الحالة؟ أكاد لا أصدق!

نعم لقد مشت أمي مسافة طويلة حتى بلغت البلدة المجاورة، ومن الإعياء جسلت عند عتبة الدكان، مادة رجليها، ومسندة ظهرها على الجدار، بدت باهتة منطفئة، أشبه بالنساء المتسولات اللاتي يذرعن البلدان، ويحملن حقائب الفقر علّ مُشفقًا يناولهنّ مما أعطاه الله، يتلفعن السواد، ويهربن من الشرطة، هذه كانت

حال ماما كولجهان كما وصف أبي المشهد، حزّ في قلبي ما سمعت، كولجهان بنت مسعود، الصابرة السخية، بنت الأصول والقبائل، تصل إلى هذا الوضع المزري، تبّا لغلظة الدنيا!

في المساء جلسنا أنا وأبي معها، أخذ أبي يتحدّث كثيرا، ويجرّ ذكريات طفولته، وأيام صباه وشقاوته، وأبوه العود «سالم»، الذي كان يلقّمه سيطانا متعاقبة بعصاه «المحناية»؛ بسبب عدم اكتراثه بالدراسة، وتسيّبه من المدرسة، ثم خروجه والتحاقه بالجيش السلطاني العماني، كان أبي يسرد كل ذلك في خفّة ومرح، ثم يعقّب بابتسامة ماكرة:

- حتى العم سعيد، كان يتناوب على ضربي أيضا، متضامنا مع أبي.

وكنا نضحك، ماما كانت تضحك أيضا، بل تقهقه، لا أدري هل تذكرت تلك التفاصيل، التي تعبق منها رائحة الماضي والأحباب الذين غادروها، أم إنّ عدوى الضحك انتابتها لا غير؟

بعد تلك القهقهات نظرت إلى أبي، وقالت:

- أنت مبارك ولد النوخذة!! ثم أتبعتها بقهقهة عالية..

لا بأس عليك يا ماما، نحن معك، لن نحزن حتى لو أنساك المرض المخاتل تفاصلينا التي حرصت على إرضائها سنوات طوال.

أطرق أبي، كان يصارع احتقان الوخز، بعدها ربض صمت ثقيل، اخترقته ضحكات ماما الشاردة.

بعد مضي أسبوع، وبعد أن طلب إلينا طبيبها المعالج أن نحاول دائما أن ننعش ذاكراتها، قلت في نفسي لِمَ لا نغني معا إحدى هدهدات الطفولة التي كانت كثيرا ما تردّدها، أسقيتها حساء الشوفان والحليب ثم حمّمتها، وألبستها ثوبها الواسع الأسود، ولففته على رأسها الذي تحرص ألا تنكشف منه شعرة، ودهنت

الرقبة بمسحة من العود المعتق الذي تحبه، ثم دنوتُ منها، وأخذت أنشد إحدى هدهداتها؛ علّها تتمّها عنّي:

أهلي ومرحباين عودة

واسكنتك ضمير الفودة والله وغيره ما سكن

هوهو هوهو هوهو

وأخذت أكررها قدامها: هوهو هوهو هوهو حتى أشرق وجهها، وأخذت تكمل الهدهدة، وأنا أشاركها الإنشاد:

عليه بكرة مدلّاية

ريحة محزمة تنساق عليه بكرة طويلة ساق

فالرستاق بيصبح فالرستاق وريحة محزمة تنساق

الّي يابك ما ياي بغم ياي بخير ما ينضم

يالحبيب هوهو هوهو يالحبيب هوهو هوهو

في الحق لقد انتباتني فرحة عظيمة، لقد تذكّرت ماما كولجهان شيئا من الماضي، ربّما هذا علامة مبشّرة بشفائها، لا سيّما أنّها تتناول أدوية مساعدة. لم أشعر إلا وقد اتصلت بالطبيب المسؤول عن حالتها في مستشفى المسرّة، أخبرته بالتطوّر الجديد، شرحت له كيف تذكرت ماما كولجهان أغنية قديمة عمرها سنوات، لكنّ ردّه جاء باردا واهنا:

- لا تستعجلي الحكم يا حياة، مريض الزهايمر في هذه المرحلة قد يتذكر بعض الأمور، حتى لو كانت قديمة، لكن هذا لا يعني أنّه شفي، لا يوجد علاج نهائي لهذا المرض يا حياة.
- والأدوية التي تتناولها؟
- مجرد مساعدات لتخفيف الأعراض فقط، مثل: الأرق، والقلق،

والانفعالات، والاكتئاب.

- أنتم الاطباء متشائمون دائما، على الأقل طمئنوا أهل المريض بشيء سارّ.
- هل تريدينني أن أكذب عليك؟ ثمّ إنّ تفاصيل المرض وخطورته أمر متّفق عليه عالميا، وأنا لا أقول شيئا من عندي، المهمّ أن تستمرّ في تناول الأدوية، وتتلقى الاهتمام والرعاية، والرقابة الكاملة.
- طيب، شكرا لك دكتور.

لا ضير في ذلك، سنبذل قصارى جهدنا، وسنستطيع عليه صبرا.

كان كلام الطبيب صحيحا، إذ كانت ماما بين فترة طويلة وأخرى تتذكر بعض التفاصيل البسيطة، أذكر حين قالت لنا، ونحن جالسون نشاهد التلفاز معا:

- أين ماجد؟!

تبادلنا أنا وأبي نظرات الحيرة المغلفة بشيء من الغبطة، وبادرها أبي الإجابة:

- ماجد موجود وهو يبذل جهده في الدراسة، مثلما وعدك سيتغير، وسيتخرج بإذن الله.

هزّت رأسها، وأخذت تردّد:

- الحمد لله، الحمد لله.

همست لأبي حينها قائلة:

- ما رأيك يا أبي أن نخبر ماجد، ونفرحه أنّ ماما تذكرته من بيننا كلنا؟

زمّ أبي شفتيه، وصمت قليلا، ثم قال:

- لا يا حياة، لا تخبريه، أخشى لو أخبرناه وجاء ربّما ينصدم بنسيانها له مرّة أخرى، عمّتي تتذكر مرّة، وتنسى مرات كثيرة.

مرّت الأسابيع، والمرض يكبر داخلها، يكبر كوحش يمارس شراسته بكبرياء زائف، شراسة مخاتلة، تنمو وتكبر مع تقادم اللحظات، تمدّ أذرعها لتنهش ما

بقي من جسد.

كان الأمر مريعا حقا، أن يفقد المرء شيئا لم يكن في حسبانه من النعم العظيمة، لم نكن كلّنا نعي ذلك جيدا إلا حين كثرت حالات الشرقان، أو غصة الحلق عند ماما، دهشنا لذلك، والدهشة أصل المعرفة كما يرى الفلاسفة، وهنا عرفنا وفجعنا في الوقت ذاته، لقد نسيت ماما كولجهان كيف تبلع الطعام!

وبقيتُ أتساءل: أيعقل أن ينسى المرء كيف يمضغ الأكل، ثم يبلعه؟

شيء مربك حقا!

إنّها النعم، التي نعايشها، ولا نحسب قيمتها.

ومنذ ذلك اليوم، ونحن نهرس الطعام قبل أن نعطيها إياه؛ حتى لا تتكرر حالات الغصة، التي قد تؤدي في أحيان كثيرة إلى سدّ مجرى التنفس.

وإذا خرجتُ لغرض ما، فإنّي كنت أنبّه العاملة بذلك.

بعد أيام من ذلك، زارتنا رفيقات ماما كولجهان، إنّهنّ رفيقات «رايح الغافة»، الخالة خديجة أم مريم، والخالة ليلى بعطورها الفواحة، وكحلها الفرعوني، والخالة زعيمة التي رغم تعبها و«آلام رجليها» التي لا تزول، أبت إلا مرافقة الجارات لزيارة ماما. في البدء ارتمين في أحضان ماما، يقبلنها من وجهها، ويديها، ورأسها، ثم حين بدا نكرانها لهنّ، حلّ الصّمت على قسماتهنّ المشتاقة، وانطفأت نظرات الوله، حتى الخالة ليلى التي ترسل ضحكاتها بشكل دائب صمتت، لقد أخرست الصدمة أفواههنّ إلا من حوقلة واستغفار، وضجّ المكان بـ«لاحول ولا قوة إلا بالله» أمّا ماما فقد أرسلت إليهنّ نظرات ميّتة، وبسمة بلهاء، جعلتهنّ يبكين ويبكين.

مرّ وقت طويل، لم أفتح البريد الإلكتروني، ربّما بسبب اشتغالي بماما كولجهان ومرضها، وما يعوزها من رعاية، وربّما لسبب آخر، لا تريد نفسي

اللوامة الغوص فيه، لكنّي ذات ليلة، وأنا أحمل جهازي المحمول، وبجانبي قهوتي المسائية، المحلّاة بالسكّر البنيّ، أفتح المحادثات، يااااه آخر محادثة قبل شهر ونصف.

إنّها من خالد!

خالد ثانية؟ ماذا يريد مني؟

أنا لست من البنات اللائي يرحبن بالتسلية المجانية عند الشباب!

هذا فضلا عن وضعي و...

هل يريدني هذا المخلوق، صاحب الهيام والنظرة الأولى، أن أعدّ له تقارير عن حالتي الصحية، لنرى ماذا كتب:

«الجميلة حياة...

حين قرأت ردّك أيقنت أنّ قلبي لا يخطئ، وأنّي ذو حدس صادق، كما كانت أمي تصفني دائما، كانت تقول خالد من بين إخوانه عنده الحاسة السادسة، وكنت أتضايق من ذلك آنذاك، لا سيّما حين يتندّر إخوتي، وينعتونني بالساحر، لكني اليوم فقط أدركتُ أنّ وصف أمي لم يكن عبثا، ليس مديحا زائفا، نعم يا حياة، رسالتك الأخيرة جعلتني أوقن أني أحسنتُ الاختيار، إنك الفتاة المثقفة، التي تفتّش عنها روحي، كنتُ أظنّ أنّ بنات هذا الجيل لا يكترثن بتغذية عقولهنّ، ولا النّبش وراء المعرفة، وغايتهنّ السّعي وراء تحديثات الموضة، حتى عرفتك يا حياة وقرأت ردّك، فقلت في نفسي كم كان رأيي ظالما، وإنّ التعميم في مثل هذه المسائل غير منصف أحيانا، وهكذا لم يكن في جوابك على رسالتي سوى مزيد من الإعجاب بشخصك، والدهشة من فكرك.

ولقد أثرتِ موضوع الحبّ من النظرة الأولى، ولك حرية الرأي في ما تعتقدين، أمّا أنا فأقرّ أنّي أعجبت، وحسبته إعجابا عارضا، ستسحقه الليالي

وتقادم الأيام، لكنّه ظلّ يتوسّد روحي، تفاصيلك الناعمة تقتحم سكون قلبي، فتوقد فيه شطط اللقاء الأول حين لامسني دفء حسنك، وهكذا بان لي مع الوقت أنه الحبّ. صموده حتى الدقائق الأخيرة من كتابة هذه الكلمات هو خير دليل على أنه أكبر من محض إعجاب يا حياة، حسبي تلك الدفقات التي تتقافز من قلبي كلما زارتني نظرتك، وهمس صوتك لروحي، المحلقة في فضاءات الغرام، الحبّ يا حياة هو ارتعاشة، فإن دامت عند ذكر الحبيب، فهو حبّ لا ريب.

حياة أودّ الاقتراب منك أكثر، أخبريني عنك، حياتك، عائلتك، هواياتك، وهل أنت مرتبطة؟

في انتظار ردك».

رسالة خالد استفزتني كثيرا، كيف يجرؤ على الحديث هكذا، ومن هو حتى أخبره عن حياتي وعائلتي؟

رددت عليه ردّا مقتضبا جدا، أخبرته أنّ حياتي أمر خاصّ بي، ولا يحقّ لشخص لا أعرفه الخوض فيها، والسؤال عن تفاصيلها.

ورغم أنّ النّدم ساورني كثيرا على ردّي القاسي، وتجاهلي المتعمّد لكل ما كتب، والتركيز على العبارة الأخيرة، لكنّ عقلي كان فخورا بذلك، مغتبطا بتصرفي، الذي يجب أن تفعله كلّ بنت محترمة وعاقلة، ومن عائلة محافظة.

بعد ما يقرب من أسبوع جاءني اتصال هاتفي، من رقم غير مسجل، وحين رددت كان هو، أصرّ على مقابلتي وجها لوجه، أذكر حينها باغتتني ضحكة ساخرة: هل تعي ما تقول يا هذا؟! لست مضطرّة للشرح، اسمعني أنا حياة، بنت من عائلة ترفض رفضا قاطعا مع سبق الإصرار أن تجلس بناتها مع رجل غريب

في أي مكان، سواء أكان عاما أم خاصا، إنه أمر معيب، بل كارثة، هل وضحت الصورة أمامك الآن؟

كان ردّه هادئا، بدا لي وكأنّه يمتصّ زرقة المحيط، وجليد الشمال، قال:

- حياة، أنا قصدي شريف، وأريدك بالحلال!

اجترتُ نفسا مهترئا، زممت شفتي، رددت بوهن:

- أستاذ خالد، من يريد بنتا بالحلال لا يعرضها لكلام الناس.
- طيب يا حياة، اسمعيني، أحببتُ أن أتعرف عليك أكثر، وأخبرك بظروفي، وشعرتُ أنّ التواصل عبر الهاتف و(الواتس آب) لا يعطي الموضوع حقه، وكلام الناس لا ينتهي، ولو وضعنا له اعتبارا لن نتقدّم خطوة في الحياة.
- طيّب أستاذ خالد، سأفكّر، وأردّ عليك.

«سأفكر وأردّ عليك» ماذا دهاك يا حياة؟ هل يعقل أنك ستستسلمين لما يطلب، هل ستقابلين رجلا غريبا، أنت يا حياة تفعلين ذلك، لا لا، ماذا لو علم ماجد أو أبي، ماذا لو كانت ماما كولجهان على قيد وعيها، هل سيرضيها ذلك؟

كان الأمر مرهقا حقا، شعرت أنّ أحدهم قذفني في هوّة غائرة، جدرانها تلطّخها العتمة، هي دون قاع يرأف بك ويحتوي أشلاءك البائدة، تشعر بجسدك يترنّح بين جزيئات الفراغ، وروحك تعتلي التيه، تحاول الفرار من هذه المعمعة فتخفق!

كم يلزمني من الألم والخوف والتردّد حتى انتزع روحي من شتاتها، وأقف منتصرة على انحداراتي المتوالية؟! آثرت الصمت، وتجاهل الردّ على خالد، متعللة بالاشتغال بأمور الحياة والعائلة.

لكن التجاهل لم ينطلِ على خالد المحامي، الذي علّمه القانون كيف يرتاد

الطرق الملتوية، وينتزع رأس الحقيقة من الحفر المردمة، نعم ظلّ خالد يراسلني، ويلحّ في طلب اللقاء، حتى ساورتني فكرة ما، قلت في نفسي ماذا لو قابلته، وأخبرته بكل شيء، أخبرته أنّي امرأة بتر نصفها، نصفها الذي تعوّل عليه أمنيات الحبّ والزواج والأمومة، ربّما اقتنع بأنّي لا أناسبه، وتركني وشأني، وفعلا أزمعت على ذلك، واتخذت قراري، وأرسلت له رسالة بـ(الواتس آب) أب:

- أستاذ خالد، أين تحبّ أن نلتقي؟

***

كان المكان مكتظا بالبشر والضوضاء، وروائح العطور والبخور، ورائحة الوجبات السريعة، ومنتشيا بالحسناوات اللائي تلفّعن بالزينة والأحذية العالية والعطورات الفرنسية باهظة الثمن، وضاحكا من تمرّد الأطفال وفوضاهم الناعمة، كل شيء حولي كان مشتغلا بذاته، يسير في دوّامته، لكنّ ذلك لم يشفع لقلبي المنتفض خوفا من أن يراني أحدهم وأنا أجلس قبالته على طاولة واحدة، وبيننا قهوتان محلّاتان وصمت هزيل سرعان ما بدّده خالد بالحديث عن نفسه وعائلته، كنت منكّسة الرأس، يغشاني الخجل، ويتلبّسني الخوف، إنّها المرّة الأولى التي أقابل فيها رجلا غريبا لوحدي، ماذا لو رآني ماجد أو أحد من معارفنا وأقربائنا؟ حاولت إبداء القوة، لاحظ خالد رجفة يديّ، توقّف عن الحديث، وانزلقت على شفتيه ابتسامة حانية:

- ما بك يا حياة، خائفة منّي؟

رفعت رأسي وهززته نافية، تلاقت نظراتنا، شعرت أنّي رأيت هذه الملامح من قبل، لكن أين، أين؟ لا أتذكر، بدا خالد وسيما جدا، عيناه واسعتان، ورموشه كثيفة، شديدة السواد، وحاجباه كثيفان، كان يمتلك صفات الوسامة التي تحلم بها الفتيات عادة في فارس أحلامهن، ذكّرني بأبطال الدراما التركية، شعرت أنّي

أحلم، وأنّ سحابة الأمنيات تطوف بي في عوالم الخيال، وحين يصيبها الإعياء ستتمزق وتختفي، ويهوي جسدي المخدوع إلى حضيض الواقع الكاذب.

أفقت من شرودي على صوت خالد:

- حياة، ما بك؟ بماذا تفكرين؟

ونطقت أخيرا بحروف مهزوزة:

- أهلا خالد، تشرّفت بمعرفتك، ومعرفة عائلتك.
- حياة، بصريح العبارة، أنا أحبّك، وأريد أن أتقدّم لك. إذا كنتِ موافقة سأبلغ عائلتي. أبي يحبّ عمان، ومستحيل أن يرفض، لكنّ أمّي لها موقف مختلف، أتصدّقين أنّها تخاف من عمان، تقول إنّ معكم سحرًا وجانًا، حتى حين عرض عليّ العمل في فرع الشركة هنا في عمان، رفضت في البدء رفضا قاطعا، لكنّها مع الوقت وافقت دون اقتناع تامّ.

وأخذ يضحك، وأنا شاطرته بابتسامة، ثم أخذتني حميّة الوطن، فقلت:

- السّحر والجان في كلّ مكان، وخوف أمّك هو نتيجة صورة نمطية رسمها بعضهم عن عمان، وتمّ تداولها، وإن كان ثمّة سحر فهو في الماضي البعيد، الآن لا أثر لمثل هذه الترهات.
- صحيح، أتفق معك حياة، كل شعوب الأرض تؤمن بالأرواح الشريرة، مع اختلاف نمط التفكير والمسمّيات، تعجبني ثقافتك ولغتك، وطريقة تفكيرك.
- شكرا، كنت أريد أن أخبرك شيئا، و...
- ماذا؟ قولي حياة.
- أناااا
- أنت ماذا؟

- لا شيء.
- أنا أعرف، أنت جميلة وناعمة.

أحسست أنّ يدا قويّة امتدّت إليّ، فرَدَت أصابعها الخشنة على قشرة وجهي، كتمتْ على نفسي ولساني، تلك اليد الممتدة بعنف تحدّق في عيني كمارد نزِق أرهقته سنوات الحبس، كفّ قلبي عن البوح، وصمتّ...

اقترب خالد من عيني، غزت رائحة عطره روحي، لم أشعر إلا وأنا أزيح جسدي للوراء، همس بهدوء:

- أفهم من صمتك الموافقة.

قلت بضحكة خجولة متوارية:

- خالد، أنت «ماكل شوبك ني».
- ماذا؟

ثم ضحك ضحكة مجلجلة، وأردف:

- أهذا مثل عماني؟ ماذا يعني؟
- نعم، عليك أن تفتِّش عن المعنى، من خلال القرائن اللغوية في النّص، اعتبره واجبا مدرسيا.
- إن شاء الله أستاذة حياة.

واصل خالد ضحكاته، بينما واصلت أنا سير الصّمت، كنت جبانة حقًّا، عالقة في الأحلام، فرغم أنّي اقتلعت جذور العيب، ووافقت على لقياه لأخبره بسرّي، لكنّي انكمشت، هزلتُ، لم أعد قادرة على انتزاع خيوط الكتمان التي تعشش في روحي، تبّا لها، متى يحين أوان النزوح، وتصفو سماء القلب، متى يا الله؟

استأذنت خالد في الذهاب، كان مبتسما، أخبرني أنّه سيخبر والده؛ ليحجز

رحلة إلى عمان، وطلب رقم والدي، تردّدت كثيرا في الموافقة على إرساله، لكنّي فعلتها، ووعدته بذلك، وفي جوفي تتدحّرج جمرّة تغزل نيران الربكة، ما المنتظر يا ترى؟ أيحقّ لمثلي أن تنسج أحلاما بالزواج والحياة؟!

لايهمّ، سأرسل إليه الرقم، وحين يعلم حقيقة حالتي سيغادر، كما غادرتني نبوءات الفرح منذ أمد! تلك النبوءات التي رسمتها على جدران المستقبل حين كنت أتظلّل غمام المراحل العمرية الجديدة في حياتي، المراهقة والحلم بالفارس النبيل الذي سيضمّني إلى أحضان العشق، ويحملني على فرسه البيضاء، كلّها نبوءات زائفة، تخاتل البشر، وتغازل أمنياتهم، فيصدقونها حتى تباغتهم بالعتمة، فتتلاشى أحلامهم، وتسرقها ريح الابتلاء.

***

مرّت أسابيع ثقيلة بعد لقائي بخالد، وغفلت عن إرسال رقم والدي إليه، أو ربّما تغافلت بسبب وضع ماما كولجهان الذي صار أكثر سوءا، والمرض يمارس طقوسه المراوغة في جسدها الحبيب. ماما باتت عاجزة عن الحراك بمفردها، لم ندرك ذلك إلا حين سقطت في دروة المياه، وكان سقوطها الأخير، ومع حرصي الشديد على إعانتها حتى في قضاء حاجتها، لكنّي اشتغلت يومها، وما ذنبي؟ ألا يشتغل الإنسان وينسى؟ وكان لا بدّ أن أتحمّل غضب أبي، وإلقاءه عليّ وعلى العاملة وابل اتّهامات التّقصير، لا بأس، أتفهّم غضبك يا أبي، لكن فلتتأكد أنّي أحبّها، ولم أنس معروفها في تربيتي، ولا داعي أن تسمعني في كل مرّة عبارتك المكرورة: «حياة، أمّك كولجهان لم تقصّر، ربّتك وربّت ماجد، وهي الآن محتاجة وقفتنا معها».

نعم كان سقوطها الأخير، وكان الحمل أكبر عليها وعلينا، من يومها وهي تستوطن الكرسي المتحرك، نفورها منه في الأيام الأولى كان متوقعا وحتميا،

فمن اعتاد أن تحرّكه قدماه بأريحيّة ويسر يؤلمه أن يأسره كرسيّ متحرك، ويقيّد حراكه الحرّ، وإن كان حراكا فوضويا دون وعي؛ لذا حاولتْ الوقوف بمفردها غير مرّة، وفي كل مرّة كان جسدها الذي غزاه الهزال، يفترش الأرض كطير وهن جناحاه فعجز عن الطيران، عجزعن لعبته الأثيرة التي يتفرد بها عن سائر مخلوقات الله، التحليق حيث فضاءات الزرقة، يتمرّغ فيها كيف يشاء، دون أن يعبث أحدهم بذلك الشغف، هكذا انتهت حالك يا ماما، تشعّبت في جوفك حبال «الزهايمر»، فكبّلت شطط عشرات السنين، ذلك الذي اكتسى روحك قبل جسدك، شطط الحياة بين نسوة الحويرة، ورفيقات الدرب، وجلسات «الرايح» تحت ظلال الغافة، حيث تنسرب الحكايات المثقلة بالغصّة، لتمتزج مع ضحكات الرفيقات ومزاحهن وطبطبة الكلمات ورائحة القهوة السيلانية، وطقطقة الفناجيل، فيهون ثقلها، وتطير طربا كبالونة محشوّة بالهيليوم، لكنّ ذلك كله الآن يسكن في العدم، بعد أن بتر المرض مستودع الذكريات، فتفرّقت وغابت إلى حيث لا يعلم عنها أحد، ترى أين تختبئ؟ أيعقل أن يتلاشى هرم الذاكرة، ولا يخلّف حتى رمادا؟!

لم تيأس من المحاولة، تضغط بكفيّها على جانبي الكرسي؛ راغبة في الوقوف، الوقوف الذي اعتادت على ممارسته سبعين عاما، دون أن تستطعم نكهته، الآن بدا لها أمرا مستغلقا، وربّما بعيد المنال، يااااه كم نرفل في نعم عظيمة يحجبها الاعتياد عن أنظارنا! فلا نكاد نرى سوى ما ينقصنا، نعم ما ينقصنا فقط.

مرّ شهر كامل بأسابيعه الأربعة، وأيّامه الثلاثين، ونحن منغمسون في وضع ماما كولجهان، نتناوب أنا وأبي والعاملة، لكنّي استأذنتهم في الخروج، ولو لنصف ساعة؛ لأنّ ذلك اليوم كان مختلفا عن سائر أيام العمر، يوم حلمت به مع مريم أيام المراهقة، حين كنّا نحضر أعراس بنات الحويرة في غفلة عن أمّهاتنا،

نسترق النّظر بين حشود النساء اللائي يطوّقن العروس بالرقص والتصفيق، نودّ لو نلمح وجه العروس، بعد أن دهن بمتسحضرات التجميل المتنوعة، وهل تغيّر شكلها، وهل ترتدي فستانا أبيض أم زيًّا عمانيًّا تقليديًّا؟ وبعد أن نروي فضولنا، تقول مريم:

- في عرسي سأرتدي فستانا أبيض وطرحة، ولن ألتفت لترّهات عجائز الحويرة، لا أرى عيبا في لبس الفستان الأبيض، وسألبسه حتى لو لاكت النساء سيرتي سنة كاملة!

مرّت سنوات طويلة على أحاديثنا تلك، الآن يا مريم ستلبسينه، ليس لأنّ عجائز الحويرة قضى بعضهنّ نحبه، والبعض الآخر شلّت الشيخوخة حركته، بل لأنّ الزمن تبدّل، أيّامنا هذه ليست كأيام التسعينيات، كل شيء تغيّر، حتى نظرة الناس لأساليب الحياة الجديدة صارت أكثر مرونة، وربّما تساهلا في أمور كان المساس بها محظورا كاللباس والزيارات، وغيرها، لا شيء يبقى على حاله، هذه سُنّة الزمن والبشر والكون.

وها قد تحقق الحلم يا مريم، تقتعدين كوشة بنفسجية مسوّرة بالورد، وتبدين كإحدى أميرات ديزني، تحفّك نساء جميلات، يرقصن بجنون على موسيقى صاخبة، ليتك كنتِ لماجد عروسا تنثر البياض والفرح في بيتنا المدفون بوحل الغصّة، لكنّه «النصيب» كما قالت ماما كولجهان، أقترب منك، أشتمّ رائحة الفرح تفوح من عينيك وبسمتك، تبدين جميلة، تلتقي نظراتنا، تقفين رغم ثقل الفستان الأبيض وتسريحة الشعر المرفوعة والمزدانة بإكليل ألماسي ناعم، ومع انسراب دموعي ألمح دمعة متعلّقة بين جفنيك، أبادرك مازحة:

- عروستنا الجميلة، لا تبكي، فيختلط المكياج.

ابتمست، وأردفت:

- شكرا حياة؛ شكرا لأنّك معي الآن، رغم ظروف الخالة كولجهان.
- أنا معك دائما، لن تفرّقنا الظروف، سعيدة لأجلك، وأعتذر عن التقصير.

جلستُ إلى جانبها نتهامس، كانت سعيدة بوجودي معها، لكنّي لم أطل المكوث، استأذنتها في المغادرة؛ متعلّلة بوضع ماما، ولا أدري هل وضع ماما هو السبب أم تلك الأفواه التي حين رأتني تناسلت منها عبارات محمّلة بقذارة القلوب وانشغالها بما لا يمت لها بشيء؟

- العقبى لك حياة، لكنّا سمعنا رفضك لفكرة الزواج، هل هذا صحيح؟
- أو ربّما حبيب القلب ما زال يجمع لعرسكما الأسطوري!
- ربّما تعتقد بأنّها ما زالت صغيرة على الزواج، وتفكّر بالزواج في عمر الثلاثين أو الأربعين.

شعرت باحتقان يخدش صدري، لكنّي لم أكن في حاجة للردّ، شعرتُ لوهلة أنّ الصّمت في بعض المواقف قوّة، قوّة تربأ بك عن حثالة البشر، تجعلهم يحترمونك رغم أنفهم، وإن أبدوا خلاف ذلك، إنهم يقرّون في ذواتهم بؤس موقفهم، وخزي حالهم.

انصرفتُ من العرس، عائدة إلى البيت، أحاول رسم روزنامة للأيام القادمة؛ علّ الفرح يبتسم لي يوما.

الفصل العاشر

أقف قبالة النافذة، أطلّ على ضواحي «الحويرة»، مضى زمن غير قصير، حين كنّا أنا ومريم نذرع التواءاتها، تتمايل خطواتنا معها، بشعرنا المنفوش من الأمام، المنتهي بظفائر طويلة معقودة في نهايتها بخيط دقيق، كانت الطرقات المتربة كفيلة برسم آثار أقدامنا الحافية والمغبرّة، نمسك بعصا طويلة، ثبت في نهايتها علبة فارغة من المعدن (غالبا ما تكون من علب الحليب أو البقوليات)، نقودها متخيلين أنّنا نقود مركبة حقيقية، وحين نتأخر في العودة إلى البيت، أو نمرّ بزاوية مكتظّة بالصبية يغضب ماجد كثيرا، ويخبر ماما كولجهان أو خالتي خديجة، ويطالب بمنعنا من اللعب، أو التجوال في «الحويرة»، والاكتفاء باللعب بجانب بيوتنا، ومع أنّ مطالبه تقابل بالتجاهل في أغلب الأحيان، لكنّه قد ينجح بعض الأحايين في إقناع ماما، وإثارة مخاوفها الدائبة علينا، لا سيّما مع غزو العمالة الآسيوية آنذاك، وقيام بعض أهالي «الحويرة» بتأجير منازلهم القديمة لهم، ومع تسرّب بعض الصبية من المدرسة، والتحاق بعضهم بالجيش، وتكتّل البعض الآخر عند دكان «بابوه» وعتبات البيوت وزوايا البلدة، كلّ ذلك كان جديرا بجعل القلق يربض على قلب ماما، وحرمانها لنا من الخروج المكرور، مع أنّ أعمارنا آنذاك لم تتجاوز العاشرة، ونسغ الطفولة ما يزال يجري في عروقنا، ويتوسّط قلوبنا المحشوة زهرا أبيض؛ لذا تمردّنا كثيرا على ذلك القرار الجائر، فحين تجتمع ماما بالجارات في «الرايح» تحت الغافة، نستلّ أجسادنا الهزيلة، ونتسلل من الأبواب الخلفية غير مبالين بروث الأغنام التي تحدّق في الأجساد

المارة بينها، دون أن تقذفها بحزم الأعلاف، ثم ننطلق بعدها إلى حيث تتمرغ طفولتنا، وتمارس عنفوانها، دون ملل أو كلل.

يااااه.. مرّ وقت طويل، تقلّبنا فيه بين مدّ وجزر، وشهيق وزفير، وظلّ وحرور، الآن لم تعد «الحويرة» القرية الخجول كما كانت قبل عشرين عاما، إنّها الآن أكثر تخمة من ذي قبل، الطرق الداخلية المعبّدة تموج بشتّى أصناف السيارات الفارهة، والفلل التي يتسابق الناس لبنائها وفق أحدث التصاميم، وأحدث أنواع الحجر والرخام، جلّ هؤلاء استفادوا من الارتفاع المباغت لأسعار الأراضي الزراعية، حتى وصلت قيمة بعضها إلى مليون ريال، كانت هذه الضربة كفيلة بجعل الكثير من أسر «الحويرة» في مصافّ الأغنياء وأصحاب الملايين، البعض اشترى عقارات في مسقط، والبعض بنى منازل فخمة أقرب إلى القصور، بينما دخل بعضهم في مشاريع فاشلة جعلته يبكي دما وندما على اليوم الذي باع فيه مزرعته. لا شيء على حاله، التغيير سنة الكون، على الأرواح المتمرّدة أن تتقبل ذلك، وتصغي لمعزوفة الحياة التي تتبدل بين الفينة والأخرى.

رنّ هاتفي، رسالة «واتس آب»، إنّه خالد، أرسل إليّ صورته وهو يستقبل والده في المطار، ويقول: «إنّه أبي، يقولون بأنّي أشبهه كثيرا، وصل إلى عمان الآن، هذه المرّة جاء لقاؤنا مختلفا، لم أعتد عليه يذرف دمعا عند لقائي، فقط يكتفي بضمّي والتربيت على كتفي، يبدو أنّكم تجعلون اللقاءات أكثر حميمية، بلد آمن، وأهله طيبون، وأنا سعيد أنّ القدر سيجمعني ببنت مثقفة وجميلة، من أهل هذا البلد».

هذا الاندفاع المفرط لدى خالد يوغر في داخلي ثقبا عميقا، تتهاوى فيه جثث بشعة، تفوح منها رائحة الندم والحسرة، فلو أخبرته بكلّ شيء، لكنت الآن على

وفاق مع ضميري ونفسي، ولما تكلّف والده عناء المجيء من الكويت إلى هنا. بدا والده في الصورة وسيما أنيقا رغم أنّه خمسيني كما أخبرني، لحيته يشوبها بياض خفيف أكسبه هيبة، تفاصيل قسماته ليست غريبة عليّ، أشعر أنّي رأيتها في مكان ما، لم أعرف بماذا أردّ، فاكتفيت بالتّرحيب بهما. الغريب في الأمر هو موقف أبي، حين رحّب بخالد وزيارته، هل نسي أبي أنّ ابنته ليست كسائر البنات، هل غفل أم تغافل عن تلك المتلازمة اللعينة؟ أم إنّ زهايمر ماما كولجهان أنساه ذلك؟!

أخذت في ترتيب مجلس الرجال بمعيّة العاملة «لكشمي»، وفي يدي مبخرة وعلبة بخور تفوح منها رائحة العود المعطّر، ترمقني لكشمي بطرف خفيّ، هؤلاء العاملات الآسيويات لا يخفى عليهنّ أمر، يتلصّصن على تفاصيل أهل البيت كلما أتيح لهنّ ذلك، تبادر بالقول بلغة عربية مكسّرة، وتشير إلى إصبع بنصرها اليمين، ثمّ تبتسم بمكر:

- هياة، أنتَ عروسة، عروسة.

أتحاشاها وأنصرف إلى الصالة حيث ماما كولجهان تقتعد كرسيها المعدني وتحدّق في التلفاز، أشاكسها بالسؤال:

- هل تذكرين هذا المسلسل الخليجي؟ لقد تابعته قبل سنتين. كنتِ حريصة على حضور حلقاته جميعها، وحين فاتتك الحلقة الأخيرة بسبب حضورك عرس جارتنا نور، طلبتِ إليّ أن أفتح لكِ «اليوتيوب» حتّى تقرّ عيناك بنهاية أبطال مسلسلك... أتذكرين؟

تجول ببصرها على قسماتي، كطفلة تائهة، تفتّش عن والديها في مكان مكتظّ بالمارّة، تتهاوى نظراتي، أدرك حماقة سؤالي، أمرّر يدي على رأسها:

- لا بأس عليك يا ماما... طهور بإذن الله.

في الآونة الأخيرة، أصبحت تشتكي من أوجاع متفرّقة في جسدها، ولا نملك إلا مساعدتها على تناول مهدئات الألم، كما عجزتْ نهائيا عن قضاء حاجتها، فاضطررنا إلى استعمال «الحفّاضات»، نلبسها إياها بصعوبة بالغة، فهي تقاومنا بالصراخ، الصراخ هو الشيء الوحيد، الذي لا ينساه الإنسان، يظلّ يطلق صوته عاليا، لافظا معه كل أشكال الحرمان والقهر والغصة التي خلّفتها سنوات الصبر والجلد التي تراكمت في عوالم النفس الخفيّة، كأجساد تكدّست بعد انفجار مدوٍّ طال الأبرياء والعزّل. ربّما هي رحمة الله أن يظل نوح البشر دائبا مهما انسلّت أرواحهم من تلابيب الذاكرة، فيبقى كأنبوب تعبر منه مخلّفات النفس، وها هي تزعق رافضة أن يلمسها أحد. بعد أداء مثل هذه المهمّات، أتركها تتابع أنّاتها التي تضعف رويدا رويدا حتّى تهدأ وتسترخي.

لم تمرّ ساعتان حتّى وصل خالد وأبوه، كان أبي وماجد في استقبالهم في مجلس الرجال، بعد دقائق قليلة سمعنا جلبةً وأصواتا عالية، ظننتها في البدء أنّها من الخارج، لكنّ حدّة الصوت تتفاقم، هل أخبرهم أبي عن وضعي الصحي؟ لا، لا يمكن، أبهذه السرعة؟ إنّهم بالكاد دخلوا قبل دقائق، ماذا يجري؟ الأصوات تقترب منّا، إنّها مزيج من ضحك وبكاء وصراخ، لم يتسنّ لي التمييز بينها، جَلَبتهم تقترب من صالة البيت حيث أجلس قبالة ماما كولجهان محاولة إطعامها حساء الخضار المهروسة بعد أن اضمحلّت شهيتها في الأيام الأخيرة، ارتبكت، حدّة الصوت تقترب منّا، دلف أبي من باب الصالة المؤدّي إلى المجلس، وتبعه رجل مهنّدم، ذو لحية خفيفة، شاربه أكثر كثافة منها، يعلوها الشّيب، إنّه أبو خالد، دنا من ماما كولجهان، وقف لبرهة، كلاعب كرة قدم

استراح قليلا؛ ليستعيد أنفاسه الهاربة من فرط اللعب، طوّق جسدها المنطفئ، ثم خرّ في نوْحٍ لجّيٍ وهو يقبّل رأسها وخدّيها، ثم مال إلى كفّيها، احتضنهما بلطف، مرسلا قبلا متتابعة على تفاصيلها الشائخة، اخترق نشيجه هيبة الصّمت التي اكتسحت المكان، وقعت عيناي على أبي الذي اقترب منه مطبطبا على كتفه الذي أخذ ينتفض كطفل آذاه الصقيع، اقترب منه وهو يردّد كلاما أقرب إلى العتب منه إلى المواساة:

- اهدأ يا محمد، هذا قدر الله، احمده أن جمعك بها بعد هذه السنوات الطويلة.
- حين أخبرني خالد أنه يودّ الارتباط بفتاة عمانية ذات نسب وحشمة، فرحت كثيرا، خالد وإخوته لا يعرفون أنّي من عُمان، وحين عرفت أنّها من المصنعة فزّ قلبي شوقا وغصّة على الزمن الجميل، أمّا حين دلفنا الحويرة، فأدركت أنّ الأيام تدور وتدور، ثم تعود بك إلى نقطة البدء!
- الأهمّ أنّها أعادتك يا محمد، أعادتك إلى براحاتك الأولى، لقد مرّ وقت طويل، تقلّبت فيها عمّتي كولجهان بين قهر وغصّة، بكت كثيرا وناحت كحمامة تفتّش عن موطنها، نعم يا محمد، كنتَ الوطن الذي غادرها فأورثها الغمّ، وأخذت التكهّنات تتناسل من روحها الموبوءة، لو رأيت حالها حين وصل إلينا خبر احتلال الكويت في أغسطس عام 1990، جنّ جنونها، لم تهنأ بنوم ولا راحة، حاول أبي التواصل مع السفارة العمانية هناك ولم يجدوا لك أثرا، وفي معمعة الاحتلال، تقريبا في شهر أكتوبر من العام نفسه، بلغنا خبر مصرعك مع مجموعة من الأطباء على يد جنود المحتلّ الغاشم، لم تصدّق عمّتي ذلك، ورفضت إقامة العزاء أوّل الأمر،

كانت تخرج في أول الصباح، مستقلّة سيارة أجرة دون علمنا، تطرق أبواب كلّ من تعرفهم من زملائك أيام الدراسة علّهم يرشدونها لحلّ أو منفذ يوصلها إليك، أو ربّما ينفون خبر وفاتك، ولا تعود إلا حين تربض العتمة، تعود وهي تجرجر جسدها، وقد أنهكتها الحسرة. غضب أبي من ذلك، ومنعها منعا باتا من محاولة البحث بمفردها، أو حتّى محاولة البحث حتى لا تتراكم عليها الأوهام، وتفقدها صحّتها وعقلها، فالرجل الذي أخبره رجل ثقة، ولا شكّ في أمانته، فمكثت في بيتها، معتزلة الناس والجيران، وطرقات الحويرة والمزرعة استوطنت زوايا بيتها، وصامت عن الأكل والشرب، كنّا حواليها: أنا وأمّ حياة، وأبي، هزل جسدها، وكاد الموت أن يزورها، كنّا نتحايل عليها لإطعامها وسقيها، ولو بالقليل مما يصل عودها بالحياة، رغم رفضها القاسي، كانت تردّد: «وما حاجتي بالحياة حين غدوت بلا وطن تسرّ به عيناي». نال منها الإعياء، وأصابها الوهن، اصفرّ جسدها، وهزل كثيرا، نتأ فكّا وجهها من شدة النحول، فبدا بشعا مرعبا لمن اعتاد منها بشاشة المحيا وامتلاء الوجه ونضارته، كانت تتكئ على جدار بيتها المتآكل، وتردّد جملتها المكرورة:

- محمد قرّة عيني لم يمت، ما زال حيّا في مكان ما.

ثمّ تمدّ كفّها على الجدار، تلامسه نتوءاته النافرة من تقشّر الدّهان، وتردف:

- قرّة عيني، حبيبي الطبيب محمد، أخبرني أنّ أوّل راتب له سيصلح به البيت، ومع أنّي رفضت، لكنّه قال بأنّ البيت الجديد يليق بالعروس الجديدة، ففرحت، وأعددت له قائمة بأجمل بنات الحويرة والبلدان

المجاورة، وكلهنّ متعلّمات، الدكتور محمد لن يتزوج إلا بنت متعلمة وفاهمة.

وظلّت على هذه الحال سنتين متتابعتين، أيقنّا أنّ هذا الجزع سيعدّها لقمة سخيّة للموت، لكنّها نجتْ بفضل الله، وبتكاتفنا، وتكاتف جاراتها اللائي أخذن شيئا فشيئا يعدنها إلى «رايح» الغافة، جارتها التي افتقدتها وطالها الشّحوب، حتى شرعت تجرجر جسدها إلى ظلّها وقت العصر. ومع حكايا الجارات ومشاكساتهن، واجتماعاتهن، هُزم الموت أمامها، وأخذت تعقد شهيقا جديدا مع الحياة، تمّ ذلك ببطءٍ شديد، لكنّه تمّ، بيد أنّ الوجع ساورها ثانية، حين فقدت أنا زوجتي، بعد ما يقرب من عام، داس الفقد على قلبها مرّة أخرى، وجعلها طاعنة في الحزن، بدت كغيمة معلّقة في السّماء، غادرتها صويحباتها، فلا هي قادرة على زخّ الخير للأرض المتربّصة للرّواء، ولا هي قادرة على المغادرة والرحيل إلى حيث رحلت الأخريات، فعادت لاستيطان صومعتها، ونفرت من الحياة، حتى جئتها يوما وهي على حالها ذاك:

- عمّتي كولجهان، ليس لأبنائي غيرك، هم محتاجون إلى قلبك، أجزم أنّك ستكونين لهم خير أم.

ولم تردّني خائبا، بل أغلقت باب بيتها، وتبعتني إلى بيتي بين أبنائي، وهي كما تراها اليوم، هزمت توابيت كثيرة وصعدت على أكتافها، لكنّ الزهايمر على ما يبدو هو تابوتها الأخير الذي طمس قوّتها في درك سفلي، وسرق نصف حياتها، أليست الذكريات النصف الآخر من الحياة؟!

كان أبي يحكي، والدموع تبلّل لحيته، وتتساقط على حجره، وتختفي بين تغضّانته، ربّما حياء، إنّها المرّة الثانية التي أراه يبكي فيها بحرقة، المرّة الأولى

كانت حين اكتشفنا زهايمر ماما كولجهان. الرجال لا يبكون إلا إذا كان الموقف مستحقا، لقد اجترّ أبي ذكريات سنوات مضت غاص في سراديب الذاكرة حيث دسّ آلامه، وضعها في صندوق، وأغلق عليها بإحكام، لكنّها اليوم تحرّرت، وانفلتت من عقالها.

أرقب أبا خالد، ما يزال متشبّثا بماما كولجهان، لم يفلت يديها، كان الوضع مربكا حقّا، خالد وماجد، وقفا متخشّبين في مكانهما، يصارعان امتدادات الدهشة التي طالتنا جميعا، شعرت لوهلة أنّي أحلم، وددتُ لو يقرصني ماجد كما كان يفعل أيام الصّبا، يقرصني قرصا مباغتا، ثم يغوص في قهقهة ساخرة، وددت لو يقترب منّي الآن ويهزّني هزّا عنيفا، يوقظني من غور الصّدمة، لكنّ ماجد يجاهد وقع الخبر، كما أفعل، وكما يفعل خالد، التقت نظراتنا للحظة، غير أنّي أشحتُ بوجهي، مصوّبة نظري نحو ماما، كانت تحملق في ابنها محمد، في هذا الكائن المتغضّن قبالتها، هذا الكائن الذي وقفت في وجه الزمن منتظرة قدومه، موقنة أنّه ما يزال على قيد الأرض، لم تألُ في النّبش عن كل ما من شأنه أن يقودها إليه، وحين عجزت عن القبض على خيوط الحكاية أودعته في قلبها، وعلّقت صورته على حائط غرفتها، تناظره بين الساعة والساعة، تخلق معها حوارات وحكايا، وتصنع له في مخيلتها بيتا وعائلة، أذكر حين كنا أنا وماجد نصغي إلى تمتماتها، النافذة من باب غرفتها الموصد، ثم نطرح السؤال ذاته في كل مرّة: من تحدّث ماما كولجهان؟

في الفترة الأخيرة، أي قبل أن يفترسها الزهايمر بعام أو عامين، كانَتْ تستبدل الورد الطبيعيّ بالورد الصناعيّ، الذي يطوّق اللّوحة، وفي كلّ مرّة أخرجُ فيها

للتبضّع كانت توصيني أن أشتريَ لها باقةً من الورد الأبيض، تقصّ أغصانها إلّا قليلًا، ثمّ تطوّق به اللّوحة، وحين يأخذ في الذّبول والتّلاشي، تستبدلُ آخر به.

مدّت يمينَها إلى رأسه، وأخذت تمسحُ على شعره الذي خالطَه الشَّيب، هل تكفكفُ دموعه التي ذرفَتْ هي أضعافَها قبل سنوات، لم تزحْ عينيها عن مقلتيه، ترنو إليهما بتفرّس، هل تحاول انتزاع شيء ما من جوف الزّمن؟

بقيت لوهلة على هذه الحال، بينما أسند محمد رأسه على رجل الأريكة، كمن يتأهّب لإلقاء حمولة كريهة من القمامة، داست على نفَسه، وكمّمت رئتيه، التقت نظراتهما ثانية، هذه المرّة كان الأمر مختلفا، رأيناها، رأيناها جميعنا وهي تغالب دمعا تكوّر بين أهدابها، ثمّ ما لبث أن انسرب على خدّيها، كخيط رقيق فرّقته تجاويف التجاعيد التي خطّها العمر عليه، أقلقني بكاؤها، فمنذ أن حلّ الزهايمر ضيفا ثقيلا في بيتنا، صار بكاء ماما كولجهان كبكاء الأطفال، إمّا لجوع أو عطش، أو رغبة في النوم، أو امتلاء الحفاضة، أو ألم في مكان ما من جسدها، حاولتُ الاقتراب منها لكن إيماءة أبي منعتني، اقترب أبي، واحتضن وجهها الصغير وهو يمسح دموعها بظهر سبابته، بحنوّ ولطف:

- عمّتي، هذا محمد، ابنك الذي انتظرته طويلا، حدسكِ المرتوي بشقاء الأمومة حارب ظنوننا، كان صامدا أمام مواقفنا المناوئة، كثيرا ما ردّدتِ أنّ محمد ما يزال حيّا، للمرّة الأولى يا عمّتي، أدرك أنّ الأصوات التي تبعثها الأرواح المكسورة هي أصوات صادقة، فحين الكسر يكون الصدق هو المناصّ الذي نلوذ به، للتربيت على أوجاعنا، مرّ وقت طويل، لكنّ محمّد عاد يا عمّتي، صحيح أنّ الوقت تأخّر كثيرا، لكنّه عاد، وربّما تكونين الآن بحاجة إلى دفئه وعونه، أكثر من أي وقت مضى.

صُدمنا بموقف ماما، وبكائها عند ملاقاة محمد، لا أظنّها تذكّرته، إنّها في مراحل مرضية، عاجزة حتى عن أبسط السلوكيات الإنسانية، هي لا تدرك من هي، ولماذا هنا، فقدت ماما كل شيء، كلّ ما كبر وتشكّل معها عبر الزمن من أمكنة، وأشخاص، ومواقف، وعادات، ومعارف، لا يمكن أن تتذكره، ولكن أيعقل أن تظلّ جدران الشعور حيّة، يتراقص على أطرافها وجيب الذكر؟

أيهزم الزهايمر أمام طوفان العواطف؟ وهل استطاعت المشاعر أن تنفكّ عن شَرَكه؟

ضجّ المكان بصمت مهيب، طُمِست الأفواه، وحده محمّد من كان يبثّ حديثا كان قبل مكتّما.

لم أنم تلك الليلة، كنتُ إلى جانبها، هي أيضا نامت بصعوبة بالغة، كنت أمسح بكفّي على جبهتها، وأمسّد خصلاتها الفضيّة، أردّد ما أحفظ من الذكر والأدعية وقصار السور، تماما كما كانت تفعل معي ومع ماجد حين ينتابنا وخز الضيق كانت درجة حرارتها مرتفعة قليلا مما اضطرّني إلى إعطائها حبوب البندول، أذوبها في الماء ثم أسقيها، جلست ممدّدة جسدي إلى جوارها، وبين الساعتين والساعتين كنت أقلّب جسدها، هذا العمل المضني، نتبادله أنا وأبي يوميا، فمع دخول المرض في مراحله الأخيرة، يعجز المخّ عن إرسال إشارات، تحثّ الجسم على التقلّب التلقائي أثناء النوم؛ لذا أكّد الطبيب على ضرورة تقليب جسدها، كل ساعتين؛ حتى لا يتقرّح، ويصاب بالتسلّخ، الأمر مجهد للغاية، لكن لا مناص منه، لا يمكننا التخلّي عن أمّنا، التي سخّرت صحتها وشبابها لأجلنا، آاه يا ماما كولجهان، أين كنتِ؟ وإلامَ آلت بكِ الحال؟!

في تلك الليلة حكى محمد، تهاوت الكلمات من فيه كنيازك منطفئة، غادرت مرتعها، حكى محمد، وكنّا منصتين، نتفحّص الكلمات، والتواءات الحكايات؛ علها تسوّغ له عقوق أربعين عاما:

«بعد فجيعة فقد والدي عام 1988 عدتُ للكويت ثانية، كنت في السنة الخامسة في كلية الطبّ في جامعة الكويت، عدتُ وأنا أتجمّل بالصبر على فراق أبي، أبي الذي أرادني أن أكون الدكتور محمد، يتباهى بي في «الحويرة» والمصنعة، بل وعمان كلها، وحتى معارفه في قطر، لكنّه رحل إلى جوار الله قبل أن يتمتّع بذلك الشعور، عدت إلى الكويت وأنا مكبّل بأغلال الكتمان الذي غرس مساميره النافرة في صدري دون رأفة، ولم أجرؤ على البوح، وانزوت الكلمات في ركن مهمّش في صدري، ربّما كان يعوزها زمن مضاعف حتى تنسلّ من مرتعها، تعابير أمي السادرة في فضاء الحب والشوق، والمباهاة بابنها الوحيد واليتيم، هي أيضا كانت تنتظر الدكتور محمد لتفاخر به جاراتها، قالت وهي تودّعني قبل عودتي:

- أنهِ دراستك وتدريبك، وعدْ بسرعة، أعددتُ لك قائمة بأجمل البنات، وبعضهنّ متعلمة مثلك، وأنهت معهد المعلمات، وبنات قبائل وعوايل معروفة ووو...

وسافرت وأنا أحمل وزر ظنونها البيضاء، ليتني بُحتُ لها بكل شيء، لماذا عدتُ وأنا أحتفظ بالسرّ نفسه، الذي عزمت على إخبارها به بعد عزاء والدي؟ ألأني خشيتُ أن تُفجع مرتين؟ أم سلبتني تلك النظرات الحافلة بالأمل قدرة الإبانة عما فعلته دون مباركتها؟

ليتني أخبرتك عن فاطمة يا أمي، كنتِ ستحبينها، وتفرحين بها، لماذا كنت أعتقد غير ذلك، ألأني تجاهلت قائمتك التي صُنعت على يديك؟ أم لأني فعلتها دون إعلامك وإعلام أبي رحمه الله؟

حين عدت إلى الكويت كانت فاطمة على وشك الإنجاب، وبعد ما يقرب من شهر، ولد ابننا الذي أسميناه على اسم أبيها، فاطمة هي زميلة الطب، تعرفت عليها وأحببنا بعضنا بعضًا، وتزوجنا، ربّما كنا متعجّلين في اتخاذ مثل هذا القرار، لكنّه العشق الذي عجزنا أن نحتمل صهيده، فآثرنا سبيل الحلال، وعاهدتُ نفسي أن أجد الوسيلة الملائمة لإخباركم بذلك، كنت أقرّ في دواخل ذاتي أنّ ما فعلته منافٍ لرغبات أمي، هي ككل الأمهات تحلم أن تزف ابنها إلى عروسه، وتغلق عليهما باب الحلال، مباركةً جمعهما بين طراوة الحبّ، وفي الصباح تستقبل نسوة «الحويرة» بابتسامة عميقة وهنّ يدلفن بزغاريدهنّ باب بيتنا مهنئات، ينثرن الورد المحمّدي، ويتقن لرؤية عروسة محمد في صباحيتها الأولى، لكنني كنتُ سيئا إلى الحدّ الذي قتلت فيه تلك الأمنيات، كنت أنانيا، ولأغفر لنفسي ما صنعت، قرّرت أن أعود إلى عمان فور انتهاء التدريب (سنة الامتياز) وآخذ معي فاطمة وخالد، وأنا موقن أنّ قلب الأم قدّاس، يضجّ بالغفران، هو كالبحر الكبير الممتد، يصون طهره مهما لوثته بقايا البشر والبواخر وعواصف الشتاء المحمّلة بأشلاء سرقتها الريح من فتات المدن وخراباتها، يلفظها متحررا من لوثتها، ويظلّ صافيا، يغزل نسمات الجمال لكل الواقفين على شطّه؛ لذا عشتُ متشبثا برأفة ذلك القلب، آملا في الأوبة.

لكن حدث ما لم تحسب له الكويت ولا العالم أجمع، كان ذلك في الثاني من أغسطس، في الصباح المشؤوم، أفقنا لبدء يوم جديد نمارس فيه أعمالنا

وواجباتنا، ما لنا وما علينا، وحين أطلت رؤوسنا من النوافذ المشرعة على خيوط الشروق، كانوا هناك، منغرسين كنباتات ضارّة، ترشق سمّها لمن يقترب منها، تناثروا في كل مكان، يحملون بنادقهم، متشحين بزيّهم العسكري، كان المشهد مباغتا ومرعبا في الوقت ذاته، طرحت ملامحنا ألف سؤال وسؤال، وحين فتحنا التلفاز، كان كل شيء غريبا، فقد سيطر المحتلّ على مقرّ الإذاعة والتلفزيون، وأخذ ببثّ ما يخدم مشروعه الاحتلالي الذي أقدم عليه في غفلة من الدنيا، هرع البعض للشوارع يسألون، انتشر الذعر بين الناس والأطفال، أنا وفاطمة كنّا نتأهّب للذهاب لمستشفى مبارك الكبير حيث كنّا نتدرب، مكثنا بضعة أيام لم نغادر البيت، بعدها تمكنّا من الخروج، ومزاولة العمل في المستشفى، كان الوضع مقلقا جدا، ومع استمرار الاحتلال الغاشم، قلّت المؤونة الغذائية والصحيّة للسّكّان، أصبح الجهد مضاعفا في العمل، لا بد من التعاون لتوفير الأدوية للمرضى المرقدين، عاد كثير من الطلبة الدارسين إلى عمان، بالنسبة لي كانت العودة أمرًا محالًا، ليس لأني متزوج ومعي طفل من أم كويتية، وطبيبة أبت ترك واجبها الإنساني والمهني تجاه وطنها، بل لأنها الكويت التي تعلّمت فيها أنّ الطبّ مهنة إنسانية قبل كل شيء؛ لذا كانت المغادرة قرارا مستبعدا، فإمّا النّضال حتّى يكشف الله غمّة الوطن، وإما الاستشهاد، هكذا تعاهدنا أنا وفاطمة، كان المستشفى أشبه بالخليّة، الكلّ يعمل ما بوسعه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، كان الأطباء والجراحون يتواصلون مع جمعيات تعمل بشكل سرّي لتوفير الأغذية والأدوية لمرضى المستشفيات، والتعامل معهم يتطلب مغامرّة وسرية تامة، لا سيّما أنّ الاحتلال كان يمدّ أذرع مخابراته وجاسوسيته في كلّ مكان، وكثيرا ما سمعنا عن أولئك الذين اختفوا بين عشيّة وضحاها، لا يعلم لهم سبيل فقط لأنّهم يعملون

في هذه الجمعيات المموّلة، والأشدّ ألما هو ما سمعناه عن زملاء المهنة الذين أعدموا، ووضعت جثثهم عند عتبات بيوتهم قهرا لأهاليهم، وربّما تخويفا لغيرهم، لكنّ ذلك لم يكن ذا بال بالنسبة لمن يدرك أنّ التوقف عن العمل يعني الموت والنهاية الحتميّة للمرضى؛ لذا واصلنا العمل دون اكتراث بالتهديدات، حتى جاء ذلك اليوم، الذي غير مجرى حياتي و... ».

غيَّر محمد جلسته، أسند رأسه على الأريكة، أسدل جفنيه اللذين نفضتهما جفوة الدنيا نفضا يليق بهما حتى صارا خفيفين هزيلين، رفع رأسه ثم أعاده ثانية، كمن يحمل أثقالا أعيته، ثم أردف:

«كنا منهمكين في العمل، بعضنا يرابط في قسم الطوارئ، ذلك القسم الذي لا تسكن له ريح، وقد اشتدّت بعد الغزو، فأصبح العمل هناك أشد وعورة وأشقّ جهدا بسبب تزايد أعداد المصابين جرّاء الاحتلال، عملنا أنا وفاطمة فيه لفترة، ثم انتقلنا إلى الأقسام الأخرى، لكن بسبب الضغط الكبير على قسم الطوارئ، وازدحام مدخله بالسيارات الخاصة، وسيارات الإسعاف، وتقلّص أعداد العاملين فيه، عدنا للعمل في هذا القسم، نستقبل الجرحى العسكريين والمدنيين، كان الأمر مرهقا جدا، وفي السابع من نوفمبر، ونحن في غمرّة العمل أصبت بدوار شديد، شعرت كأنّ زوبعة غاضبة تحرك جسدي، أو كأنه قذف وسط دوامة قوية، كان كل شيء حولي يدور، الجرحى والمرضى ومعدات العلاج وأدوات التضميد، حتى زملائي الذين كانوا يركضون نحوي، بدوا كأشباح تتطاير في الهواء، بدا لي كل شيء ضبابيا، وبدت الأشياء متماهية مع بعضها، ثم شرعت تتلاشى شيئا فشيئا...».

اقتربَ قليلا من ماما كولجهان، لثمّ جبينها، ثم وضع رأسه على حجرها، كانت ترقبه بعينين شاردتين، أتساءل هل يموت الحبّ؟ وأيُّ حبّ؟ إنّه الحبّ الذي خرج من رحم الغريزة، هذا الحبّ محال أن يطاله الكذب، أو تعتريه المراوغة، إنه صادق، صادق جدا، أديم النظر إلى عينيها؛ علّني أراه.

قطع ماجد تأملاتي، مسائلا محمد:

- دائما يقال الغائب عذره معه، أكملْ عمي محمد، ماذا حدث بعد أن أغمي عليك؟

لا أدري لماذا شعرت أنّ أبي لم يستسغ فكرة «الغائب عذره معه»؟ ألأنه رافق ماما كولجهان رحلة المعاناة التي عاشتها سنوات طويلة في انتظار هذا الغائب الذي جزمت أنّه لم يمت كما زعموا...؟! عاش معها لحظات الوجع لحظة لحظة، شهد على هواجسها وآمالها وآلامها وهي تتناسل كخلايا مكروهة لا بد من بترها حتى تستطيع مواصلة العيش دون التعلق بشيء قد مضى، ربّما كنّا أنا وماجد ذلك الترياق الذي خفّف حدّة السمّ من الجسد الموبوء، لكنّه دون شك لم ينقّه كاملا، ثمّة بقايا تغمر زواياه، توقظ غصّته بين فترة وأخرى.

دنا خالد من ماما كولجهان، قبّل يمينها، ثم ربّت على كتف والده:

- أكمل يا أبي، أنا أيضا أريد أن أعرف ماذا حدث بعد ذلك.

اعتدل محمد في جلسته وهو يمسح دموعه التي بلّلت لحيته، ثم أردف:

«بعد سقوطي لم أصحُ إلا بعد أسبوعين تقريبا، أخبرني الأطباء أنّي أصبت بجلطة دماغية مباغتة. هي لم تكن من النوع الشديد، كانت طفيفة نوعا ما على حدّ قولهم، ربّما بسبب الأرق وقلة النوم والعمل المتواصل، لكني فقدت معها جزءا منّي، فقدت ذاكرتي كما أعلمتني فاطمة بعد شفائي، أو جزءا منها، حتى

فاطمة التي احتواني معها الحبّ والزواج والأبوة، لم أستطع التعرّف إليها، حتى ابني خالد، لم أعرفه، كنت أردّد كلمات، مثل: «أمي» و«الحويرة» و«المصنعة»، كما أخبرتني فاطمة في ما بعد، كان لساني ثقيلا حين النطق، وفقدت جزءا من ذاكرتي التي تذكرت الأشخاص والأحداث القديمة المرتبطة بمرحلة الطفولة فقط، بينما عجزت عن تذكّر عائلتي الصغيرة التي آلمها ذلك، فاطمة التي تنزف بجروح الوطن المغتصب أثقلتُ عليها بمرضي، وآلمتها بنكرانها، ونكران ابننا، لكنه نكران بائس لا يد لي فيه، هي أدركت ذلك، فاطمة القوية، هي الابنة الوحيدة لوالدها الذي يعمل معلما وتربويا، ذلك الأب الذي غرس في قلبها مجابهة الحياة بسلاحي العلم وقوة الإرادة؛ لذا لم تستسلم، فبعد انتهاء الحرب رتّبت لسفري للخارج لإكمال العلاج، ولم يكن الأمر سهلا بسبب ظروف البلد وما آلت إليه بعد مغادرة العدوان، فقد خلّفوا وراءهم دمارا، حتى بيوتنا طالها الخراب، وقد فقدتُ جوازي وسط هذه المعمعة، مما اضطرّ فاطمة بعون من والدها ومعارفه أن تستخرج لي جواز سفر كويتيًّا، وسافرنا معا إلى لندن لتلقي العلاج، لكنا لم نمكث هناك طويلا، فقد أكدّ الأطبّاء أنّ فقد ذاكرتي جزئي ومؤقت، وسأستعيدها مع تقادم الوقت، وهذا ما حدث بالضبط، فلم أكمل سنتين حتى اكتمل سيناريو الذاكرة عندي، وعدت إلى سابق عهدي و...

- وأمّك...؟

زعق أبي بصوت تشوبه الغصّة، بدا محمّلا بكمٍّ هائلٍ من العتب، ألقاه في صرخة، صرخة واحدة حملت شظايا الفقد التي تكدّست على سلالم العمر، عمر ماما كولجهان الذي حثّ خطاه وهي ما تزال متشبثة بخيوط العودة، حتى فارقها نصفُ الحياة، زعق أبي وعيناه ترنوان بحدّة إلى محمد، بدا وكأنّه

يحمّله وزر كلّ شيء حتّى الزهايمر الذي استوطنها دون رحمة... ، كل شيء.

- لم أنسها...

أثناء رحلتي العلاجية في لندن، بلغني ذلك الخبر الذي أنقض ظهري، قد لا تصدقني إذا أخبرتك أنّي طوال السنوات الطويلة الماضية، عشت تحت صهيد كذبة موتها، أحدهم، ولا أذكر من، أخبر فاطمة بذلك، ولم أكن حينها في وضع صحيٍّ يسمح لي بالعودة إلى عمان والمشاركة في مراسم العزاء، فأنا بالكاد تحمّلت الصدمة، ظللت أياما منعزلا في غرفتي في المستشفى رافضا رؤية أحد، حتّى فاطمة صرختُ في وجهها غير مرّة. أذكر ذات مساء جاءتني برفقة الطبيب هاري الذي يشرف على علاجي، كنت ممددا على سريري أغوص في ذكرى «الحويرة» ومزرعتنا، وشواطئ المصنعة المكتنزة برائحة النوارس، وحكايات الصيادين، كانت ذاكرتي تصول بين مراتع الطفولة الأولى، حين دخلا لم أتمالك نفسي، انخرطت في نوبة بكاء شديدة، كانا يريدان إقناعي بضرورة العودة إلى ممارسة العلاج الطبيعي، فالوقت لا يحتمل التضييع.

مرّت الأشهر سراعا، واستجاب جسمي للعلاج، وبدأت ذاكرتي تستعيد نفسها رويدا رويدا، ومع تحسّن حالتي عدنا إلى الكويت، وهناك سرقتنا الأيام، واشتغلنا بفتح عيادة خاصة بنا، أنا وفاطمة و...

وحكى محمد عن وطنه الجديد، هو لم يقل أنّه نسي عمان، ولم يأت على ذكرها قط، غير أنّ رحيل والديه، كان رحيلا للوطن، وفاطمة هي الوطن الجديد الذي سيحفر على أرضه قواعد لقصور الأمنيات والأحلام،

والمستقبل المنتظر، هناك كما أخبرنا بعد ذلك صنع أمنيته، وأصبح الدكتور محمد سعيد، طبيب العيون المعروف، الوطن عند محمد كان العائلة، كان كولجهان وسعيد، وحين غادرا عند الله حملا معهما رائحته، ليتسنّى للروح أن تفتِّش عن الانتماء في ركن آخر حتى لو كان قصيّا لا يحمل شيئا من خيوط الطفولة ومنابت الصبا، لكنّه وطن بنكهة العائلة، العائلة عند محمد هي ما يصنع الوطن، ودونها يظل الإنسان عائما شاردا، تلتهمه الوحدة حتى تنجرف رجلاه إلى القبر.

أبي الذي ظلّ طيلة الوقت محمّلا بأطنان العتب، كان ينصت إلى محمد، وعيناه تقطران لوما، حتى قاطعه بحدّة:

- وعُمان؟!
- .....
- ألم تتراءَ أمام ناظريك، وأنت تمضغ فتات الغياب، والخيااا...
- ليست خيانة، هي وطني لا ريب، لكنّ الأرض التي لا أجد فيها أمي، لا أقوى على العيش فيها! الغياب الذي تتحدث عنه وهبني الكثير، وأهمها العائلة.

أتلصّصُ على عينيها المغمضتين وهي متخشّبة على سريرها الأبيض، أتساءل: هل يحلم مرضى الزهايمر؟ وإذا حلموا، فماذا يرون؟ أيزورهم الغائبون كما يفعلون في مناماتنا؟ لكن من أي كهوف الذاكرة يخرجون إذا كانت تلك الكهوف قد أوصدها المرض، منذ أن أنشب أسلاكه في الأجساد فأحالها أنصافا دون هوية؟ مضت ساعتان منذ أن غفت، تتعاون كفّاي لقلب الجسد المسجّى على جهة الظهر، تغيير وضعية النوم مهمّ جدا، هذا ما أكّد

عليه الطبيب المتابع لحالة ماما كولجهان؛ حتى لا نقع في مشكلات جلدية، تزيدنا عبئا على أعبائنا...

تظل حيران حين تخلق مع أحدهم كيانا جميلا، يكبر ويكبر، منتظرا لحظة اللقاء التي لا تدري من يقرّرها، أهو القدر أم العقل أم القلب؟ تستفتي روحك المولعة بالآخر لتجيبك باللاشيء، ثم فجأة يصنع القدر لكما منفذا غريبا لم تحسبا له حسابا، هكذا فكّر خالد وهو يرسل لي أول رسالة منذ تلك الليلة التي كشفت ما ستره الزمن سنين، انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة من خلف الكلمات:

- حياة يا حياتي... إلى الآن لا يكاد عقلي يستوعب ما حدث، حياة أنت قريبتي، أتعرفين؟ كنت أرفض زواج الأقارب، لا سيّما حين تلحّ عليّ أمّي بالزواج من إحدى بنات خالي أو خالاتي، غير أنّي الآن من أكثر مؤيدي الزواج من القريبات الجميلات، مثل: حياة... ، هكذا هو الحبّ يجعلنا نتبدّل بين عشيّة وضحاها، تتبدّل أفكارنا ورؤانا، كل شيء قابل للتغيير إذا مسّه الحبّ.
- رهان الحبّ عندي هو خلوده، وليس قوته الناجمة عن الاندفاع الأولي، المكتنز بغرام اللحظة.
- حين يولد الحبّ قويا، سيكتب له الخلود، سيظلّ ملتحفا رداء البقاء ما دمنا أحياء.
- حتى لو فرّقتنا الدنيا؟! يقولون: «البعيد عن العين بعيد عن القلب».
- ولمَ تفرقنا؟ نحن الآن أقرب من أي وقت مضى.
- لكن... أنا...

أنا ماذا؟ أنا جبانة هزيلة، أداري سوءاتي بالكذب والتخفّي، هذه أنا، لو كشفتُ أوراقي الخائبة منذ البدء لما آلت بنا الحال إلى هنا، ولما أوقعتُ ذاتي في هذه المتاهة، تعوزني القوّة حتّى أعلن عن كلّ شيء، عليّ اصطياد الوقت المناسب لإخباره، هذا الوقت الذي أزعم منذ وقت طويل مضى أني بصدد اقتناصه لم يأت، وربّما لن يأتي، إنه أشبه بغزالة حرة طليقة يرجوها الصياد أن تقترب منه حتى يُحكم عليها شركه، ولا تقترب ولن تقترب، أحيانا يجب أن نغمض أعيننا ونغامر، وليكن ما يكن، الأهمّ ألا نأسر ذواتنا في سجن الوهم، هكذا بدا لي الوضع أكثر نصوعا، اللهمّ شجاعة، فقط شجاعة.

منذ جمع الله محمّد بأمّه وهو لا يغادرها قطّ، يمضي معها جلّ وقته، اقترح ذات مساء أن يأخذها معه إلى الكويت، رفضنا جميعنا، انزعج أبي من جرأته على طرح فكرة كهذه، أخبره أنّها لو كانت تعي، كسابق عهدها، لرفضت، كيف لمن تعلق قلبها بـ «الحويرة» و«المصنعة» أن تغادرها في خريف العمر، وهي التي أمضت حياتها متقلبة بين أزقتها، متنفسة ظلال غافها وأراكها، متلذّذة بنكهة البيذام والفرصاد، غارقة في جنون نوارسها، ممزقة سياج أمواج بحرها الهادر بقدميها الحافيتين، النابضتين بعشق الشواطئ المحمّلة برائحة الطفولة الغابرة، وبراح أفواج «العومة» المكدسة على رمالها اللزبة، هذا القلب يا محمد لا يروم البعد أبدًا، حتى لو أمسى دون ذاكرة، حتى لو أفَلت حكاياته البعيدة.

لم يعترض محمد على رفضنا، هو يعلم في قرارة ذاته أنّنا أولى في الحكم على قرار كهذا، لذا ارتأى الصمت، وواصل سيرة التكفير عن عقوق سنين ولّت، كان يأتي صباحا، ويغادر مساء عند شروعها في النوم، لقد خفّف عنّا

هذا عبئا كبيرا كان يقلق كاهلنا، الدكتور محمد الذي يتابع ماما كولجهان يفعل ذلك بحبّ عميق، يجترّ كلّ ما علّمه إيّاه فنّ الطبّ ليمسح على قلبها الموبوء وإن لم تدرِ، كانت ترقبه بنظرة غريبة، نظرة تحمل في جوفها شيئا من ابتسام خجول، هل أدركت شيئا؟!

واصل خالد إرسال رسائله، تقنيات التطبيقات الحديثة تعين العشاق على التفنّن في بثّ وهج غرامهم، لكنّها في الوقت ذاته تفتح مجالا رحبا للحبّ الزائفِ أن يفردَ أجنحَته المراوغة؛ لذا تنخدع كثير من الفتيات، ويقعن في شرَك الرغبات المغلّفة بقشرة الحبّ، لا يمرّ يوم دون عبارات ومؤثرات يعبّر فيها خالد عن حبّه ورغبته في ارتباطنا، كان يرسل، ويستمر في الإرسال حتى لو لم أردّ عليه.

ذات ندم، قرّرت أن أخبره بكل شيء، أن أعقد صفقة مع المجهول، وأمدَّ كفّي له، وأستقبل ما سيمطرني به، كانت رائحة الخوف تنتشر رويدا رويدا إلى حجرات البيت، وحجرة ماما كولجهان بعد إصابتها بعدوى فيروسية. ابنها محمد يمسح على صدرها الموغل في سعال يزداد حدّة مع مرور الوقت، وفي كفّه مضادات مقاومة للالتهاب، هذا الخوف الذي يمدّ نتنه في أرجاء بيتنا ساقني إلى هاتفي، كانت الساعة تصافح التاسعة مساء، تناولته ويداي ترجفان، أكلهما القلق على ماما، أو ربّما على شيء ما يمكث في حجرات قلبي منذ أمد، وأراه يكبر ويكبر، أخذت هاتفي، وكتبت: خالد محمد، أو خالد ابن عمي محمد بن سعيد، وحفيد حبيبتي ماما كولجهان، يااااه انظر كيف تبدّلت المعادلة الآن، لكن لا يهمّ، فهذه الوشائج وإن كانت شديدة لكنّها لن تغيّر من الأمر شيئا.

خالد، لقد تجادلنا في الحبّ مرارا، وأنا لا أنكر أنّي انجذبت لشخصك، ووسامتك، وربّما أحببتك، فالقلوب بحار سحيقة، قد تندسّ بين مغاراتها مشاعر مخفية، لم نشأ إعلانها؛ لأسباب كثيرة، نعم ربّما أحببتك، لكن ما يجب أن تعلمه هو أنّ هذه الفتاة التي بنيت لها في قلبك بيوت الحبّ، هي ليست أنثى بالمعنى المعهود، المعنى الفسيولوجي للأنثى التي تتّقد بالمفاتن النافرة التي توقظ ذكورة الرجال، أو تلك الأنثى التي تخبئ في جوفها رحما شهيا، تنزل من عنقه سلالات الإنسان.

حسنا دعني أوضّح لك ذلك بطريقة أخرى، هل سمعت من قبل عن أنثى دون رحم، وبمهبل يعوزه جراحة، وتدخل طبي؛ حتى يتسنّى له ممارسة غريزته البشرية ممارسة طبيعية كسائر البشر؟ أنا تلك، أنا أنثى متلازمة ماير- روكتنسكي- كوستر هاوزر(MRKH)، عجيب أمر هذه الأنثى، يتداول الناس اسمها مذيّلا بتاء التأنيث، لكنّه تذييل زائف وقعتْ هي في شركه أولا حين كانت طفلة تحدّق في المرايا وهي ترتدي «مكاسي العيد» وتضع على مقدمة شعرها تاجا ملوّنا بألوان قوس المطر، ثم تخرج مباهية أترابها، بمنمنمات أنثى، تفتّش عن حلو الكلمات، ونعومة المديح، وجمال الوصف، فتمتزج النظرات، وتطفو الضحكات، وتتراقص الضفائر، وتنتشي الكفوف بحمرّة الحنّاء، ثمّ لا تلبث أن يطال شباكها عمر المراهقة حيث شطط الانتظار لتلك النتوءات النامية، تتمسمر عند مرآتها، تقيس خصرها، وتلامس جسدها براحتها، ترقبه وهو يتأهب لملاقاة إرهاصات الأنوثة المنتظرة، تستشعر حمحمة روحها التوّاقة لمجاراة النسوة وعالمهنّ الحافل بالدهشة، لكن كل ذلك لا يلبث أن يتلاشى، لتستفيق عيناها الحالمتان على حقيقة مرّة

هي ليست ككل النساء، لن أطيل عليك يا خالد، سأعيدها على مسمعك: متلازمة ماير- روكتنسكي- كوستر هاوزر(MRKH) احفظها جيدا، لن أجبرك على شيء، كل ما أريده منك الآن أن تفكر، وتتخذ قرارك بهدوء، خذ وقتك، أنت غير مضطر لربط مصيرك بامرأة ذات متلازمة، حسنا تذكر متلازمة ماير- روكتنسكي- كوستر هاوزر (MRKH).